

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجدد صالح الدقر
٢٢٩٧٧

808.5
D58mA
1958/59
C.1



مجلد رفقہ زردی سما

جَامِعَةُ دِمَشْقِ

— — —

المحاضرات العامة

خلال

العام الجامعي ١٩٥٨ - ١٩٥٩

مطبعة جامعة دمشق

جامعة دمشق

المحاضرات العامة

في العام الجامعي ١٩٥٨ - ١٩٥٩

صفحة

كلمة مدير جامعة دمشق	
١ - الأستاذ الدكتور حكمة هاشم	١
١ - الأمم المتحدة : نشوؤها وتطورها	
٥ - الأستاذ الدكتور فؤاد شباط	٥
٢ - الذرة في خدمة الإنسانية والسلام	
٢٣ - الأستاذ الدكتور أنطون الجناوي	٢٣
٣ - ذكرى إعلان حقوق الإنسان	
٥٣ - الأستاذ الدكتور مصطفى البارودي	٥٣
٤ - سياسة البترول الاستعمارية في الشرق العربي والعالم	
٧١ - الأستاذ الدكتور صلاح عمر باشا	٧١
٥ - تطور مفهوم النضال العربي ضد الاستعمار	
٩٩ - الدكتور عبد الكريم غرايبة	٩٩
٦ - القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة	
١٣٩ - الأستاذ محمد المبارك	١٣٩
٧ - إشترابية الاسلام	
١٥٣ - الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي	١٥٣
٨ - خواطر عن نهضتنا العربية	
٢٦٥ - السيد مالك بن نبي	٢٦٥

كلمة مدير جامعة دمشق

الأستاذ الدكتور حكمة هاشم

هذه إضمامة من المحاضرات العامة التي القيت على مدرج جامعة دمشق خلال العام الجامعي ١٩٥٨ - ١٩٥٩ . ويسعدني أن أقدمها للجمهور في أرجاء عالمنا العربي الأكبر .

لقد درجت جامعة هذا الإقليم على سُنّة قديمة العهد تشعر أنها أشد حرصاً على مواءمة العمل بها في ظل عهد الوحدة السعيد . وتقوم تلك السُنّة على الصدع برسالتها الثقافية على الملأ في محاضرات تتسم بالتبسيط والتعميم ، حتى لا تظل مشكاة المعرفة والفكر قابعة في حصن الجامعة وحسب ، بل تقذف بأنوارها « خارج الأسوار » كما يقولون .

وإن من تقاليد الجامعة أن تدع منبرها حراً يرسل محاضروها من أعلاه بأرائهم دون أن يكون لهذه الآراء غير طابع الاستقلال الفردي الخالص . على هذا النحو لا يمكن أن تعتبر الأفكار المبثوثة في تضاعيف هذه المحاضرات بمثابة تمثيلاً مذهبياً لوجهة نظر الجامعة وإنما هي حافزة على التأمل ، مدعاة لجعل آفاق النظر رحبة أمام كتائب الناظرين والباحثين .

الأمم المتحدة ، نُشُوؤها وتطورها

للدكتور فؤاد شباط

وكيل كلية الحقوق

في هذا اليوم السعيد تكمل المنظمة العالمية عامها الثالث عشر وتستقبل عمر
البدر مضيئه بأنوارها الكرة الارضية لايحجبها الا خسوف جزئي يشاهد في سماء
عدد قليل من الدول المستقلة .

كيف نشأت المنظمة التي نحتفل بعيدها اليوم ؟ وكيف تطورت خلال
السنين التي مرت عليها ؟ وهل يمكن القول انها نجحت حتى الآن في تحقيق
الاهداف السامية التي بني عليها ميثاقها ؟ وماذا يكون في المستقبل ؟ هذا
ما سنحاول معالجته في هذه الدراسة الحقوقية لافتين انظاركم العالية الى ان النقد
الفني لايعني السلمية وأن التقريب العلمي لايفيد الحزبية ، فنحن ندين بالحياد
وهذا واجب مقدس تحتمه الدراسات القانونية بنوع خاص .

ايها السادة : نعود واياكم بالذاكرة الى عام ١٩٤١ لانحيمي تلك الايام
المظلمة ولا لنحييها لان الانسان كان يقتل فيها اخاه الانسان دون رحمة ولا
هوادة ، بل لنلمس جذور منظمة الامم المتحدة وتبين الاصل الذي انبثقت
عنه . فقد سبق تأليف المنظمة تصريحات ومؤتمرات عديدة مهدت كلها لمؤتمر
سان فرانسيسكو وصياغة الميثاق .

فهذا تصريح لندن الصادر عن دول الكومنولث وممثلي الحكومات الذين ابعدها من بلادهم ولجأوا الى العاصمة البريطانية ، وقد جاء في ١٢ حزيران ١٩٤١ عن قصر سان جيمس يناهز بان الاساس المتين لسلم دائم بين الشعوب الحرة انما يقوم على تعاون حقيقي بينها وعندئذ يزول شبح الاعتداء ويتمكن الجميع من تحقيق سلم اقتصادي واجتماعي .

« وان الموقعين على هذا التصريح يرغبون في تحقيق هذه الاهداف عاملين معاً وبالتعاون مع بقية الشعوب الحرة سواء خلال الحرب القائمة او بعد عقد الصلح » .

وبعد ثلاثة اشهر يجتمع الرئيس الاميركي روزفلت ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل في مكان ما في عرض الاطلنطي وينشران على العالم تصريحاً شهيراً يعلنان فيه بالحرف الواحد « انهما لا يسعيان الى أي توسع اقليمي وانهما يعتبران ان اي تعديل اقليمي لا توافق عليه الشعوب ذات العلاقة بصورة حرة غير جائز أصلاً ، وانهما يحترمان حق الشعوب في اختيار نظام الحكم الذي يروق لها ، وببذل الجهد في احترام حق الشعوب بالحصول على المواد الاولية وتأمين المبادلات التجارية واقامة تعاون كامل للتقدم الاقتصادي ، وانهما يسعيان بعد القضاء على النازية الى اقرار سلم عالمي ... » .

هذه المبادئ وغيرها مما نص عليها تصريح الاطلنطي جاءت حين اعلانها بلسماً لجراح الشعوب التي كانت محتلة من قبل الجيوش النازية والفاشية تذوق الامر منها فبدت كبارقة أمل في انشاء منظمة عالمية تعمل في المستقبل على تجنب كوارث الحروب .

وما أن وقعها الرئيسان الاميركي والبريطاني حتى اقترنت خلال الشهر التالي بتوقيع ممثلي الاتحاد السوفياتي والحكومات التي قبلت بميثاق سان جيمس .

— وفي اليوم الاول من عام ١٩٤٢ اجتمع في واشنطن رئيس الولايات المتحدة (روزفلت) ورئيس وزراء بريطانية (تشرشل) ومكسيم ليتفينوف عن الاتحاد السوفياتي وسونغ عن الصين ووقعوا وثيقة تاريخية اطلقوا عليها اسم « تصريح الامم المتحدة » ، وهي المرة الاولى التي يستعمل فيها هذا التعبير ، وقد انضم اليها في اليوم التالي ممثلون عن اثنتين وعشرين دولة ثم وقعها بعد ذلك ممثلون عن احدى وعشرين دولة اخرى بينها الدول العربية الآتية : مصر ، المملكة العربية السعودية ، لبنان ، العراق ، سورية ، وكل هذه الدول تعهدت بأن تعمل على سحق العدو المشترك وعدم اللجوء الى عقد صلح منفرد معه ، ووافقت على مضمون تصريح الاطلنتي السابق الذكر .

وبعد ثلاث سنوات لم يدع لمؤتمر سان فرانسيسكو الا ممثلون عن الدول التي سبق لها ان وقعت « تصريح الامم المتحدة » قبل شهر آذار ١٩٤٥ وأشهرت الحرب على المانيا واليابان .

ثم يجتمع وزراء خارجية الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا العظمى وسفير الصين في موسكو ويصدر عنهم بيان بمتابعة الحرب حتى النصر النهائي ويقررون انه عندئذ لا بد من انشاء « منظمة عالمية لخدمة السلم والأمن الدوليين تقبل فيها الدول المسالمة من كبيرة وصغيرة على قدم المساواة في السيادة » وهكذا يكون مؤتمر موسكو قد سبق غيره في تعريف المنظمة المزمع انشاؤها .

وأخيراً وبعد فترة قصيرة اجتمع في طهران الرؤساء الثلاثة الكبار روزفلت وستالين وتشرشل وكان اجتماعهم ببعضهم للمرة الاولى وأصدروا تصريحاً جاء فيه : « اننا على يقين بأن اتفاقنا يؤمن لنا سلاماً دائماً ، واننا نشعر تماماً بأعظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا وعلى عاتق الامم المتحدة من أجل تشييد صرح السلم الذي

يتوجب على غالبية الشعوب ان تدعمه والذي يبعد لاجيال عديدة قادمة شبح الحرب والمخاوف التي ينشرها في العالم .

تلك هي أهم التصريحات التي مهدت للمنظمة العتيدة واعلنت مبادئها بصورة عامة ، وبعدها حل أو ان صياغة الميثاق فجرت الاجتماعات الاولى في فندق دمبرتون او كس في واشنطن حيث تمت مناقشات مزدوجة بين بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية من جهة (من ٢١ آب حتى ٢٨ ايلول ١٩٤٤) وبين الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا العظمى والصين من جهة ثانية (من ٢٩ ايلول حتى ٧ تشرين الاول ١٩٤٤) .

وقد وضعت مقترحات دمبرتون او كس أهم الاسس التي سيرتكز عليها الميثاق الا انها لم تبت في قضية هامة للغاية وهي اصول التصويت في مجلس الامن فتلافى مؤتمر بالطة هذا النقص ، وبعد أن اتفق اركانه على قبول مبدأ الفيتو قرروا توجيه الدعوة لمؤتمر سان فرانسيسكو وكلفوا الولايات المتحدة الاميركية القيام بذلك احالة عن نفسها ونيابة عنهم .

ولنتقل الآن الى مدينة سان فرانسيسكو الواقعة على المحيط الهادي ولنشاهد ممثلين عن خمسين دولة يجتمعون في أضخم مؤتمر عرفه التاريخ من بينهم ممثلو الدول العربية التي سبق لها أن وافقت على تصريح الامم المتحدة وأعلنت الحرب الحرب على المانية واليابان ، وقد بلغ عدد المؤتمرين ثمانمائة وخمسين يضاف اليهم مستشاروهم وموظفوهم الاداريون وموظفو أمانة سر المؤتمر مما جعل عدد الحاضرين يبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة شخصاً علاوة عن الفين وخمسمائة آخرين بين مراسلي صحف وممثلي اذاعات ومراقبي منظمات وجمعيات .

عقدت اللجان الفنية المنبثقة عن المؤتمر ما يقارب الاربعمائة جلسة ، وعقد المؤتمر جلسته العامة بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٤٥ أقر فيها بمبادئ الاسماء والوقوف

الميثاق المنتظر وقد قبل بالاجماع . وفي اليوم التالي (٢٦ حزيران) دعي المؤتمر
لنوقيع هذه الوثيقة التاريخية وكانت الصين اول الموقعين لانها كانت الضحية
الاولى لاعتداء المحور الدفين .

وقد دامت مراسم التصديق الداخلية التي اشترطها الميثاق حتى ٢٤ تشرين
الاول ١٩٤٥ وعندئذ أصبحت « منظمة الامم المتحدة » قائمة فعلاً بدءاً من
هذا التاريخ الذي اعتبر عيداً سنوياً لها : ولما كان الميثاق لم ينص على مقر للمنظمة
فقد انعقدت الدورة الاولى في مكانين مختلفين فاجتمع مجلس الامن وأمانة
السفر في ليكسكس والجمعية العمومية في فلاشينغ ميدوز ، وتقرر بتاريخ
١٤ كانون الاول ١٩٤٦ ان يكون مقر المنظمة في نيويورك على الضفة الشرقية
من نهر الهدسن بين الشارعين ٤٢ و ٤٨ ، وقد تبرع روكفلر للبناء بمبلغ ثمانية
ملايين ونصف مليون دولاراً ، ومن يزر نيويورك يشاهد في الموقع المذكور
أربعة أبنية ضخمة تحيط بها الحدائق الغناء وكلها أملاك دولية واقعة في أرض
أميركية تفرغ عليها اعلام الدول الاعضاء .

تلك هي خلاصة الأدور التي مرت على نشوء الامم المتحدة وصياغة ميثاقها
الذي يتألف من مقدمة ومائة واحد عشر مادة تهدف كما جاء في الكلمات
الاولى من المقدمة الى حماية الاجيال المقبلة من كارثة الحرب التي اجتاحت
الانسانية بآلام لا توصف مرتين في مدى حياة جيل واحد .

وعلى هذا ، ومن تصفح مراحل التأسيس يبدو أن منظمة الامم المتحدة
إنما هي في الاصل رابطة لعدد من الدول جمعتهما مصلحة واحدة وهي محاربة
المحور الهتلري وضرورة التخلص منه الى الابد ، فكانت والحالة هذه ردة فعل
للحرب العالمية الثانية التي قاسى أهواها شعوب تلك الدول فانتفضوا عليها جامعين
قواهم المادية والروحية وموحدن جهودهم في سبيل حماية الاجيال المقبلة من
حرب عالمية ثالثة .

ومن ينظر الى المنظمة في وضعها الحالي يراها قد خرجت عن اصلها هذا. والدليل على ذلك أنها لم تعد تضم اعداء المحور أي الحلفاء فحسب، ولفظة «حلفاء» تشير هنا الى كل من رفع السلاح في وجه العدو النازي في الحرب العالمية الثانية من دول المعسكرين الشرقي والغربي على السواء، بل أصبحت أسرة عالمية للدول من كبيرة وصغيرة، قديمة وحديثة، قريبة وبعيدة، مهما كان نوع الديمقراطية أو اللاديمقراطية السائدة فيها، وهذه الأسرة هي اليوم مؤلفة من إحدى وثمانين دولة مستقلة هي جمهوريات أميركا بكاملها، ودول أوروبا باستثناء سويسرة التي تعتقد أن حيادها الدائم يتنافى مع انتسابها للمنظمات العالمية، خلافاً لما ذهب اليه المنظمة نفسها بالنسبة للنمسة الموجودة في وضع مماثل منذ عام ١٩٥٥ والتي انتسبت للأمم المتحدة بعد الاعتراف لها بهذا الوضع، وباستثناء المانية المهشمة وهي لم تبد رغبة جديدة في الانتساب أيضاً. أما الدول الآسيوية فكلها أعضاء في الأسرة العالمية باستثناء دولتين جزأتين (كوريا وفيتنام) ودولة عظيمة بمساحتها وعدد سكانها، كان وما يزال البعض يرفض الاعتراف بها وبحول دون ضمها للأسرة العالمية، وهذه الدولة هي الصين الشعبية وخلافاً لما سبق ذكره من الدول فهي ترغب في الانضمام للمنظمة ومنذ عام ١٩٤٦ حتى يومنا هذا تقوم بعض الدول متسلحة بحيادها أو بصداقتها فترشحها للعضوية وتزكيها وتكون النتيجة عدم درج قضية انتسابها في جدول أعمال الدورة تماماً كما حدث في الدورة القائمة حالياً اذ رفض النظر في اقتراح انتسابها ب ٤٤ صوتاً ضد ٢٨ و ٩ مستنكفين.

ان عدم قبول الصين الشعبية هو دليل قاطع على ان المنظمة جنحت للاعتبارات السياسية التي تدين بها الاكثوية من أعضائها في البت بطلبات انتسابها. وقد سبق لها ان أحلت السياسة محل القانون عندما قبلت اسرائيل للعضوية عام ١٩٤٨ فقبولها إياها يعتبر خرقاً فاضحاً لنص الميثاق الذي يشترط في العضو أن يؤلف «دولة» والدولة كما نعلم لها حدود ثابتة، واسرائيل ليس لها حدود ثابتة،

فاتفاقات الهدنة تنص صراحة على ان الخطوط التي حددتها ليس لها أية قيمة سياسية . وكذلك فان الميثاق يشترط في الدولة العضو ان تكون محبة للسلام ، وان تقبل الالتزامات التي يتضمنها الميثاق ، وان ترى المنظمة أنها قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات ، وان ترى المنظمة أنها راغبة في هذا التنفيذ ، ولا يتردد أي شخص بعيد عن الهوى في اعتبار اسرائيل مجردة عن هذه العناصر القانونية كلها فالصهاينة جبوا على الغدر والعدوان ، وها ان المنظمة قد اذنتهم عشرات المرات دون ان تقدم على بتر هذا العضو الفاسد ، الا يشير كل ذلك الى ان المصالح السياسية لها المقام الاول لدى المنظمة وأنها تطغي احيانا على احكام القانون الدولي .

والاعتبارات السياسية هي التي أملت أيضاً استخدام حق الفيتو لدى ترشيح كثير من الاعضاء فتأخر انتسابهم للمنظمة بسبب ذلك ، وعلى هذا لم تقبل في عضوية المنظمة خلال عشر سنوات أي بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٥ سوى تسع دول فقط ، ثم جرت مصالحة بين المعسكرين الشرقي والغربي لقبول ست عشرة دولة دفعة واحدة في عام ١٩٥٥ ، واصبح قبول الاعضاء يجري منذ ذلك الحين دون صعوبة وبصورة آلية ، ففي عام ١٩٥٦ قبلت في العضوية اليابان وثلاث دول عربية عقب نيل استقلالها (السودان ومراكش وتونس) كما قبلت في عام ١٩٥٧ دولتا الملايو وغانا في اليوم التالي لاعلان استقلال كل منهما ، وما زالت قضية قبول الصين الشعبية شغل العالم شاغل .

والآن وقد أصبحت المنظمة ذات صفة عالمية هل فقدت انسجامها الذي كان السبب الرئيسي في تكوينها ؟ لا اعتقد ذلك فمحل العدو النازي الذي جمع الشمل في الاصل حل اليوم عدو مشترك آخر وهو النجاح العظيم الذي احرزه فن التسلح والاكتشافات الذرية والهيدروجينية التي تأتي كل يوم بجديد ، وما مثل الخوف يكتل الافراد ، والشعوب كالأفراد فهي تسارع اليوم للنجدة ببعضها

و ضم جهودها للعمل على الحد من شر الاسلحة النووية وجعلها اداة ببناء وسعادة
لامعول تخريب وتعاسة .

ولكن يبدو أن هذا العدو المشترك الجديد ، وأن بقية الاعداء منه في
الخطورة ، يوحد الاهداف من جديد ويفرق في الاسلوب ولهذا فهو من جهة
عامل قوي على بقاء المنظمة واستمرارها ، بينما هو من جهة ثانية عامل على دعم
التكتل داخل المنظمة ، وهنا يتجلى لنا الدور الهام الذي تلعبه والذي يرجى
أن تستمر فيه كل من الكتلة الآسيوية الافريقية ، و كتلة أميركا اللاتينية في
ايجاد توازن بين المعسكرين الجبارين الشرقي والغربي ، فهاتان الكتلتان
تشبهان بالدور الذي تلعبانه في المنظمة الاحزاب التي تشكل الوسط في البرلمانات
والتي تعمل على التوازن بين اليساريين واليمينيين ، ولو تفاهت هاتان الكتلتان
تفاهماً كلياً في المنظمة لتمكنتا من املاء ارادتهما المشتركة في الجمعية العمومية
لأنهما تشكلان الاكثوية فيها .

ونتيجة أخرى للصفة العالمية التي اتخذتها المنظمة هي أنها أصبحت تجنب أكثر
فأكثر الى تطبيق الاساليب الدبلوماسية بدلاً من التقيد بمجرية نصوص الميثاق
فمنذ تجربة كوريا التي تم فيها تأليف قوات مشتركة عملت تحت راية الامم
المتحدة وحيث أن النتيجة دلت على فشلها فإن المنظمة لم تعد تفكر بتطبيق
احكام الميثاق في الدفاع الحربي المشترك ، ولجنة رؤساء الاركان نفسها وان
كانت موجودة حتى الآن إلا انها لاتعمل ، وعلى هذا فان الخلافات التي تهدد
السلم أصبحت تحل اليوم بالاساليب الدبلوماسية فتارة تطبق المنظمة حكمة
سليمان وتارة تأخذ بأنصاف الحلول ، وكثيراً ما تلجأ للتسوية والتريث بدلاً
من اتخاذ موقف حاسم في القضية المعروضة عليها تاركة للزمن أن يفعل مفعوله
ويحل محلها في ايجاد مخرج لها ، وهي على الغالب تكلف الفريقين المتخاصمين أن
يباشرا المفاوضات فيما بينهم حلاً للمشكلة القائمة .

وبادرة جديدة نلمسها في هذه الآونة في تطبيق الاساليب الدبلوماسية واصلاح ذات البين بحلول توفيقية تقديرية وكثيراً ما تكون تخديرية هي أن المنظمة أخذت تعهد الى أمينها العام باختصاصات لم تقرها له بنود الميثاق فهي توفده للتحقيق وتطلب اليه اقتراح الحلول الآيلة الى المصالحة والتوفيق ، وقد باشر بتعيين من يمثله لهذه الغاية مانحاً إياه لقب سفير .

وعلى هذا نرى أن اساليب المصالحة آخذة في الازدياد لدى المنظمة وأن مركز الأمين العام اصطبغ بصبغة دبلوماسية أكثر منها ادارية وكأني به يتقرب من وظيفة رئيس للأمم المتحدة وحكم عالمي يلجأ إليه في الملمات الكبرى فتجتمع الوفود إليه وتنجح الى مكتبه وهو يقوم بالمساعي الحسنة او بالوساطة فيما بينها .

والآن وبعد استعراض نشوء الأمم المتحدة وتطورها الذي جننا على خطوطه الكبرى ، هل يمكن القول بأن المنظمة نجحت أم فشلت حتى الآن في تحقيق أهداف ميثاقها .

انه لمن العسير جداً أن نأتي على سرد الاعمال التي قامت بها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٥ حتى يومنا هذا ، سيما اذا لاحظنا أن هذه الاعمال تقوم بها جهات متعددة من هيئات عامة ومتخصصة للمنظمة ، أي الجمعية العمومية ومجلس الأمن والمجلس الاجتماعي والاقتصادي ومجلس الوصاية ومحكمة العدل الدولية والامانة العامة ، ومن مؤسسات مرتبطة بالمنظمة وعاملة تحت اثرها وعددها كبير وهي منتشرة في انحاء العالم ، لذلك تقتصر على التذكير بالأهم من هذه الأعمال راجين أن لا يعتبر سكوتنا عن بعضها الآخر غمطاً لحق المنظمة أو تنقيصاً لنشاطها فنقول :

— لما كان الهدف الاول من تأسيس المنظمة العمل على حفظ الأمن والسلام الدوليين فإن المنظمة قامت بتخفيف حدة التوتر الناشب بين بعض الدول الاعضاء

ولا سيما بين المعسكرين الماردين الشرقي والغربي فجمعت الشئتين تحت سقف واحد يظللها علم واحد هو علم الأمم المتحدة ومهدت للجمع بينهما في مؤتمرات عالمية ، واتخذت في سبيل المحافظة على السلم قرارات عديدة ذات شأن أهمها قضى بإحداث لجنة الدراسة المشا كل الناشئة عن اكتشاف القوى الذرية ، وحظر القيام بالدعاية للحرب بجميع أشكاله ، وتهيئة اتفاقية أمنية لنزع السلاح وحظر استخدام الادوات التخريبية ذات المفعول الشامل ، وتحريم استعمال الاسلحة الذرية والهيدروجينية ، وإدانة من تسول له نفسه من عدوان مسلح ، كما فعلت في موقفها المشرف من العدوان الثلاثي الغاشم على مصر .

وفي هذا المضمار قامت محكمة العدل الدولية - ونظامها جزء لا يتجزأ من الميثاق - بمجل كثير من الخلافات فخدمت السلم العالمي خدمة جلى وصدر عن مقرها في لاهاي منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن تسعة عشر حكماً قضائياً في دعاوى دولية اقيمت لديها كما أبدت أحد عشر رأياً استشارياً في نقاط حقوقية جرى استفتاءؤها فيها .

وعلى هذا نجحت بقية أجزاء المنظمة وأعمالها كلها تنقطب نحو خدمة السلم العالمي ، فقد توسطت المنظمة في إنهاء الحرب التي نشبت بين بعض الدول الاعضاء وتدخلت بقوة السلاح في حرب كوريا من أجل وضع حد لما اعتبرته عدواناً من بعض البلاد عليها فحالت بذلك دون نشوب حرب ثالثة .

- وقد اهتمت المنظمة منذ نشوئها بالعمل على تحقيق أهدافها الاقتصادية وما مثل ذلك يخدم السلام ، فقامت بمساعدة البلدان المتخلفة اقتصادياً ، وقد رحبت هذه البلدان على الغالب بمثل هذه المساعدات لأنها أفضل بكثير من المساعدات التي يمكن أن تأتيها عن طريق الاتفاقيات الثنائية ان من حيث الكمية أم من حيث النوع إذ لا يخفى أن المساعدات - التي تأتي من دولة واحدة

قد تؤدي أحياناً الى عواقب وخيمة تكون وبالاً على من يتقيد بأغلاها فالانسان أسير الاحسان ، ولذلك فقد فتحت الدول خزائنها لمساعدات الامم المتحدة لان المنظمة شخص اعتباري يعمل على إسعاد اعضاءه دون أن يرمي من وراء ذلك الى تحقيق أي هدف خفي . وعلى هذا تضع المنظمة تحت تصرف البلدان المتأخرة اقتصادياً اللجان الاقليمية والخبراء الفنيين ، وقد زاد عددهم اليوم على ستة آلاف . وترصد لهذه الغاية في كل عام الاموال اللازمة كما تقدم المنح المدرسية لتؤمن لبعض الدول الاخصائيين الذين تحتاج إليهم في تطويرها .

وتعمل المنظمة على النهوض بالبلاد الموضوعة تحت الوصاية حتى تستكمل عناصر استقلالها ، كما أنها تتلقى عرائض وشكاوى من البلاد التي ما زالت رازحة تحت نير الاستعمار وتنظر فيها على ضوء ما ورد من بنود خاصة لهذا الغرض في الميثاق .

ولما كانت القواعد الحقوقية في تطور دائم بعيدة كل البعد عن الجمود ، وهو ما عبرت عنه القاعدة الفقهية بقولها « ولا ينكر تبدل الاحكام بتبدل الازمان » فقد عنت المنظمة عناية خاصة بتنسيق القانون الدولي وتطويره تنفيذاً لما ورد في المادة ١٣ من ميثاقها وذلك على يد « لجنة الحقوق الدولية » التي شكلتها منذ البدء والتي تعقد بانتظام دورات سنوية في مدينة جنيف ، وقد استطاعت المنظمة إبرام عدد لا يستهان به من الاتفاقات الجماعية ، نذكر منها على سبيل المثال الميثاق الذي أبرمته (٤٨) دولة لحظر جريمة إبادة الجنس أي القضاء على شعب ما قضاء متعمداً .

ولما كان الهدف الاصلي للقواعد الحقوقية العمل على إسعاد الانسان ، ولما كانت سعادة الانسان تقاس بالحريات الاساسية التي يتمتع بها ، وكانت سعادة الامم متوقفة على سعادة أفرادها وكرامة الشخصية البشرية وقيمتها . وكل هذه

العبارات المحببة للقلب و ارادة في مقدمة الميثاق ، ولما كانت شعوب الامم المتحدة قد عازمت على رعاية الرقي الاجتماعي وتنظيم شروط احسن للحياة في نطاق حرية أوسع ، كما ذكرت المقدمة نفسها ايضاً ، فقد اوضحت المنظمة حقوق الانسان الاساسية في بيان عالمي اعترفت به معظم الدول واقتبست عنه كثير من الاحكام ان في دساتيرها أم في تشريعاتها الداخلية وتعاملها ، كل ذلك على أساس توفير الحريات الكاملة للجميع دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الدين . وقد أكد هذا البيان بشكل خاص حقوق المرأة وتحسين وضعها الاجتماعي على أساس المساواة بينها وبين الرجل في جميع مظاهر الحياة ولا سيما ما يتصل منها بالعلم والعمل .

ومن الرجوع الى اهداف المؤسسات المنفردة عن الامم المتحدة يتضح ما تقوم به المنظمة من اعمال مختلفة في ميادين الاقتصاد والمال والاجتماع والثقافة والصحة وغوث اللاجئين من مختلف الجنسيات ... وغير ذلك مما تسطره الانسانية بمداد العرفان .

الا ان لدى الاسرة العالمية كثيراً من القضايا الهامة التي ما زالت حتى الان معلقة وبعضها رافق المنظمة منذ نشوئها فلم تفلح في إيجاد مخرج لها أو أنها لم تقو على تنفيذ المقررات التي اتخذتها بشأنها .

وأهم هذه القضايا التي يتوقف عليها السلم العالمي الى حد بعيد هي بلا ريب قضية فلسطين العريضة ، فقد رافقت المنظمة منذ نشوئها ، ولا توجد مشكلة عولجت فيها حتى الان اكثر منها ، ويمكن القول ان المنظمة ساهمت الى حد بعيد في خلق هذه المشكلة ثم تعثرت فيما بعد بإيجاد حل لها . وقد نوقشت قضية فلسطين من قبل جميع الهيئات الرئيسية في المنظمة ، باستثناء محكمة العدل الدولية ، فلم تبحث من قبل الجمعية العمومية ومجلس الأمن فحسب بل تناو لها بالبحث ايضاً المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، ومجلس الوصاية ، والامانة العامة . وقد عقدت الجمعية العمومية دورتين استثنائيتين لها في عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ كما

ان مجلس الامن قد خصص لها اكثر من ربع اجتماعاته التي عقدها منذ قرار التقسيم المشؤوم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ، هذا عدا عن قرارات تربو على الالف صدرت عن المنظمة بشكاوى الدول العربية من تعديات الصهاينة المتكررة.

ومن القضايا المستعصية قضية جزيرة قبرص وقضية كشمير وقد اتخذت فيها المنظمة حتى الان موقفاً خجولاً متردداً بشأن تطبيق مبدأ تقرير المصير فيها. وكذا القول عن قبول الصين الشعبية في العضوية فانه يعتبر من الامور التي طال عليها الامل ، وقضية التمييز العنصري في اتحاد جنوبي افريقيا فهي مازالت قيد البحث والمعالجة والتسويق والمماطلة دون اي مبرر، سوى ما ذكرناه من لجوء المنظمة الى العمل بالاساليب الدبلوماسية والركون الى رأي الاكثرية. ومن اهم القضايا الحديثة المعروضة على المنظمة اليوم قضية الجمر ، وهي سبب في مشادة عنيفة بين المعسكرين الشرقي والغربي وقد ادرجت في جدول اعمال الدورة الحالية ، اما قضية الجزائر المجاهدة في سبيل تحررها فمجرد درجها في جدول اعمال المنظمة واتخاذ قرارات بشأنها قد اخرجها عن صفة القضية الداخلية التي حاولت فرنسا عبثاً اقناع الرأي العام بها . واننا لنرجو ان توفق المنظمة الى الخروج من هذه القضية بالاعتراف لاخواننا الجزائريين بحقهم في حياة حرة مستقلة وبهذا تكون قد تمسكت بمبادئ العدالة وانتصرت لحق تقرير المصير الذي تأسس عليه ميثاقها ودعمه في بنوده غير مرة .

هذا ، وان كانت واحدة من هذه القضايا المعلقة تكفي لتهديد السلام في العالم فان هناك قضية نزع السلاح التي كانت ومازالت الشغل الشاغل للمنظمة ، فان لم تجد لها حلاً سريعاً فالعالم يظل تحت كابوس تحويل الحرب الباردة القائمة الى حرب عالمية حامية ، أي ان المنظمة تكون قد فقدت علّة وجودها وبيت قصيدها. ورب قائل يقول ، هل ستقوى المنظمة على تذليل هذه الصعوبات وسواها القائمة لديها وتجنب الجيل الحالي ويلات حرب كونية .؟

ايها السادة انني من المتفائلين وارجوكم ان تكونوا كذلك ، وتفاءلوا بالخير تجدوه .

لاشك ان اسلوب العمل المتبع لدى المنظمة ، يحول دون اتخاذها موقفاً نهائياً وحاسماً في كثير من الامور فاشتراط المادة السابعة والعشرين من الميثاق موافقة سبعة من الاعضاء من اصل أحد عشر في الامور غير الاصولية المعروضة على مجلس الامن يكون من بينها اصوات الاعضاء الدائمين الخمسة متفقة ايجابياً ، ان هذا الاسلوب الذي نسميه « حق الاعتراض » او « الفيتو » يحول دون اتخاذ كثير من المقررات ، ولكن طريقة التصويت هذه في مجلس الامن تحمس لها الشرق والغرب عندما اقرت في مؤتمر يالطة ومن ثم ادخلت في صلب الميثاق ، فالاتحاد السوفياتي ارادها حرصاً منه على مصالحه الحيوية ، والولايات المتحدة الاميركية كذلك وتمهداً لموافقة مجلس الشيوخ على الميثاق خوفاً لئلا تبقى هذه الدولة خارج الخطيرة كما حدث عندما عرضت على المجلس معاهدة فرساي التي اختتمت بها الحرب العالمية الاولى فرفضها وكان ميثاق عصبة الامم جزءاً منها فظلت الولايات المتحدة آنذاك بعيدة عن جمعية الامم .

لقد اقترحت حتى الان حلول كثيرة تؤول اما للقضاء على حق الفيتو او للحد من سلطانه ولكنها ذهبت ادراج الرياح .

فقالوا : على الاعضاء الدائمين ان يتفقوا فيما بينهم على التنازل عن هذا الحق طوعاً واختياراً اي باتفاق رضائي ، وتحقيق ذلك يبدو في الواقع مستحيلاً للأسباب الجوهرية الآتفة الذكر .

وقالوا : لا بد من تعديل الميثاق ، ولكن سهي عن بال من اقترح هذا الحل انه يشترط لتحقيقه موافقة جميع الاعضاء الدائمين (المادة ١٠٨) وعندئذ قد يستخدم احدهم حق الفيتو ازاء مبدأ التعديل فنصبح ضمن حلقة مفرغة .

وما زالت قضية التعديل هذه تشكل صعوبة كأداء وأرى انها تنذر بخطر كبير على كيان المنظمة او على الاقل على تركيبها الحالي ، وآخر ما اقرته الجمعية العمومية بشأنها كان في ٤ تشرين الاول ١٩٥٧ فصوت خمسون عضواً واستنكف تسعة وخالف الباقيون من اجل عقد مؤتمر خلال دورة العام المقبل (١٩٥٩) لاعادة النظر بالميثاق ، وسنرى عندئذ ماذا يتم في هذا المؤتمر .

ولكن وجهة نظر الكتلة السوفياتية صريحة بالتمسك بحق الفيتو ، وقد ادلت بهاروسية في رد رسمي بعثت به الى حكومة الولايات المتحدة في ٢ شباط الماضي قالت فيه .

« ان التخلي عن قاعدة الاجماع من شأنه ان يؤدي الى سوء الاستعمال والى انتهاك مصالح الاقلية والى محاولات لاستخدام هيئة الامم المتحدة وفقاً لرغبة احدى الدول الكبرى او جملة من الدول . ان نبذ قاعدة الاجماع بين الدول الكبرى ليس من شأنه فقط انه لا يقوي هيئة الامم المتحدة بل انه على العكس يضعضع هذه الهيئة ويؤدي في النهاية الى تفسخها ، ولا يمكن القبول بذلك اذا كان يراد حقاً جعل منظمة الامم المتحدة هيئة فعالة للتعاون الدولي لا اداة في ايدي انصار سياسة مواقف القوة » .

هذا هو رأي الكتلة السوفياتية في الموضوع ، ومن جهة ثانية فان الكتلة الاسيوية الافريقية وكتلة اميركا اللاتينية لم ترجحا بتعديل الميثاق على الرغم من رغبتها في اعادة النظر في كثير من نقاطه المتعلقة بنوع خاص بشؤون الوصاية والاقتصاد ، وهي تقول اذا كانت النية تعديل المعنى أي المبادئ والاهداف التي ارتكز عليها الميثاق فمثل ذلك يولد حزناً وبأساً في العالم ، واذا كانت النية تعديل المبنى أي اسلوب العمل فهذا يعقد الامور بعد أن اصبح هذا الاسلوب مألوفاً تمرس عليه جميع من يعملون في المنظمة . والمخالفون لتعديل الميثاق بوجه عام يقولون ان الميثاق ولد بعد حروب وآلام قاست مرارتها الشعوب وقد اقام

الدليل على امكان التعايش والتعاون بين دول تعتنق مبادئ اساسية مختلفة وعلى هذا فهو جدير بالبقاء كما هو اذ ان تعديله قد يكون فرصة لخلق مشا كل جديدة بين الدول الكبرى وتعرض الشعوب الى حرب جديدة .

والحق يقال ان الداء لا يكمن في نصوص الميثاق بل في كيفية تطبيقها أي في سبر غور روحها فعلينا ان نفتش على النصوص « في قلوبنا لافي جيوبنا » . ولا يخفى ان النصوص الداخلية وأهمها الدساتير كثيراً ما تكون ناجحة في تطبيقها على الرغم من نواقص تشوبها أو إبهام يعتريها ، أما سر نجاحها فكامن في ارادة الشعب الذي يحيطها بعنايته ورعايته فتبقى قائمة زمناً طويلاً لا يفكر احد بتغييرها او تعديلها بل يأتي التطبيق العملي بهذا التعديل بصورة ضمنية لاشعورية .

أيها السادة ، ان المشادة القائمة بين الشرق والغرب بالنسبة لموضوع تعديل الميثاق لدليل كبير على شدة حرص الفريقين في الحفاظ على المنظمة ، وحماس الدول الصغرى لعدم التعديل كان وما زال منبعثاً عن الفائدة التي لمستها من استعمال حق الفيتو مرات متعددة انتصاراً لقضاياها ، وعن الامل الذي تعقده على المنظمة فهي محط انظار الدول ولا سيما الصغرى منها في تحقيق ما عجزت عنه جمعية الامم التي سبقتها ، وهي اليوم الامل الاخير للبشرية .

لا شك ان المنظمة تتعثر في كثير من المشاكل المعروضة عليها ولكن هل نطلب المستحيل من سيادات مختلفة ومفاهيم دولية متضاربة ..؟ يكفي للمنظمة فخراً انها جمعت على صعيد واحد وتحت سقف واحد الدول الحرة في العالم وقربت وجهات النظر بينها في كثير من الشؤون على أساس المساواة في السيادة التي نص عليها الميثاق بين جميع الاعضاء (المادة ٢) ، وانتا ترى ان اسلوب العمل الحالي الذي تسير عليه بفضل تطورها الذي ذكرناه يكسبها مرونة كفيلة باستمرارها وديمومتها ويحول دون الانسحاب منها ، وهذا ما حدث فعلاً حتى الآن فلم نسمع باستقالة أي عضو منها .

ونحن العرب نفخر باننا ساهمنا في وضع الحجر الاساسي للمنظمة فقد كنا ومازلنا من مؤيديها، وقد أصبح لجمهوريتنا العربية المتحدة، أيدها الله ورعاها، كلمة مسموعة فيها ومركزاً موقفاً بفضل مواقفها القانونية الحكيمة والخطوة الحيادية التي انتهجتها في الميدان الدولي . واننا معشر العرب نشد أزر المنظمة ونأخذ بناصرها عن عقيدة أصيلة فينا فنحن جبلنا على حب الاجتماع ، على دعم الاخوة ، على ممارسة التسامح ، على خدمة الهدف الاول والاخير الذي تعمل المنظمة على تحقيقه ألا وهو « السلام » .

بهذه اللفظة التي تشف آذاننا منذ أن تفتحت عيوننا للنور والتي اخذت بجماع قلوبنا وضمائرنا دائماً وأبداً اختتم هذا الحديث .

في ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٨

الذرة في خدمة الانسانية والسلام

للدكتور انطون الجناوي

الاستاذ بكلية العلوم

١ - أهمية الموضوع

سيدي ، سادتي ،

اننا نعيش اليوم في عصر الذرة ، بل في عصر النواة . لقد أصبحت النواة مصدر طاقة هائلة يصعب تخيل مقدارها ، ومدى تخريبها ان خربت ، ودرجة فائدتها ان أفادت . وكثيراً ما نقرأ في الصحف ، ونسمع بالاذاعة ، أخبار التفجيرات الذرية ، ولا تزال نذكر أهوال القنبيلتين الذريتين اللتين القيتا على هيروشيما وناغازاكي . وتوافينا الصحف بمعلومات عن الصيحات التي تتروى في كل مكان ضد استعمال السلاح الذري والهدرجيني . ولا يقل اهتمام الأمم المتحدة بالطاقة الذرية عن الحكومات والشعوب ، فهي التي أسست الوكالة الدولية للطاقة الذرية التي مركزها فيينا ، وشكلت اللجنة العلمية لدراسة تأثير الاشعاع الذري على الانسان ، وعقدت مؤتمرات الخبراء لدراسة امكانية كشف الانفجارات الذرية . وموضوع ايقاف التجارب الذرية تمهيداً لنزع السلاح هو من أنجاث اللجنة السياسية للأمم المتحدة ، وتدور حوله مناقشات حادة ، وأنظار العالم كله متجهة نحوه ونحو نتائجه . فالاتحاد السوفيتي يطلب ضرورة وقف هذه التجارب ووقفاً مطلقاً غير مشروط باي شرط ، مع العلم ان الاتحاد السوفيتي كان قد سبق

وأعلن من طرف واحد ايقاف جميع تجارب التفجيرات الذرية والنووية ،
فلو أوقفت الولايات المتحدة وبريطانيا في ذلك الوقت تجاربها الذرية لكان
أصبح هذا الوقف حقيقة راهنة ولتنفس البشر الصعداء . ولكنهم رفضوا
التضافر والمؤازرة واثابروا على التجارب .

ولقد أثبت مؤتمر الخبراء في جنيف ، اثباتاً قاطعاً ، أن لا شيء يعارض
تحقيق اتفاق بين الدول الذرية حول الايقاف الفوري لتجارب جميع الاسلحة
النووية . كما أسفر مؤتمر الخبراء هذا عن نتيجة حاسمة انه من الممكن تحقيق
مراقبة فعلية على التوقف العام عن التجارب النووية ، وتأسيس هذه المراقبة
بدون أي صعوبة تعترضها .

وماذا كان رد الفعل تجاه هذه الوقائع : مضاعفة التجارب النووية في
المعسكر الغربي لتحسين السلاح الذري والمدرجيني من جهة ، وتصريح هذا
المعسكر من جهة ثانية بانهم مستعدون لتوقيف تجاربهم النووية لسنة فقط ،
مع التحفظ بالعودة اليها متى شاؤوا .

ان توقيف التجارب النووية لسنة واحدة ليس معناه توقيف التجارب ،
لأن المدة اللازمة لتحليل هذه التجارب ودراسة نتائجها دراسة « دقيقة » وتهيئة
سلسلة تجارب أخرى مبنية على هذه التجارب ، يستوجب سنة واحدة . فلا
يمكن أبداً قبول هذا الوضع ، لما فيه من تأمر على أماني الشعوب وخداعها ،
وهي ترغب من الاعماق ومن الصميم أن يشطب فوق هذه التجارب الى الابد .

ويقابل العالم الاوضاع هذه كلها بصيحات بوقف التجارب الذرية ومنع
استخدام طاقتها في الحروب ، ونزع السلاح والتعاش السلمي ، وحصراً استعمال
الطاقة النووية لخدمة الانسانية وتقدمها لان العالم لا يزال بحاجة الى مسكن
وغذاء وثقافة ورفاهية وتطور وتقدم ، ويرجح أن تبذل الجهود في هذا

السبيل السلمي ، في سبيل البناء والاعمار ، لا في التخريب والدمار .

لقد أدرك العالم أنه أمام أخطار جسيمة ، وأخذ القلق يساوره تجاه هذه الطاقة التي اكتشفت حديثاً والتي تفوق بكثير ما اكتشف حتى اليوم من طاقات مختلفة ، فشعوب العالم تطالب بتسخير هذه الطاقة لخدمة الانسانية ورفع سوية الحياة لا للتدمير والفناء .

واننا نرى الامم المتحدة تدعو خلال ثلاث سنوات الى مؤتمرات دوليين حول استخدام الطاقة الذرية للاغراض السلمية ، فعقد المؤتمر الاول في جنيف في آب ١٩٥٥ ، وعقد المؤتمر الثاني في ايلول ١٩٥٨ ، ودام كل واحد منهما أسبوعين ، وكانا من أعظم مؤتمرات القرن العشرين ، وأعطيا عن الطاقة الذرية صورة سلمية ، فيها شيء من التفاؤل .

ان اكتشاف الطاقة الذرية يعد حدثاً ذا أهمية عالمية ، لان كل حضارة تستند الى منابع طاقة ، فعندما استطاع الانسان استخدام قوة الحيوان استغنى عن قوة العبيد وانتهى الرقيق . واذا استطاع الانسان أن يقوم في القرن التاسع عشر بما سيموه الثورة الصناعية ، فانما يعود ذلك الى الطاقة المدخرة في الفحم والبتروول وشلالات المياه ، فوهبته ضوءاً وحرارة وغذاء ومتعة ، وان في كثرة انتاجها شرطاً أساسياً لكل رقي مادي . وكلما زادت رفاهية الشعوب وسوية معيشتها ازدادت حاجتها الى الطاقة .

غير ان منابع الطاقة المألوفة محدودة ، فمدخرات الطبيعة من الفحم قريبة من أن تنفذ ، وتكاد تكون جميع مساقط المياه التي يسهل تحويلها الى كهرباء ، مجهزة كهربائياً . وأخذ أرباب الصناعات الكيماوية يقولون بأنه من التبذير حرق الفحم ، لأن الفحم مادة أولية رئيسية في صناعتهم . ولذلك كله كان لا بد من اللجوء الى طاقة جديدة . وهكذا أتت الطاقة الذرية في وقتها وبعثت من هذا

القبيل في نفس الانسان الطمأنينة لاجيال عديدة .

تظهر لنا الطاقة الذرية منذ الآن بصورتها : صورة الحرب والدمار والتشاؤم والحراب والموت ، وصورة السلم والرفاه والتفاؤل والعمران والحياة.

٢ - ماهي اذن هذه الطاقة

كثيراً ما يتردد على مسامع الناس تعبيرات كالقنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ، والطاقة الذرية والطاقة الهيدروجينية . فماذا تعني كل هذه التعبيرات ياترى ؟ ان الطاقة الذرية هي طاقة تحطم أو انشطار ذرات الالانيوم ، وهي من الذرات الثقيلة جداً ، الى أقسام أخف منها ، في حين أن الطاقة الثانية هي طاقة ذرات الهيدروجين ، وهي أخف الذرات على الإطلاق ، عندما تلتحم ، تندمج ، تنضم بعض الى بعض . ففي الانشطار أو الالتحام تحدث طاقة هي أساس القنبلتين الذرية والهيدروجينية .

ولا بد لي هنا من أن أذكر بعض الحقائق الاولى في علم الذرة .

إذا احصينا عدد الاجسام المختلفة في الطبيعة كالماء والنشا والخشب ... وجدنا انها ... ٥٠ تقريباً . أما عدد العناصر الكيميائية الداخلة في تركيب تلك الاجسام ، كالهيدروجين والاكسجين ... فهو قريب من ١٠٠ فقط . وإذا دققنا في تركيب كل عنصر وجدنا ان جميع العناصر تتألف من ثلاثة جسيمات عنصرية هي : النترون والبروتون والكهرب . فجوهر العنصر قسمان : أولاً النواة وهي تحوي بروتونات ونيوترونات ؛ وثانياً الكهارب وهي تدور حول النواة .

والنترون هو الجسيم العنصري للمادة غير المشحون بالكهرباء ، ومنه تسميته

بالنترون التي معناها المعتدل . وأما البروتون ، وكتلته أصغر بقليل من النترون ، فهو الجسيم العنصري للمادة المشحون بكهرباء موجبة تساوي تماماً بالقيمة المطلقة شحنة الكهرب ؛ وإذا كانت نواة كل عنصر موجبة فانما يعود ذلك الى ما فيها من بروتونات . ونذكر أخيراً ان كتلة الكهوب أصغر ب ١٨٠٠ مرة تقريباً من كتلة كل من البروتون أو النترون .

قد يكون للعنصر الكيميائي الواحد عدة ذرات مختلفة ، كلها تحوي عدداً واحداً من البروتونات ومن الكهارب ايضاً ، ولكن عدد النترونات يختلف من ذرة الى أخرى : تدعى هذه الذرات المختلفة بالنظائر . مثال هذه النظائر الاورانيوم وله عدة نظائر ، كلها تتألف من ٩٢ بروتونا و ٩٢ كهربا . لكن احدها يحوي ١٤٦ نترونا ، والثاني ١٤٣ والثالث ١٤١ ؛ فيكون مجموع الجسيمات في النواة ٢٣٨ او ٢٣٥ او ٢٣٣ ، ويدعى هذا المجموع بالكتلة الذرية . ولذلك نسمي هذه الانواع المختلفة : اورانيوم ٢٣٨ ، اورانيوم ٢٣٥ ، اورانيوم ٢٣٣ . تختلف نسبة هذه الانواع في فلزات الاورانيوم اختلافاً كبيراً . فاكثرها انتشاراً في الطبيعة الاورانيوم ٢٣٨ ، بينما نسبة الاورانيوم ٢٣٥ لا تتجاوز ٧ بالالف . ومثال آخر الهيدروجين وله ثلاثة نظائر : الهيدروجين العادي وتتألف ذرته من بروتون واحد و كهرب واحد يدور حوله ؛ والهيدروجين الثقيل او الدوتيريوم وتتألف ذرته من بروتون و نترون مجتمعين في النواة ، ويدور حولها كهرب واحد ، ونسبة الثاني الى الاول في الماء العادي ١/٦٠٠٠ ؛ ولدينا ايضاً الهيدروجين الثلاثي او التريتيوم وتحوي نواته بروتونا واحداً مع نترونين .

إذا امعنا النظر في انوية جميع العناصر الكيميائية من اخفها الى اثقلها وجدنا ان اخفها يحوي عدداً متساوياً تقريباً من البروتونات والنترونات ، ثم يفوق عدد النترونات عدد البروتونات كلما كبر ثقل العنصر . ففي البيرويليوم مثلاً نجد ٥٢ بروتونا مقابل ٨٢ نتروناً ، اي زيادة ٣٠ نتروناً . وفي الاورانيوم

٢٣٨ نلاحظ ٩٢ بروتوناً مقابل ١٤٦ نوتروناً أي زيادة ٥٤ نوتروناً . ان هذه الخاصة للعناصر يجب ان تلاحظ لتفهم الطاقة الذرية .

نتخيل الآن اننا نقوم ببعض الاعمال الكيميائية ، التي يجريها الكيميائيون كل يوم في مخبرهم . لنفرض اننا وضعنا في وعاء كمية من البروتونات ، وفي وعاء آخر كمية اخرى من النوترونات تهيم لتفاعلها . اقول « لنفرض » لان التجربة كما اصفها متعذرة ، اذ ان النوترونات والبروتونات على جانب من الصغر ، يجعلها تنفذ من الاوعية ، لانها تجتاز بسهولة الفراغات الشاسعة الواقعة بين انوية المادة المصنوع منها جوانب الاناء . غير ان التجربة تجري بصورة مختلفة بتوجيه جسيمات ، بروتونات مثلاً ، نحو اهداف تحوي الانوية التي نرغب في استحالتها ، فتحصل اصطدامات نادرة جداً لكنها تحصل . ولنفرض بالرغم مما سبق ، اننا خلطنا البروتونات والنوترونات ، نشاهد ان البروتون الذي يلاقي نوتروناً يؤلف معه نواة هدرجين ثقيل . وكذلك يولد تلاقي بروتونين ونوترونين نواة واحدة من الهليوم . ويرافق التفاعل هذا انطلاق كمية عظيمة جداً من الحرارة ، ناشئة عن تقايف كمية من المادة ، اي ان قسماً من مادة النوترونات والبروتونات المتحدة يتلاشى عند الاتحاد ويتحول الى طاقة حرورية . والعكس صحيح ، قد تستحيل الطاقة الاشعاعية او الحركية الى مادة في بعض الظروف . والعلاقة الرياضية التي تنقاد اليها هذه الاستحالات من طاقة الى مادة ومن مادة الى طاقة هي علاقة أينشتاين : الطاقة تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً بكتلة المادة المتقانية او المتولدة . وهكذا عندما تتحد البروتونات مع النوترونات في سبيل توليد نواة للمادة ، فان كتلة النواة الجديدة اصغر دائماً من مجموع كتلتي الجسيمتين اللتين ألفتاهما . والفرق يتحول الى حرة . تدعى هذه الحادثة بتكاثف الكتلة . وينتج عنها انه اذا اريد تحليل النواة الى جسيماتها من بروتونات ونوترونات وجب صرف حرارة عظيمة تقدر ببضع مئات ملايين من الدرجات في حال الانوية الثقيلة . بينما تجري تفاعلات الكيمياء في درجات من الحرارة تتفاوت بين بضع درجات

و ألف درجة . من هنا وحده يتضح الفرق بين مقدار الطاقة الظاهرة في كل
حادثة : في الحادثة الكيميائية ، اي كيمياء الذرات من جهة في سبيل تكوين
الجزيئات ، وفي الحادثة النووية أو كيمياء الانوية الذرية . وهذا مهم جداً
بالنظر الى ان التفاعلات النووية سوف تبعث اشعاعات توافق طاقة ، وتبعتها ١٠
ملايين مرة اكبر من الطاقة الحاصلة في التفاعلات الكيميائية العادية .

ان معظم الانوية مستقر ، ما عدا العناصر المسماة بالمشعة ، واشهرها
الراديوم . فالراديوم مثلاً يعطي جسيمات ألفا ، والجسيم ألفا هو نواة الهليوم
الناجمة من تكاثف بروتونين مع نوترونين . فنواة الراديوم تقذف نواة الهليوم
بطاقة حركية كبيرة عفوية ، من تلقاء نفسها . فلدينا في هذه الحادثة تحرر
عفوي للطاقة الداخلية . واذا اصطدمت جزيئات ألفا بماء مسعر ، توقفت عن السير
وأعطت حرارة . ولدينا هنا علاوة على ما ذكر استحالة عفوية من مادة الى
اخرى ، الحلم الذي طالما تغنى به السيميائيون . يتحلل الراديوم من تلقاء نفسه
منتجاً جسيمات ألفا وغازاً نادراً يدعى الرادون ، أي ان عنصر الراديوم يولد
عنصرين مختلفين الهليوم والرادون . وتساءل لماذا لا تتحلل انوية الراديوم كلها
وبلحظة واحدة منتجة الهليوم . ذلك لان ثمة حاجز طاقة كامنة يحول دون
خروج الجسيمات عن نطاق الذرة ؛ وللجسيم ألفا ، وهو يحمل شحنتين موجبتين ،
احتمال ما باجتياز الحاجز المذكور ، وذلك يعود الى ما يحمله من طاقة حركية
توافق الفرق بين مجموع كتلتي الرادون والهليوم وبين كتلة نواة الراديوم .
يدعى الراديوم بالعنصر المشع طبيعياً ، وعدد العناصر الشبيهة به يقارب الاربعين .

ينتج من الخواص السابقة ، خواص الانوية ، النتيجة الآتية : اذا شطرننا
بطريقة من الطرق نواة الاورانيوم ، حصلنا على طاقة عظيمة ، لان كتلة
الاورانيوم المنشطر اكبر من مجموع كتلتي القطعتين الحاصلتين . وتجلى هذه
الطاقة بمعظمها في الطاقة الحركية التي اكتسبتها كل قطعة .

ان الاستحالات السابقة هي استحالات طبيعية تحصل من تلقاء نفسها . فهل يمكن لنا ان نحقق استحالات اصطناعية؟ لقد فكر العلماء بتسليط جسيمات ألفا الصادرة عن الاجسام المشعة الطبيعية على المادة المطلوب تحويلها ، أملا منهم ان تصادف هذه الجسيمات الهدف . وقد نجحوا في فكرتهم الفذة ، وجعلوا جسيمات ألفا تلاقى نواة الآزوت فحصلوا على أكسجين وهيدروجين . غير ان مردود هذه الاستحالة ضعيف لان حجم القذائف صغير ، والمسافات الواقعة بين النواة والنواة المجاورة لها كبيرة جداً ، فاحتمال الاصطدام واحد من مليون ، ولان جسيمات ألفا مشحونة بالكهرباء الموجبة ، فتدفعها الانوية الموجبة عن التقارب منها . لكن هذه الاستحالة الاولى كانت لها أهمية عظيمة في تاريخ الفيزياء ، وعقبها استحالات اخرى ، وأهمها الاستحالة التي ادت الى انطلاق النوترون من النواة . وكان ذلك باطلاق اشعاع ألفانحو هدف من البريليوم فاندلعت منه النوترونات . ويمكن لهذه النوترونات ان تفيد بدورها كقذائف من اجود القذائف ، لانه خالية من الشحنة وتستطيع بلوغ صميم النواة دون أن يكون ثمة رادع يردعها . فاذا ما بلغت النواة صدمتها ، ودكت بنيتها ، وانتجت مركبات جديدة هي النظائر المشعة .

ويجدر بنا هنا ان تذكر حادثة مهمة جداً ، اكتشفها العالم الايطالي فرمي : اذا كانت القذائف شحنات موجبة ازداد احتمال تصادمها بالنواة كلما ازدادت سرعة قذفها ، أما اذا كانت القذائف نوترونات فان احتمال اصطدامها بالنواة يزداد كلما صغرت سرعتها وتقاربت من سرعة الهيجان الحروري للجزيئات . وكان هذا اكتشاف عظيم لانه يرشدنا الى معرفة أحسن الشروط التي يصيب فيها النوترون النواة المقذوفة . فتناقص سرعة النوترون يؤول اذن الى زيادة أبعاده بالنسبة الى الهدف ، اي الى زيادة احتمال وقوع الاصطدام والاستحالة ، او الى تصغير المسافة التي يجب على النوترون ان يقطعها عبر المادة ليصطدم فيها بنواة . وكيف لنا ان نخفض سرعة النوترونات ، ان نهدئها كما نقول . يكفي لذلك ان ندعها تجتاز

مادة ذراتها خفيفة ، كالهيدروجين او الدوتيريوم او الفهم الكاتب . فاذا لاقى نترون نواة هيدروجين مثلاً ، أي بروتونا واحداً ، وكان تصادمهما مباشراً ، حل النترون محل البروتون واقفاً واندفع البروتون بالسرعة التي كانت للنترون . واذا كان الاصطدام غير مباشر ، خسر النترون قسماً من طاقته وفي صدمة تالية قسماً آخر ، وهكذا الى ان تصبح سرعته من رتبة سرعة ذرات الهيدروجين المسبب للتهدة ، فيقال ان النترونات صارت «نترونات حوورية» . ومن المواد المخففة للسرعة البارافين والفهم الكاتب والماء الثقيل والغليسنيوم ، مع العلم أن الماء الثقيل ، لاحتوائه الدوتيريوم ، يخفف السرعة أكثر من المواد ذات الذرات الثقيلة كالفهم الكاتب ، ويشترط في المادة المهدئة الا تقتص من النترونات الا القليل ليتاح لا كبر عدد ممكن منها ان يقوم بعمل القذف . وتدل التجربة على ان الهيدروجين العادي أشد امتصاصاً للنترونات ، يليه حسب الشدة المتناقصة ، الهيدروجين الثقيل فالفهم الكاتب . ولذلك يرجح الماء الثقيل والفهم الكاتب على غيرهما من المهدئات .

ان الحياة الوسطى للراديوم ٣٠٠٠ سنة ، اي ان غراماً يصبح نصف غرام بعد مضي ٣٠٠٠ سنة . ويعطي الغرام الواحد منه ١٠٠ حرارة في الساعة الواحدة . فلا يصلح الراديوم اذن في توليد الحرارة ، وتعد استحالته بطيئة ، وتولد حرارة قليلة ، وثمنه غال . وكذلك العناصر المشعة الاخرى فكيميائياً ضئيلة ، ولا تصلح لانتاج الحرارة . فكان لابد من اكتشاف حادثة جديدة لتوليد الطاقة وهي التفاعل المتسلسل . اذا سقط نترون واحد على كتلة كبيرة من الاورانيوم ، فبعد مسير معين يصطدم بنواة الاورانيوم ويحطها الى قطعتين متساويتين تقريباً وينبعث عن هذا التحطيم ثلاثة نترونات . فاذا استطاع نترونات من هذه النترونات الثلاثة ان يصيبا نواتين من الاورانيوم استمر التفاعل ، بمعنى ان النترون يحطم ذرة ، والنترونان يحطمان ذرتين ، ثم أربعة

فجائية ... ويحصل تفاعل متسلسل مستمر ، يتزايد في شدته باطراد ، وتنطلق منه حرارة هائلة ناجمة عن وقوف القطع الحطام الناتجة عن تحطيم كل ذرة من ذرات الاورانيوم . ولقد بحث العلماء شروط حصول هذا التفاعل المتسلسل فوجدوا انه يستوجب أن يكون حجم الاورانيوم أكبر أو يساوي حجما معيناً يدعى الحجم الحرج ، ووجدوا أيضاً أن خلط الاورانيوم بالمادة المهدئة ينبغي أن يكون غير متجانس ، بل على شكل شبكات منتظمة ومقطعة .

ان مبدأ التفاعل المتسلسل هو أساس القنبلة الذرية ، واستوجب صنع هذه القنبلة جهوداً كبيرة وأموالاً باهظة . وكانت الصعوبة بادية ذي بدء في فصل الاورانيوم ٢٣٥ ، وهو المادة التي يصنع منها القنابل . اني أجهل تركيب القنبلة الذرية على وجه الضبط ، ولكن مبدأها الاساسي كما يلي : نفرض كتلة من الاورانيوم ٢٣٥ كروية الشكل ، توفر فيها شرط الحجم الحرج ، فإذا ما أصابتها نوترونات حطمتها . تقسم هذه الكرة نصفين متساويين ، وثبتت نصفا واحداً في طرفي أنبوب اسطواني ، والنصف الآخر في الطرف الآخر من الأنبوب . فطالما النصفان بعيدان فلا يمكن للتفاعل المتسلسل ان يجري ، لان شرط الحجم الحرج غير محقق . ولكن اذا دفعنا احد النصفين نحو الآخر وتماسا ، وبجانبها منبع نوترونات ، تحقق شرط التفاعل المتسلسل ، وتم الانفجار ، واي انفجار !... ان شدة الانفجار لكيلو غرام واحد من الاورانيوم تعادل شدة الانفجار لثلاثة مائة الف كيلو غرام من أشد المتفجرات المعروفة . وتبلغ درجة الحرارة ملايين الدرجات ، وينتج عن الانفجار تيار هواء ساخن جداً وسريع للغاية يؤدي الى تحطيم الابنية والى انصهارها فتذوب كالشمع .

٣ — الطاقة النووية الحرارية

ان عهد الطاقة الذرية يعود الى ٢ كانون أول ١٩٤٢ والى التجربة التي قام بها العالم المشهور الاستاذ اريكو فرمي والتي حقق بها تفاعلاً مراقباً للطاقة الذرية ، فوضع أمام العالم منبعاً غزيراً للطاقة كان مجهولاً من قبل . ان المفاعل الذري يعطي طاقة ، الطاقة التي تحويها نواة الذرة وذلك بتطعيم ما كان منها ثقيلًا الى عناصر اقل ثقلاً ، وهذا أساس الانشطار . وقد بنت الدول من هذه المفاعلات عدة أشكال فصار لدينا من الطاقة ما يساوي على أقل تعديل مائة مثل مما لدى العالم كله من طاقة مدخرة بشكل فحم وبتروول ، وذلك بفضل فلزات الاورانيوم والثوريوم المعروفة على سطح الارض . على ان هذه الطاقة الناشئة من الانشطار رغم كبرها لم تعد الوحيدة التي وضعها العلم في أيدي الناس ، تهدمهم وتخيفهم ، او تطمئنهم وتقيدهم . بل هنالك طاقة اوسع هي الطاقة النووية الحرارية لانوية العناصر الخفيفة جداً كالهيدروجين . وهي الطاقة التي تنطلق حينما تنضم هذه الانوية الخفيفة في درجة عالية من الحرارة . وندعى هذه الحادثة الانصهار او الالتحام او الانضمام النووي الحروري . وانما الشمس تستمد طاقتها الحرارية والضوئية مما يجري عليها من انضمام نووي حروري . ويبذل العلماء جهوداً لا يستهان بها لاجل تحقيق تفاعل انضمام حروري نووي مراقب ، وذلك في سبيل تأمين طاقة هائلة للانسانية . وقد وصفت لنا الابحاث العلمية الحديثة بعض الاجهزة التجريبية التي توضح المحاولات التي تستهدف التحام نظيرين نادرين للهيدروجين . مع العلم ان الهيدروجين هو من العناصر الاكثر انتشاراً على سطح المعمورة ، لانه أحد عنصري الماء . والهيدروجين هو أخف العناصر . وذراته تتألف فقط من نواة تحوي بروتونا واحداً ، يدور حولها كهر ب واحد سالب كدوران الارض حول الشمس . لكن انوية الهيدروجين ليست

كلها على مثل هذه البساطة، فكل ذرة من أصل ٦٠٠٠ ذرة تقريباً تحوي نواتها نوتروناً مضافاً الى البروتون الواحد، فيكون ثقلها الذري ضعف الثقل الذري للهيدروجين العادي . تدعى هذه الذرة الدوتيريوم ونواتها الدوتون. فمن الناحية الكيميائية لا فرق بين الهيدروجين العادي والدوتيريوم. يدعى الدوتيريوم نظير الهيدروجين العادي. يمكن الحصول على ماء مركب من هيدروجين ثقيل بدلاً من هيدروجين عادي فنسمي هذا الماء الماء الثقيل. وللهدرجين نظير آخر هو التريتيوم، أو الهيدروجين الثلاثي، وفي نواته بروتون واحد مع نوترونين اثنين، فذرته أثقل بثلاث مرات من ذرة الهيدروجين العادي. فالدوتيريوم والتريتيوم هما المحروقان المطلوب « حرقها » (مجازاً) في المفاعل النووي الحروري : تنصهر نواة دوتيريوم مع نواة أخرى بعد اصطدامها وتعطيان نواة مهيجة غير مستقرة لاتلبث أن تنقلب الى هليوم ٣ وتنترون أو الى نواة تريتيوم وبروتون ؛ وفي كلتا الحالتين يبلغ مجموع الجسيمين الحاصلين وزناً أقل من مجموع وزني النواتين الملتحمتين ، وخسارة الوزن هذا تتحول الى طاقة نووية حرورية. وهناك منبع آخر للطاقة هو تفاعل الالتحام نواة تريتيوم مع دوتون وانتاج هليوم ٤ وتنترون .

وغني عن البيان ان كل نجاح في تحقيق هذه التفاعلات بصورة مراقبة ، محكمة ، هو عمل مشعر للعالم بأسره ، لان الطاقة الحاصلة من كميات الدوتيريوم والتريتيوم الموجودة في بحار الكون تساوي مليار مرة الطاقة الخاصة بما تبقى من الفحم على الارض . ويدل الحساب على ان الهيدروجين الثقيل الموجود في ليتر واحد من الماء العادي يحوي من الطاقة بقدر ما تحوي ثلاثمائة ليتر من روح البترول ، وذلك بالرغم من خآلة نسبته في هذا الماء العادي ، مما يدل على ان حاجة العالم الى الطاقة ستكون مؤمنة لملايين السنوات .

واذا قارنا بين الانشطار والالتحام رأينا ان الالتحام لاينجم عنه مواد

مشعة كما في الانشطار ، مما يوفر علينا اعمال طرح هذه المواد بعيدة عن بيئة الانسان ، واذا حصل حادث في مفاعل التحامي فليس فيه خطر على السكان المجاورين للمفاعل .

وينبغي على العالم ان يحقق الشروط التي يلتحم فيها اكبر عدد ممكن من الانوية الخفيفة . ولذلك يلجأ الى السبل الآتية :

كل نواة تحمل فيها شحنة كهربائية موجبة ، فنواة الهيدروجين الثقيل او نواة الهيدروجين الثلاثي تحمل اذن شحنة موجبة . ولذلك تتنافر الانوية جميعها ، فاذا تقارب نواتان من بعضهما وكانت سرعتاهما صغيرتين ففوة تنافرها تحول دون تقاربهما بشكل كاف لتلتحما ، وبعبارة اخرى ان احتمال وقوع تفاعل الالتحام ضعيف جداً اذا لم تصطدم النواتان بطاقة كبيرة كافية .

تبلغ الطاقة اللازمة للالتحام ٢٠.٠٠٠ الكترون فولت ، مع العلم ان الطاقة الحروية للذرات وهي في الدرجة العادية من الحرارة لا تتجاوز ما يعادل جزءاً من اربعين من الالكترتون فولت . فاذا سخنت الذرات ازدادت طاقتها ، واذا كان المطلوب ان تصبح طاقتها ٢٠.٠٠٠ الكترون فولت ، وجب تسخينها حتى الدرجة ٢٠٠ مليون درجة ! فمن البديهي ان المادة في مثل هذه الدرجة لا تبقى صلبة ولا سائلة ، فهي حتماً غازية ، ومن غاز خاص ، غير مألوف . في مثل هذه الدرجة تكتسب الكهارب من الطاقة ما يجعل بقاءها على مداراتها حول النواة متعذراً ، فتشرد عن الذرة اذن وتصبح حرة طليقة في كتلة الغاز الحار . يدعى هذا الغاز بلازما ، وهو اذن مؤلف من كهارب حرة ومن شوارد موجبة اي من ذرات اقتلعت منها كهاربها . ومن الضروري كما قلنا ان تكون درجة الحرارة عالية لتكون طاقة الانوية كبيرة والا كان عدد الالتحامات ضعيفاً وتعذر الحصول على الطاقة المطلوبة . ولذلك فشرط النجاح ان يكون البلازما

حاراً جداً . ومن الضروري أن يكون البلازما كله حاراً . وكذلك يلزم ان تكون الكهارب نفسها حارة لثلاث تـكـون سبباً لضياـع الطاقة .

وهنا يطرح السؤال : ما هو الوعاء الذي يستطيع ان يحوي بلازما درجة حرارته ٢٠٠ مليون درجة ، وهي درجة اعلى من درجة مركز الشمس . فمن البديهي ان اي وعاء ينصهر ، بل يتطاير بخاراً ، عدا ان جوانبه تبرد البلازما فيصبح عاجزاً عن الالتحام . والطريقة هنا هي ان يمنع البلازما عن ملامسة جوانب الوعاء ، وذلك بتسليط ساحة مغناطيسية اقوى بكثير من ساحة الارض ، ساحة الارض $\frac{1}{3}$ غوص تقريباً ، والساحة المسلطة هنا تبلغ ١٠٠٠٠٠٠ غوص . من المعلوم ان الساحة المغناطيسية تؤثر في الشحنات الكهربائية التي تجري فيها وتلزمها الدوران على دائرة نصف قطرها صغير . فاذا ما سيط على البلازما ساحة قوية - والبلازما كلها شحنات كهارب وانوية مشردة - - انحصرت ضمن جوانب وهمية ، ولا تمس الجوانب الحقيقية ، وهذه الجوانب الوهمية هي الساحة المغناطيسية . بيد ان الساحة المغناطيسية ليست حاجزاً كاملاً : تستطيع جسيمات البلازما ان تتلاقى وتصطدم ، مما يؤدي الى النفوذ من الحاجز ، الى اختراقه ودخول الساحة المغناطيسية بمقدار يساوي قطر الدائرة التي ترسمها في الساحة . واذا عانى الجسيم عدة اصطدامات اخترق تماماً الساحة المغناطيسية ، وبلغ جانب الوعاء ، على ان عدد هذه الحالات قليل اذا كانت شدة الساحة المغناطيسية كبيرة .

وهناك ضعف آخر كامن في استعمال الساحة المغناطيسية ، هو اهم من الضعف السابق ، وهو الضعف الحاصل من وقوع عدد كبير من الجسيمات في الساحة المغناطيسية . فقد تتضافر هذه الجسيمات المشحونة على توليد ساحات كهربائية ومغناطيسية تدفع البلازما الى الخروج عن حدود الساحة المغناطيسية الساجنة . وهو

ما يدعى « عدم استقرار البلازما ». وعدم الاستقرار هذا من أهم المشاكل التي يلاقيها الباحث في شؤون الالتحام .

وبجانب ما سبق صعوبة ثالثة، وهي أن الساحة المغناطيسية هي بمثابة حاجز مادامت الشحنة تتحرك عامودية عليها، فتدور الشحنة راسمة دائرة، لكن الشحنة لا تعاني أي قوة إذا كانت تتحرك بصورة موازية للساحة، « فالحاجز » المغناطيسي إذن مفتوح من طرفيه والجسيمات تهرب منها. ولذلك ينبغي تلافي هذا المحذور .

لم نقل شيئاً عن المدة من الزمن اللازمة لحصر البلازما ليلتحم قسم كاف من أنويتها. إن هذا الوقت يتوقف على كثافة البلازما. وإن الساحة المغناطيسية لا تستطيع حصر بلازما كثافتها أكبر من حد معين، هو النهاية العظمى للكثافة. فإذا ما بلغت البلازما هذه الكثافة العظمى كان وقت الالتحام ثانية واحدة تقريباً، وبعبارة أخرى يستوجب حسن سير المفاعل الالتحامي أن يحوي المفاعل البلازما مدة ثانية أو أكثر. ويمكن لهذا الشرط أن يتوفر بصورة متقطعة، وذلك بإرسال دفعات من البلازما الحارة تدوم كل واحدة منها ثانية أو أكثر، وبين الدفعات وقت راحة. ويمكن تقصير مدة الحصر بتكبير الساحة المغناطيسية وجعلها أكبر من ١٠٠.٠٠٠ غوص. ولكن في توليد هذه الساحة شيء من الصعوبة وله حدود، لأن التيارات المولدة للساحة لا تتحملها أسلاكها بسبب الحرارة المنطلقة فيها والقوى المنبعثة فيها، مما ناهض النجاح في هذا السبيل.

هذا وإن أجهزة الالتحام مبنية على طرق عديدة تهدف الحصول على بلازما حارة وبحصورة: منها ما يستخدم غازاً بارداً في البداية واقعاً في ساحة مغناطيسية حاصرة، ثم يسخن هذا الغاز بانفراغات كهربائية « وبالتخصير المغناطيسي »؛ ومنها ما يستعمل الانفراغات الكهربائية لغرض التسخين ولغرض إنتاج الساحة المغناطيسية

الحاصرة؛ ومنها ما يبدأ بشوارد فردية ذات طاقة كبيرة اكتسبتها من معجلات خاصة، فتحصر هذه الشوارد بساحة مغناطيسية، وتزداد شدتها فجأة أو تفصل مجموعة شوارد بواسطة قوس كهربائية.

٤ - الاستعمالات السلمية للطاقة الذرية

سيداتى وسادق

ان هذه المعلومات والوقائع الخبيرة لها اهميتها في حياتنا ، ان هذا العالم ، عالم الصغائر ، الذي تحدثت عنه ، والذي نلاحظ فيه اشياء صغيرة كالبروتون والنترون والكهرباء ، ان هذه الاشياء الصغيرة لتهز الجبال وتستطيع تدمير العالم بأسره ، كما يمكنها رفع حياة الانسان وتأمين الرفاه والازدهار . وفي الواقع ان للطاقة الذرية استعمالات خير واستعمالات شر ، وهذا ما ادركه الناس في كل مكان ، وهذا مادفعهم لمقاومة استعمالات الشر والمطالبة باستعمالات الخير . والاستعمالات السلمية للطاقة الذرية هي المفاعل او الفرن الذري ، والنظائر المشعة .

آ - المفاعل الذري : يمكن وصف المفاعل الذري بأنه فرن ، لا تتولد فيه الحرارة بواسطة اشعال الفحم او البترول ، وانما بواسطة الانشقاق او التحطيم الذري بالتفاعل المتسلسل ، وتنقل الحرارة المنطلقة فيه الى البيئة الخارجية للاستفادة منها في استحصال بخار الماء ، الذي يحول على غفلات فيدورها ، والغفلات تدور مولدات كهربائية . واما وقود المفاعل فيمكن أن يكون معدن الاورانيوم الطبيعي ، وهو مزيج مؤلف من ١٤٠ جزءا من الاورانيوم ٢٣٨ مقابل جزء واحد من الاورانيوم ٢٣٥ . والاورانيوم ٢٣٥ هو وحده يتحطم بينما يتحول جزء من الاورانيوم ٢٣٨ الى بلوتونيوم ، وهو معدن يصلح ان

يكون وقوداً في مفاعل آخر . وإذا حوى المفاعل الاورانيوم ٢٣٥ الصافي أصبح حجمه أصغر ، ووزنه أقل . وإذا حوى المفاعل الثوريوم ، تحول الثوريوم الى اورانيوم ٢٣٣ ، وهو أيضاً وقود يستفاد منه في مفاعلات أخرى . وقد تفوق في بعض المفاعلات كمية الوقود الناتجة عن كمية الوقود المستهلكة ، فيسمى المفاعل مفاعلاً متوالداً .

ويستوجب نحطم الوقود في المفاعل أن يطر بوابل من النوترونات ، فاذا اصطدم أحد النوترونات بنواة الاورانيوم ٢٣٥ داخل المفاعل ، انشطرت هذه النواة وأرسلت منها أكثر من اثنين من النوترونات ، ويستخدم كل نوترون منها بنواة أخرى من الاورانيوم ٢٣٥ ، ويستمر التفاعل في سلسلة هندسية متباعدة . وكلما حصل انشقاق انطلقت حرارة عظيمة . وهناك مادة سائلة أو غازية في المفاعل تمتص هذه الحرارة وتنقلها الى خارج المفاعل ، الى ما يسمى جهاز التبادل الحروري ، حيث يسخن الماء ويستبخر ، والبخار الناتج يوجه كالعادة الى مجموعة عنفة ومولد كهربائي . ولا تزال الاختبارات تجري لمعرفة أجود المبردات كالماء ، وأنجرة المعادن ، والمعادن المصهورة ، للاهتمام الى أكثرها فعالية وأحسنها مردوداً .

ويمكن تبسيط المفاعل باستخدام مفاعلات الماء ذات الغليان ، التي يسمح فيها للماء المبرد بالغليان ، فيتحول الى بخار يستخدم في تشغيل مجموعة عنفة ومولد كهربائي .

ويجب أن يتضمن المفاعل وسيلة للمراقبة لضمان عدم افلات زمام الامر ، بسبب التفاعل المتسلسل الذي قد يسبب انفجاراً ، كما هي عليه الحال في القنبلة الذرية . وكذلك ينبغي ان يكون للمفاعل درع واق لحماية العاملين حوله من الاشعاعات المختلفة . ويتكون الدرع الواقي في بعض المفاعلات من حائط من الاسمنت المسلح يبلغ سمكه عدة اقدام .

وهناك أنواع من المفاعلات ، يمكن احداث الانشقاق فيها بسهولة قصوى ، اذا خفضت سرعة النيوترونات الاصلية ، بحيث يمكن اسرها بسرعة ؛ وتخفف السرعة ، كما قلنا ، بواسطة مهدىء قد يكون الفحم الكاتب او الماء الثقيل . وهناك نماذج من المفاعلات تضم الوقود والمهدىء في سائل واحد ، تدعى هذه المفاعلات بالمفاعلات المتجانسة لتمييزها عن المفاعلات الاخرى . وهناك أنواع أخرى من المفاعلات لا نصفها ، يبلغ مجموع عدد نماذجها نحو ٣٠ تقريباً ، ويجرى عليها التجريب والتدريب ، وسيكشف لنا المستقبل عن أحسنها لتوليد الطاقة الكهربائية وأجودها للحصول على النظائر المشعة .

يستفاد من المفاعل الذري للحصول على الطاقة الحيوية في سبيل التدفئة ، وفي سبيل تحريك المولدات الكهربائية ، ولاستحصال النظائر المشعة .

ولقد أتيح لي أن أزور أحد هذه المفاعلات ، وهو المفاعل المبني جنوبي موسكو ، وهو مفاعل يولد طاقة كهربائية باستطاعة ٥٠٠٠ كيلواط لتغذية منطقة زراعية . وهو أول مفاعل في العالم ولد طاقة كهربائية من أصل ذري ، وكان ذلك في ٢٧ حزيران ١٩٥٤ أي منذ أربع سنوات ونيف .

ب - النظائر المشعة : هذا ويبلغ مجموع النظائر المشعة التي عثر عليها في الطبيعة أو أنتجت بالمعجلات والافران الذرية ١٣٠٠ تقريباً ، منها ٨٠٠ نظير مشع ، وثبت نفع ١٥٠ منها في الطب والصناعة والزراعة والعلوم البيولوجية . ونذكر منها بصورة خاصة الكوبالت ٦٠ ، والفسفور ٣٢ ، والكاربون ١٤ .

ينتشر استخدام الكوبالت المشع ٦٠ في المستشفيات لعلاج السرطان ، اذ تركز اشعته على الخلايا السرطانية ، وهي أشد تأثيراً من الخلايا الطبيعية المحيطة بها بما يحدثه الاشعاع الفتاك من تأثير ؛ ويمكن أيضاً استخدام الراديوم على الطريقة نفسها غير أن كمياته محدودة ونفقاته باهظة . ويمكن صنع كميات كبيرة

من الكوبالت المشع بنفقات أقل كثيراً عن طريق امطار الكوبالت العادي بنترونات نافذة من مفاعل ذري .

ويستفيد الطب أيضاً من ظاهرة أخرى ، هي أن السلوك الكيميائي والفيزيولوجي لمادة ما لا يختلف سواء أكانت المادة ذات نشاط اشعاعي أم لا . وحيث أن مادة اليود اذا وضعت على الجسم تركزت في الغدة الدرقية ، فقد استخدمت مادة اليود ذات النشاط الاشعاعي ، يود ١٣١ ، في علاج بعض أمراض تلك الغدة . فيتجمع اليود في الغدة وينطلق أشعاعها الى الناحية المرغوب فيها .

وقد أوجدت النظائر المشعة طريقة الاقتراف بواسطة الاشعاع ، اذ يستخدم الاشعاع المتولد من أحد النظائر المشعة كعلامة يمكن متابعتها في طريق معقد من جسم الانسان او من النبات او في العمليات الصناعية .

ففي الطب مثلاً تستخدم النظائر المشعة المقتفية في تشخيص بعض الامراض ، فيستفاد منها في كشف موضع الورم في المخ مثلاً . وقد ألقت ضوءاً على الوظائف في جسم الانسان كالدورة الدموية ، وتولد الخلايا الدموية الحمراء ، والتغيرات الكيميائية في الحويصلات الحية ، وانتشار بعض انواع السرطان .

ويمكن استخدام الكربون ١٤ لتتبع السيل الذي يسلكه الكربون في النباتات الحي بغية الاستزادة في المعرفة عن عملية النمو الاساسية للنبات . فعندما يصل الكربون الى احدى الاوراق ، يكشف عن وصوله عدّاد جيجر او أية آلة أخرى تكشف عن الاشعاع . وهناك وسيلة أخرى تلتخص في وضع ورقة النبات على فلم تصوير ، وعندها تلتقط الورقة صورتها بنفسها ، لأن الاشعاع يطبع صورة على الفلم .

وللنظائر المشعة فوائد عديدة في الصناعة ، منها استعمال أشعة بيتا ، أي أشعة الكهارب المنطلقة منها ، لتقدير السمك ، اذ يوضع النظير المشع ، المولد لاشعة

بيتا ، على جانب من المادة المزروع قياس سمكها ، والتي تكون عادة على شكل صفائح ، وتوضع آلة القياس من الجانب الآخر ، وكلما كان السمك كبيراً كلما ازدادت كمية الاشعة الممتصة . ويمكن بمراقبة آلة القياس تحديد سمك المادة على وجه الضبط بدون ملامستها . وقد اتبعت هذه الطريقة بصورة شاملة في صنع البلاستيك ، وصفائح الالومينيوم ، للمحافظة على سمك موحد في المواد المنتجة .

وتساعد النظائر المشعة على تحسين وسائل الفلاحة ، والقضاء على أمراض النباتات ، وعلاوة على ذلك فانها تهيء لنا فرصة استنباط سلالات جديدة من النباتات تفوق السلالات القديمة جودة ومحصولا . تساعد النظائر عندما تدخل في تركيب الاسمدة على تحديد نوع السماد الذي يصلح لنوع معين من النبات ، كما تساعد على تحديد كمية الاسمدة المطلوبة وأين ومتى يجب ان تضاف لينتفع منها النبات الى اقصى حد . وفي هذه الحالة ترش الاسمدة الحاوية على كمية صغيرة من الفوسفات المشع وشأ منتظما على أرض الحقل تمهيداً لدراسة آثار ذلك السماد . وتجري هذه الدراسة الدقيقة بواسطة عداد لاكتشاف الاشعاعات ، وبذلك نتبين كمية الفوسفات التي يحتاجها النبات وكيف يستفيد منها . فقد دلت التجارب التي اجريت على ان شجيرات الدخان لم تكن تستفيد على الاطلاق تقريباً من الفوسفات الذي تحتويه الاسمدة ، مما أدى الى توفير مبالغ طائلة كان المزارعون ينفقونها عبثاً . وكذلك دلت تجارب مماثلة اجريت على نبات الذرة ، على ان هذا النبات لا ينتفع بالفوسفات الموجود في الاسمدة في المراحل الاولى لنموه ، اما في المراحل التالية فانه يستمد الفوسفات من التربة نفسها . ونتيجة لهذه التجارب اصبح الفلاح يعرف متى ينبغي ان يضاف الفوسفات الى التربة ، الامر الذي ساعد على تحسين محصول الذرة ، وحال دون ضياع الاسمدة عبثاً .

ساعدت النظائر على معرفة طرق زيادة المحصول ، فقد أدت بعض التجارب التي اجريت على فستق العبيد على زيادة محصوله ٣٠ ٪ عن النبات العادي ، وذلك

باكتشاف سلالة جديدة . قد تسلط الاشعاعات الصادرة عن النظائر على النباتات والبدور لتعجيل التغيرات الحارقة التي تحدث نادراً ، أو يبطء في الطبيعة ، فولد العلماء بالنظائر سلالات جديدة ، امكن الحصول بها على غلال اجود وأوفر .

ونذكر ايضاً ان النظائر المشعة تساعد على تحديد نوع وكمية المواد المعدنية التي تحتاج اليها الحيوانات في عملية بناء العظام والعضلات وفي مقاومة الامراض .

واستطاع العلماء بواسطة تزويد الحشرات ببعض الكشافات المشعة ان يعرفوا على وجه التحديد مدى قدرة هذه الحشرات على التحرك ، ونطاق رحلاتها ، وبذلك امكن تعقب هذه الحشرات ومكافحتها والقضاء على الامراض والابوة التي تحملها .

وفي مضمار حفظ الاطعمة اثبتت التجارب ان معظم أنواع البكتيريا ، التي توجد في اللحوم والاسماك والحضراوات والاطعمة الاخرى ، يمكن قتلها بواسطة الاشعاع ، وبذلك يمكن حفظ الطعام الى أجل غير محدود بدون الاستعانة بالثلاجات . والمأمول ان تنجح هذه التجارب وان تؤدي الى ثورة في ميدان حفظ الاطعمة . ولقد اتاحت النظائر بدراسة عملية التمثيل الضوئي في النباتات : من المعلوم ان اشعة الشمس تساعد النبات على تحويل الماء وغاز الفحم الى سكريات ونشويات . وهذه العملية هي المسؤولة عن امداد كل كائن حي على ظهر الارض بما يحتاج من غذاء . وقد ساعدت النظائر المشعة على كشف بعض أسرار هذه العملية الغامضة ، وربما ساعدتنا في يوم من الايام على ان نصنع المواد الغذائية من المنتجات الكيميائية الرخيصة الوفيرة .

٥ — مؤتمر جنيف للطاقة الذرية ونتائجها

سيداتي ، سادتي ،

تلاحظون مما سبق ان للطاقة الذرية استعمالات سلمية عديدة ، كما ان لها استعمالات عسكرية ، وقد كانت الدول تعمل على نطاق قومي ، كل دولة على حدة ، وكان عهد من الصمت والتكتم حول الطرق التكنيكية المتبعة في الصناعة الذرية ، وحول الجديد من المعلومات المتعلقة بفزياء النواة ، يسود العلاقات بين الدول ، وذلك منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، وامتاز هذا العهد بالغاء الزيارات العلمية وتبادل المعلومات والمناقشات حول كل موضوع يتعلق بالذرة ، وكانت كلمة ذرة مقرونة ابدأً بالسلح الذري ، ومن ثم التكتم الشديد حول كل شيء يتعلق بالشؤون الذرية . حتى ان الاعتقاد السائد بين السلطات المختصة في الولايات المتحدة مثلاً سنة ١٩٤٩ كان بضرورة حفظ السر المطلق حول تلك الشؤون الذرية لسببين : ١ — للانفراد في التمتع بالاحتكار الذري ، ظناً منها انها تملك وحدها القنبلة الذرية ، ٢ — لأن استعمال الذرة معناه تغيير المعامل والنظام الاقتصادي ، اذ أن النظام كان قائماً وقتئذ على الفحم والبترول ، فمعرفة الذرة واستعمالها معناه قلب النظام الاقتصادي رأساً على عقب وفي ذلك تغيير فجائي في توزيع ثروة العالم ، فقد تصبح دولة صغيرة ذات شأن كبير في عالم ذري . لكن الامر تغير خلال السنوات الاخيرة ، ويعود هذا التغير الى عدة اسباب : منها نجاح الصناعة الذرية البريطانية وتبؤها المركز الاول في تصدير النظائر المشعة الى البلاد الاجنبية (٦٠٠ ٠٠٠ جنيه مبيعات بريطانيا من النظائر المشعة) ؛ ومنها قناعة الصناعيين وأرباب العمل بان في استثمار الطاقة الذرية لأغراض سلمية ربحاً مغرباً ؛ ومنها وفي الابحاث والتجارب الذرية في الاتحاد السوفيتي و اعلان الاتحاد السوفيتي تدشين مركز توليد الكهرباء على الطاقة الذرية

في ٢٧ حزيران ١٩٥٤ ، مما جعل المعسكر الغربي يفقد فكرة الاحتكار للطاقة الذرية . وهكذا انتهى عهد الصمت والتكتم . وينبغي ان نضيف سبباً آخر لا يقل أهمية عن الاسباب السابقة ، بل يمكن ان يعد أهم منها ، هو تطور الرأي العام العالمي ، رأي شعوب العالم بكل المشاكل العالمية بالمفاوضة لا بالقوة وبعدم استعمال السلاح الذري . فكان لا بد للأمم المتحدة من ان تستجيب لرغبات الشعوب فدعت الى مؤتمر الطاقة الذرية . هكذا انعقد مؤتمر دوليان للطاقة الذرية واستخدمها في المضمار السلمي ، مؤتمران من اعظم ماعرفه القرن العشرين من مؤتمرات . عقد المؤتمران في جنيف : الاول في آب ١٩٥٥ والثاني في ايلول ١٩٥٨ . اخص بالذكر المؤتمر الثاني الذي اتسع لي حظ الاشتراك فيه . حضر المؤتمر الثاني ٦٣٠٠ موفد من مندوبين رسميين وخبراء ومراقبين ، ينتمون الى ٦٧ دولة ؛ وعقدت خلال مدة المؤتمر ، وهي اسبوعان ، ٧٧ جلسة مختلفة ، وأقيم معرضان ، وعرضت افلام ، وكلها بحثت المواضيع الآتية : امكانية انتاج الطاقة بطريقة الالتحام ؛ وازدياد انتاج الطاقة بتحطيم العناصر الثقيلة ؛ واستعمال الطاقة النووية لتدفئة المنازل وتسيير المراكب والطائرات ؛ وتشخيص الامراض ومعالجتها ؛ وتحسين المنتجات الزراعية والطرق الصناعية ؛ وأخيراً التقدمات الاخيرة الحاصلة في مبادئ وأسس نظرية المادة .

وتوزع عدد الموفدين ٦٣٠٠ كما يلي : ٢٣٠٠ مندوب و ٣٠٠٠ مراقب مبعوثين من قبل منظمات وبيوتات تجارية ومؤسسات علمية ، و ١٠٠٠ مراسل صحف ومحطات اذاعة ووسائل النشر والدعاية الاخرى .

وبلغ عدد البحوث العلمية المقدمة الى المؤتمر ٢٥٠٠ بحث ، لكن ٣٠٠ منها اهل ، لأن هنالك أنجاثا تفوقت عليها وسبقها ، فبقي للعرض والمذاكرة ٢٢٠٠ وثيقة علمية تقريباً ، تلي منها شفهياً ٦٥٠ بحث واقتصر في بعض اللجان تكليف

مقرر اللجنة بقرائة خلاصة لعدة أبحاث تتعلق بموضوع واحد . والبحوث الآن قيد الطبع وستنشر في ٣٣ مجلداً .

وانعقد خلال المؤتمر جلسات عامة ، وتفرع عنه خمس لجان مختصة . وكانت الجلسات تجتمع صباحاً وبعد الظهر وليلاً . هذا والقى بعض علماء الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا والهند محاضرات قيمة .

ورافق المؤتمر معروضان : معرض علمي أقيم في حديقة من قصر الامم المتحدة واشتركت فيه ٣٠ دولة ومنظمتان دوليتان هما « السرن » ومركز دوبنا للابحاث النووية ، وبرز فيه خاصة جناح الولايات المتحدة وجناح الاتحاد السوفياتي ، وقد كان هدف هذا المعرض تبيان الحوادث والمواضيع المبحوثة في جلسات المؤتمر بلوحات وافلام واجهزة حقيقية واجهزة مصغرة ، واهم ما جلب النظر في هذا المعرض صورة للصاروخ السوفياتي الثالث ، وتفسير حوادث الالتحام في الجناح الاميري . ومعرض ثان تجاري صناعي أقيم في قصر المعروضات في مدينة جنيف نفسها ، اشتركت فيه المصانع وارباب التجارة والصناعة ، ففيه يجد الراغب في شراء آلة تنقيب مثلاً عن المعادن المشعة المدفونة تحت الارض ، يجد هذا الراغب احسن عداد صنع حق اليوم مع سعر العرض . وظهرت في هذا المعرض المنافسة التجارية بين المصانع المختلفة .

١ . — لقد اتضح من المؤتمر ان الطاقة الكهربائية التي انتجتها المراكز الكهربائية الذرية المبنية على اساس تحطيم الانوية الثقيلة ، بلغت حتى الآن بضع مئات الملايين من الكيلوواطات الساعية ، وانه من المنتظر ان ينافس سعر هذه الطاقة الكهربائية الذرية بين سنتي ١٩٦٣ و ١٩٧٣ سعر الطاقة الكهربائية الحاصلة بالطرق العادية . وقدمت لنا مشاريع من عدة دول لزيادة طاقة مراكزها الكهربائية الذرية ، وبصورة خاصة نذكر مشروع مركز ذي ٥٠٠ الف

كيلواط في بريطانيا ومشروع مركز ذي ١٨٠ ألف كيلواط في جنوب شيكاغو ومشروع مركز ذري ٤٠٠ ألف كيلواط في سيبيريا . مما دل على السعي المستمر في تكبير استطاعة المفاعلات ذوات التحطيم .

٢ . — وفيما يتعلق بالطاقة الناتجة عن تفاعلات الالتحام ، فقد ظهر من الابحاث العلمية المقدمة ، وعددها مائة ، ان هنالك تقدماً مهماً في مواضيع مختلفة ، وسوف لانضي عشر سنوات الا وتكون الحرارة الناتجة عن التفاعل تساوي الحرارة المصروفة في سبيل التفاعل ... ويعد نشر المؤتمر لابحاث الالتحام والتصريح بها شيئاً جديداً ، بل ثورة في الابحاث الذرية ، وقد خصها بست جلسات .

٣ . — وقد اصبح الامل قوياً في استخدام الطاقة الذرية في دفع السفن ، بعدما استمعنا الى تقرير الاتحاد السوفياتي يصف السفينة « محطة الجليد » المسماة « لينين » التي قذفت الى البحر السنة الماضية ، وتقرير الولايات المتحدة عن السفينة التجارية « سافانا » التي لا تزال قيد البناء . وبعد السفن يأتي دور الطائرات ، وقد وصفت بعض التقارير المقدمة الى المؤتمر مشروعات وتصاميم لدفع الطائرات بالطاقة الذرية .

٤ . — ذكر في المؤتمر ان العناصر المشعة اصبحت في العالم كله اداة جديدة في يد الطب والصناعة والزراعة والعلوم الاساسية . وصرح ان الوفرة السنوي الحاصل من استعمالها بلغ في الولايات المتحدة ٤٠٠ مليون دولار ، وفي الاتحاد السوفياتي مليار روبل . واكد احد العلماء ان من اهم اكتشافات العلم الحديث النظائر المشعة في الطب للتشخيص والعلاج . ووجه النظر بصورة خاصة الى الهدرجين الثلاثي او التريتيوم والى استعماله كأداة بحث بيولوجي وفيزيولوجي ، وهو يرسل اشعة بيتا الطرية ، ونحسر نصف اشعاعه خلال ١٢ يوم ونصف ،

فاذا حقن في مواد حية نفذ الى اعماق كيمياء خلاياها ؛ فاذا وضعت المادة البيولوجية فيما بعد بتماس لوحة التصوير ، فاشعاع التريتيوم يطبع صورة واضحة عليها . فبهذه الطريقة درست خواص الحموض النووية ، وهي مواد كيميائية اساسية ، فيها يكمن سر الحياة لان لها خواص التوالد الذاتي .

٥ . - ووضح لنا المؤتمر الخبرة الحاصلة في انشاء المفاعلات ، فانضح منها ان المفاعلات ذوات الغرافيت والماء الثقيل اوفرها ؛ وان المفاعلات ذوات الماء العالي لها طلابها وراغبوها بالنظر الى صغر حجمها وبساطة تركيبها ؛ وان المفاعل ذا المهدىء العضوي مهم بالنظر الى ان المبرد فيه غير مشع ؛ وان المفاعلات التي تعمل في درجات عالية من الحرارة والمبردة بالغازات يحسن استعمالها خاصة لدفع السفن ؛ وان المفاعلات ذات المحروق السائل والتبريد بالصوديوم مفيدة ؛ وان المفاعلات التي تولد من الوقود اكثر مما تستهلك اقتصادية ويرجح استعمالها في كثير من الاحوال .

٦ . - وصف المؤتمر طرق استعمال البلوتونيوم في المفاعلات ، وكذلك استعمال الثوريوم ، وقدرت كميات الاورانيوم الموجودة في العالم ، فكانت اربعة امثال ما قدرت عليه سنة ١٩٥٥ : اي انها بلغت ١٠ ملايين طن من الفلزات الغنية بالاورانيوم ، و ٥٠٠,٠٠٠ طن على اقل تقدير لمخدرات الثوريوم .

٧ . - وكشف المؤتمر النقاب عن طرق فصل الاورانيوم ٢٣٥ عن نظيره ٢٣٨ ، بعد ان كانت سرّاً مطلقاً ، وكان ذلك بعد اجاث قدمت الى المؤتمر ، واعطيت المعلومات الكافية لمقارنة ثلاث طرق شائعة وكانت مكتومة : طريقة الانتثار الغازي ، وطريقة الانبوب المنفرج ، وطريقة القوة النابذة .

وتكمن اهمية فصل الاورانيوم ٢٣٥ ، وهو المادة المنشطرة ، في امكانية زيادة نسبته في الاورانيوم الطبيعي . ويعالج الاورانيوم في كل هذه الطرق

بعد تحويله الى سادس فلور الاورانيوم وهو مركب غازي .

في طريقة الانتثار الغازي يمرر المزيج الغازي خلال حاجز ذي مسامات ، فالغاز الخفيف وهو سادس فلور الاورانيوم ٢٣٥ يمر بسهولة اشد . فأعطت الابحاث المقدمة تقاميل ونتائج اختبارات تتعلق بكيفية استحصال سادس فلور الاورانيوم ، وتحضير الحواجز ذات المسامات ، ووصف منشآت صناعية للفصل .

وفي طريقة الانبوب المنفرج ، يجتاز سادس فلور الاورانيوم هذا الانبوب بسرعة تتجاوز سرعة الصوت ، فالاقسام الخفيفة من المزيج الغازي تسعى الى الشرود عن التيار الغازي وللجهاز وعاء حيث يتجمع على حدة القسم الخفيف .

واما طريقة اعتماد القوة النابذة ، فهي ان يعرض المزيج الغازي الى الدوران الى ان تصبح القوة النابذة اكبر من الثقالة بـ ١٠٠ ٠٠٠ مرة فينفصل القسم الثقيل من المزيج الغازي مبتعداً عن محور الدوران .

٨ . - وبمقتضى المؤتمرات حوادث جديدة في مضمار الفيزياء النظرية والتجريبية ، ودهش الحاضرون عندما اعلن احد علماء السرن (أي اللجنة الاوربية للابحاث النووية) نتائج تجارب تثبت الانشطار المباشر للميزون « بي » مع انتاج كهرب واحد وتترينو بدون ان يتحول الى ميزون « مو » ، وهو تفاعل معروف نظرياً منذ ٢٣ سنة ، ولكن حقق الآن تجريبياً لأول مرة . وتناولت ابحاث الفيزياء النظرية الدقائق الغريبة ، ونظريات التفاعلات الجارية داخل النواة ، والثوابت الفيزيائية الجديدة ، ونتائج دراسة الاشعة الكونية ، ومعلومات قيمة عن المعجلات محطمت الذرات ، وعناصر جديدة في جدول مندليف كالعناصر كاليفورنيوم ، انشتينيوم ، كوريوم ، فيرميوم ...

هكذا كان المؤتمر نجاحاً عظيماً لتوضيع استعمالات الطاقة الذرية في
الاعراض السلمية ، ونشط فيه تبادل المعلومات وظهر فيه شيء من التعاون
الدولي ، وبتن التطويرات الاخيرة للعلم الذري في الصناعة والزراعة والطب
والعلوم ، واوضح ان العلم الذري يؤدي الى رفاهية الشعوب وتوفير الشروط
التي تؤدي الى توطيد السلم في العالم .

٦ — برنامج الجمهورية العربية المتحدة

سيداتي ، سادتي ،

ترى اين نحن من كل هذا ؟ ادركت مصر وسوريا سابقاً ، والجمهورية
العربية الآن ، اهمية الموضوع الذري ، ورصدت له المال ، وهيأت له الافراد
وبعثت له البعثات ، فأوفدت الى البلاد الاجنبية اكثر من ٣٠٠ موفد من خيرة
ابنائها ، حاملي الاجازة في العلوم والمهندسين ، للتخصص في شؤون الذرة
العديدة ، وبنيت المدينة الذرية بالقرب من انشاص ، واستوردت فرنّاً ذرياً
مبرداً ومهدئاً بالماء ، يوقدون فيه الاورانيوم المزود بالاورانيوم ٢٣٥ ، وفيه
تتدفق النيوترونات بسمالة ٢٠ مليون مليون نيوترون على الـ سم^٢ وفي الثانية ، وبنيت مخبراً
للفيزياء النووية مع معجل على طراز « فان دي غراف » طاقته ثلاثة ملايين
« الكترون فولط » ؛ وانشأت مركزاً للنظائر المشعة ، ووزعت الوحدات
الصحية على المستشفيات ومصالح الزراعة ، وارسلت بعض البعثات الجيولوجية
الاستكشافية الى مناطق مختلفة للتنقيب عن المعادن المشعة ، وعينت بموضوع
المونازيت الموجودة في الرمال السوداء ، وفيه ثوريوم واورانيوم ، وهيأت
مشروعاً لاستحصال الماء الثقيل ، وجهزت المخبر الالكتروني .

والجمهورية العربية المتحدة عضو في الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وعضو

من أصل ١٥ عضو ، في اللجنة الدولية لبحث تأثير الاشعاع في الانسان . ولقد قامت بكل هذه الاعمال لانها ادركت ان لاهياة كريمة بدون صناعة ، وان الصناعة الذرية من أهم الصناعات ، لها مستقبل زاهر ومنها تؤمل فوائد جليلة .

هكذا نرى جمهوريتنا العزيزة الفتية تسرع في قطع مسافة طويلة لتتدارك التخلف الصناعي والاجتماعي ، لتلحق الصف الاول من ركب الحضارة . وتضي في هذا الاسراع بروح ثورية في العمل والتشريع .

هذه الجمهورية التي نعتز بالانتساب اليها ، تأتي بين الدول الـ (١٥) الاولى في العالم في البرنامج الذري .

وبالرغم من هذا الاهتمام ، الذي يستوجب التقدير والتهنئة ، ينبغي ان تضاعف الجهود ، ويبدل المال بسخاء ، في سبيل تحقيق برنامج ذري معقول ومتناسب وتطور بلادنا ومستقبلها .

٧- الانسانية أمام طريقين : الخير أو الشر ، السلم أو الحرب

اننا نعني بالموضوع الذري لاغراض قومية ، علماً منا أن الطاقة الذرية طريق نحو الرخاء والازدهار ، والتقدم والرفق ، ولاننا نعلم حق العلم أن البلاد المتخلفة اقتصادياً هي بلاد متخلفة من حيث العلم والمعارف والثقافة ، ولاننا واثقون انه لايجوز انتظار الآخرين ، بل ينبغي أن نقوم بتجاربنا بأنفسنا ، ونلحق بركب الحضارة والعلم والفن . اننا نعني بالموضوع الذري لاغراض قومية ذكرت بعضها ، وفي الوقت ذاته اننا نجاري التيار العلمي الذي يدعو الى اقتصار استعمال الطاقة الذرية لحير البشرية وخدمتها ، لاغراض السمية فحسب ، لانه لايمكن لنا ان نتقدم اذا لم نحيم السلم على العالم ، واذا لم يزل التوتر العالمي وحرب الاعصاب والتهديدات بالقنابل الذرية والهدرجينية . ونحن رجال

العلم يؤمننا أكثر من غيرنا ان يستغل العلم للتفنن بانواع الاسلحة الفتاكة لتدمير البلاد والجنس البشري وكل حضارة على الارض، لا نقبل أن تستثمر الاكتشافات العلمية والابحاث الذرية في سبيل التدمير والتخريب ، لا نقبل هذا أبداً ، ولذلك نضم صوتنا الى جميع الصيحات في العالم لوقف التجارب الذرية ونزع السلاح ، فنحن كعرب - والعرب شعب وحي وانساني - وكعلماء ، لدينا الاسباب الكافية ، لدينا اسباب قومية وسياسية لضم صوتنا الى جميع تلك الصيحات لوقف التجارب النووية ، وارجو أن تغلب المثل العليا على المطامع ، والاعتبارات الخلقية والانسانية والروحية على الاعتبارات الاقتصادية والمادية الصرفة ، وان يقوم على الارض مجتمع انساني يسود فيه السلم والخير والعدل والحرية ، وتتعاون فيه القوى لخدمة الانسانية ورخائها والسلام .

دمشق في ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٨

ذكرى إعلان حقوق الإنسان تاريخ وآمال وحقائق

الدكتور مصطفى البارودي

استاذ القانون العام في كلية الحقوق

تحتفل جامعة دمشق هذا اليوم بمرور عشرة أعوام على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، على يوم أعلنت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة مبادئ ثلاثون استقاها واضعوها من ذروات الفكر السياسي ومشارف الضمير الانساني ، وقد سكبت في بيان حر صريح لا لبس فيه ولا مواربة ولا شرود ، لأن طابعه البحث عن الحقيقة وتأكيدها ، والإيمان بها والدعوة لها ، حتى تزداد عمقاً ورسوخاً ، بعد أن حسر عنها أو هام السنين وظلمات العصور عقول الفلاسفة والحكماء الذين دانت لهم من بعد لأي عقول الحاكمين ، وانحنت أمام نتاج عبقرياتهم هامات رجال السلطة ، فأصبحت كلماتهم تسابيح ترددها قلوب اتخذت الى مستقر الإيمان سبيلاً فذاقت حلاوة الطمأنينة من بعد أن أرهقها الإلحاد بالقيم وعذبها الكفران بالمثل فكادت تهرق لولا أن ردت إليها الروح !

وإني لأحب أن أبدأ محاضرتي بأن أقرأ أمامكم كلمات الإعلان ، فإذا نحن نستعيد ذكر العبقریات في فلسفة الدولة وفن الحكم ودراسة المجتمعات ، وإذا نحن من خلال الإعلان نعيش بضع دقائق مع أولئك الخالدين الذين لم يرضوا للحياة التي عاشوها أن تطحنهم كغيرهم في طريقها أو أن تكبل عقولهم بسلاسل

الزمن المتراخي على أكتاف الأجيال ، بل إنهم حطموا بالفكر قيود السلطة والحكم المفروض ، ودعوا أهل الأرض الى إدراك حقيقة ذواتهم وغرض وجودهم لئلا يكونوا كالسواثم في يد نفر منهم ما هم إلا أناسي مثلهم ، فكيف يسومونهم خسفاً أو يحملونهم على الهوان ، لقد آن للإنسان أن يرد الى طريق الإخاء من ضاع عن الطريق من بني الإنسان !

ولسوف أقرأ المباديء الثلاثين التي أقرتها الأمم المتحدة لانتقل من سطورها الى التحليق في أجواء التاريخ ، أقطف منها ما يرد بجشاً الى أصوله ويضعه في موضعه ، ثم أخرج الى دنيا التأمل في الآمال الجسام التي أرادت الأمم المتحدة أن تفتح أبوابها أمام بني البشر ، على الرغم من سطوة القوة وتأله الذرة ، وكبرياء ذوي الحول والمال ، واستعلاء من يحسبون أنفسهم في الأرض أعقل الوارثين ، فكأنهم ملكوا وحدهم الحكمة ، وكل يحسب في نفسه القدرة على القيادة ، ويمضي في طلب دفعة السفينة . . فانظروا الى سفينة البشرية يتخاطف دفتها ربانها مختصمون . .

فإذا وضعت الإعلان في موضعه من التاريخ على ضوء بيانات سبقته الى الوجود وكان نطاقها الدولة الواحدة وكان صداها في دول متقاربة الثقافة متأخية المسعى خلقت بينها الثورات نسباً ، فصيرتها وحدة في طلب الحرية والتاس الشفاء من داء التحكم والأهواء حتى تأخت على سرير الإنسانية المريضة المدنفة مثماً توأخي المشافي بين المرضى والمدنفين ، فذلك لأن التاريخ يفسر من ثم الآمال التي باتت مهوى فؤاد العاملين الخالصين في الميدان العالمي الفسيح ، رغم ما يصدم المباديء عند التطبيق من خزي الحقائق التي توشك أن تجرد الكلمات من جميل إهابها وتسليخها عن جوهر مسمياتها وتلقي بها عارية في أصل مستنبتها ، لاتنفع إلا زينة للعقول وحلية للحديث وسجراً في البيان يتسامى إليها فكر ينفر

من شروء الدنيا وكأنها عالم من اللذائذ الموهومة لا يكون الوصول إليه إلا بالتخدير . . . وكأن الإعلان العالمي هذا يغدو ضرباً من هذه التسلية العلوية إذ يفعل فعل المخدر الفكري العميق التأثير . ويومئذ ما أعظم التبعة التي يحملها العاقلون ليردوا الحقائق الى دنياها ويؤكدوا أنها ما كانت ولا يجوز أن تكون أوهاماً وأحلاماً . . . فأحلام العقلاء جدرة بأن تعرف التحقيق .

وإن أنا أمسكت بالإعلان العالمي لحقوق الانسان فكأنى رُددت الى عشرة أعوام خلت ، فأرى الى باريس التي دعت بكل ما أوتيت من مغريات الفكر والجسد والروح لاستضافة وفود الأمم المتحدة ، وكأنى أبصر الساعة بعيني قصر شاو وقد بسط جناحيه بهم بأن يضم إليه برج إيفل المتعالي غير بعيد ، وقد انعقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٤٨ في قاعات القصر وحجراته ، وكأنى بالفرنسيين سعوا سعيهم الحثيث الى أن تعقد الأمم المتحدة لديهم دورتها الثالثة لتحضن باريس مولد الإعلان العالمي لحقوق الانسان ، أو هم جهدوا على الأقل في أن تنجز في عاصمتهم ذلك العام صياغة الإعلان . . . ولقد كانت أنشط العاملين في اللجنة التي تفرغت لهذه المهمة رجالاً من بني جلدتهم ، وهو الذي تولى قراءة الإعلان في جلسة الموافقة عليه في العاشر من كانون الأول ، قبل عشرة أعوام ، يوماً بيوم ، والتراجمة ينقلون من خلال الأجهزة المعلقة بالآذان الترجمة الآنية المرافقة الى اللغات الصينية والروسية والانكليزية والاسبانية ، فما أن تنتهي التلاوة حتى يُقر الإعلان بالاجماع . . لقد ظفر الإنسان لأول مرة - بعد أعنف الحروب - بالاعتراف الدولي بحقوق الإنسان أنى كانت . .

وقد جاء في هذا الإعلان في صيغته العربية التي أشرفت على ترجمتها أجهزة الأمم المتحدة :

(وهنا تلا المحاضر نص الإعلان العالمي لحقوق الانسان) .

ثم تابع المحاضر يقول :

ولعل من الواجب علينا بعد الذي رأيناه من حرص فرنسا على احتضان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، أن نتساءل عن حقيقة الصلة بين التاريخ الحضاري الفرنسي وبين ذلك الإعلان العالمي ، فهل كانت فرنسا وحدها الداعية الى حقوق الانسان ، أم أن كل ما يميزها من غيرها أنها وضعت في خدمتها البيان ، فهي والأمم الأخرى سواء في العمل الجدي في خدمة الإنسان ، مثلما دأب حكامها وحاكمون آخرون في غيرها على الكيد بالمقابل لبني الإنسان ؟! .. وعلى ذلك ما كانت الدعوة الى حقوق الانسان إلا حيث هضمت تلك الحقوق ، فما يُبصر المرء على تأكيد شيء إلا حين يفقد ذلك الشيء وما يكرر الحديث عليه إلا حيث تشتد الحاجة اليه ؟! ..

لا ريب أن إعلان حقوق الإنسان ترات مشترك بين بني البشر ، وقد كان في فترة تاريخية معينة يتوغل في نطاق الفكر الأوروبي سواء على أرض أوربة بالذات أم في مستعمراتها في أمريكا ، العالم الجديد .

وإن الصلة التي تربط الإعلان العالمي بالتاريخ السياسي والحضاري للأمم جميعاً قائمة في فقرة من مقدمة الإعلان ، إذ تؤكد الأمم المتحدة أن من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الانسان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم .

إن هذا في الحق هو الذي يفسر إعلان حقوق الإنسان .. فهي حيث أعلنت في أي حقبة من التاريخ ، وفي أية صورة أو أية حدود ضيقة إقليمية ، وقبل أن تعرف الذبوع والإجماع العالمي ، إنما أعلنت على ألسنة المتمردين على الظلم .

وهنا أيضاً وجه المفارقة والغرابة :

إن إعلان حقوق الإنسان هو وليد العدوان على حقوق الإنسان.. ونحن ما اجتمعنا الساعة ليصرفنا سحر البيان عن الحقائق والدماء والثورات التي تولدت وتأكدت بفضلها تلك الحقوق . وإنما تسوقنا هذه الحقائق والدماء والثورات للحديث عن إعلان حقوق الإنسان من خلال كفاح الإنسان في وجه الطغيان ، واستبساله في صد العدوان . بل إن تبني الأمم المتحدة هذه الحقوق هو محاولة لتقويم الحكم في كل مجتمع لا يرعى حقوق الإنسان .. ومن أجل هذا فإن الحديث عن هذه الحقوق هو في أصله الحديث عن الحكم على مرّ الزمان ، مذ كان تحكماً في الرقاب ، لارادع ولا وازع ، إلى أن استفاق الفكر ونحس الضمير فأراد من الحكم أن يكون واجباً قومياً أخلاقياً ، ثم واجباً إنسانياً عالمياً ، يصرف فيه بعض أبناء الشعب كل مواهبهم في خدمة مجموع الشعب ، في دولة استقامت معانيها ومبانيها وأصبحت كما ينبغي أن تكون الدولة : سلطة منظمة في خدمة الإنسان .

وما حقوق الإنسان إلا حقوق كل منا على السواء : حقوقي أنا ، حقوقك أنت ، نصونها من الباغين عليها ، ونستخلصها من العادين !.. ولكن من ذا الذي ينبغي عليها ، ومن نستخلصها ؟ إنه الإنسان ... وهل الحاكمون العتاة من غير طينتنا ، وهل الطغاة الجائرون إلا بشر مثلنا أخذتهم العزة بالإثم ، فمشوا في الأرض مرحاً ، وحسبوا أنهم يخرقون الأرض أو يبلغون الجبال طولاً ؟.

وهل ينصف الإنسان من أخيه الإنسان إلا أخوه الإنسان ؟ ههنا نتلمس العقل والفكر والضمير والوجدان ، فلكل امرئ من نفسه على نفسه رقيب عتيد ، فإن أتى الشر استشعر حسابه الذاتي في نداء يهزه هزاً إذ يتعالى بين

جنبه وقد هب الضمير الذي يمثل فيه روح الله .. حتى الحاكمون الظالمون إنما يصورون هذا الصراع في أنفسهم في أشد مظاهر تعنتهم على الناس ، فما ذلك التعنت منهم إلا هروب من الضمير ، وما الإمعان في التعذيب والاستبداد إلا إمعان في الرهبة من مواجهة الوجدان ، ويأويح ذوي الفكر وأرباب العقول من خلوة مع الفكر ونشاط في العقل .. وما أروع أن ينتهي الحساب إلى صور الاتزان ..

هذا هو الإنسان في مجتمعه الابتدائي في أول صور الصراع النفسي أمام عذاب الضمير وجبروت الوجدان : ولدان من آدم وقد قتل الأخ أخاه ، فلما رآه مستلقياً أمامه رأى خور عزمته فيما كان يختال به من قوته ، وبدت له شناعة الجبن فيما كان يحسبه من شجاعته ، ولم يستطع أن يترك أخاه حيث ألقاه بل حمله على منكبيه وكأنه يتبرأ من جرمه إذ يضم إلى ذات نفسه صورة جرمه ، وكأنه إذ يحمل ثقل الموت يتخفف من أثقال العذاب ، وهو يسائل نفسه ماهو فاعل بأخيه؟ « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي ، فأصبح من النادمين ... »

أليس كلنا ذلك الأخ المسئول عن أخيه الإنسان .. وفيه التباغض والتنازع والاقتيال ، وفي الأرض متسع لكل طالب عيش كريم ؟ ولم لا يكون الود والوئام بدل الحقد والحصام ؟ أما ترعانا عين الله ، وقد فطر فينا الروح من أمره ، وآتانا الضمير كلمة منه نراه من خلالها بل نحسه في أعماق البصيرة ومنتهى التأمل ، وتُسبِّح باسمه كل نبضة من نبضات الفؤاد ؟ وفيه لا يقول القائل منا لأخيه : « لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك . إني أخاف الله رب العالمين » ؟ أليصدق فينا غلبة الأمر بالشوء في نفس تنصرف في

لحظة عن دعوة الخير فإذا نحن كمن « طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ؟ »

أتراها شهوة التحكم والسيطرة جعلت الإنسان يُسخر لها أخاه الإنسان أم أن سهم القدر النفاذ قد أراد بحكمة الله للقيم أن يتعاضد شأنها والمثل أن يسمو شأنوها بقدر ما يسرف الناس في التجني عليها والتنكر لها ؟...

أولست المجتمعات منذ بدأت تقدم عصرًا بعد عصر صوراً ما تنتهي لهذا التجني وذلك التنكر فإذا هم الفكر على مر العصور أن يستخلص حقوق الإنسان من برائن الحاكمين ؟..

هذه أرفع المجتمعات قد خضعت لهذا الإثم في حق الإنسان . وهذه أثينا يغدو فيها الحكم حباً في التمكن وتلذذاً في الإخضاع رغم أنها أول المجتمعات تعلقا بالقانون واحتراما للنظام ... ولكن القانون نفسه قد يغدو آلة للعدوان على الإنسان .. فكيف يمكن أن تخضع القانون لحقوق الإنسان ؟..

لقد بلغ من سطوة القانون في أثينا أن كان سبباً في مصرع المفكر الذي آمن بقدسية القانون، مصرع سقراط الحكيم.. وبالقانون اتهموه أنه يفسد عقول الناشئة فقصوا عليه بالموت، فجعل بذات يده الكأس التي خالطها السم. وهيئات للموت أن يطفيء شعلة العبقرية وهيئات للقوانين المسفة أن تمتنع إشعاع الخلود.. فالعقوبات تتحدى الفناء.. والفناء للقوانين وللحاكمين. وإن أمضى الناس قوة على منصة الحكم يتمنى لو ملك في قلوب الناس ذرة من شأن العباقرة والملمهين ..

وإذن فقد ترعرع هذا المبدأ ، مبدأ قدسية القانون فلن يقبل على إطلاقه ويبدأ البحث عن طريق تغلب فيها على القوانين مبادئ أسى من القوانين .

ولقد قدم أدب اليونان نفسه سعيه في هذه السبيل. وهذا « سوفوكل » شاعر

المأساة ينطق العذراء « آتتيغون » في وجه صاحب السلطة « كريون » فتبدو هذه العذراء وقد خرجت على القانون ، لأنها آمنت بأحكام شاملة لاتحددها حدود ولا تعرف الفناء ، قوانين معصومة إلهية من السماء ، هي التي يجب أن يستمسك بها الفرد قبل أن يخضع إلى أحكام الأرض .

نعم إن تلك المبادئ العلوية كانت غير مكتوبة ، ولكن آتتيغون كانت تقرأها في الضمير الواعي الذي كان يتحسس بها ، وفي فؤادها الذي كان يردد في خفقه هذه الفكرة العالمية التي تعارض قوانين الدولة بقوانين تفوقها قيمة وتسمو عليها لأن مداها العالم كله ، ولأنها انما تستمد من وازع الأخلاق .

وجه الخطر في هذه الدعوة يتبين لامرأ فيه ، فالحقوق الوضعية في كل مجتمع لم تعط الرجحان إلا لأنها لا يمكن أن تكون في المرتبة الأدنى إزاء مفاهيم لم تكتب ولم تتبلور فقد يذهب كل في تصورهما المذهب الذي يشاء .

أليس خيراً للمجتمع أن يدعم قوانينه بدلاً من أن يحط من قدرها ويفتح الأبواب في أعين الناس أمام الفوضى الشاملة ، وهي أسوأ بكثير من أسوأ القواعد الوضعية ؟

وإذن فلتكتب هذه المبادئ السامية على القوانين بدلاً من أن تظل بعيدة عن متناول الأعين كأنها شمس في فلك الأفكار تحس بأصالتها ودفئها ولكن أشعتها تنساب من بين الأيدي فلا تقبض منها على شيء ، وكأنها ليس لها وجود .. أم تراها كالرياح ، آثارها بينة ناطقة ، ولكن لا تقبض منها أيضاً على شيء ، وكأنها ليس لها وجود ...

أجل إنها الشمس مرة ، والرياح مرة أخرى ، ولسوف تحرق هذه المبادئ السامية المجتمعات الظالمة كلما انخرقت فيها الأنفس والقوانين عن صراط مستقيم ،

ولسوف تعصف بالظالمين فإذا هم أثر بعد عين ، كأن لم يَغْنَوْا بالأُمس ،
وكان لم يكن لهم سلطان مبین ، فلقد كرم الله بني آدم ، فما ترتضي قدرته
الحارقة أن يُظلم الإنسان في الأرض ، بل يأخذ الظالمين بعذاب الهون
بما كانوا يَكْسِبُونَ ..

نقد ظلت هذه المباديء مستعصية على القلم لا يكتبها ، وعلى الفكر لا يحصرها ،
وإن كان يعيها ويكاد يلهمها .. ولكنها أشمل من قيود الكلمات وأعم من إطار
الحروف .. غير أنها إذا لم تسجل ، فما الذي يحد سلطة إصدار القوانين ؟ وكيف
ترد هذه القوانين إلى أصلها وسبب وجودها فتكون للإنسان لا عليه ؟ لقد
احتاج الإنسان إلى القانون لينظم شؤون حياته في مجتمعه لا لينهب بها بدداً أو
يلقي بنفسه في سجن كبير ..

واستمر الصراع وتجلى في تاريخ الغرب بأعنف صوره : فئة قليلة من بني
الإنسان تسخر لها في المجتمع كل إنسان .. وتقوم الثورات ، وتُسفك الدماء ،
وينهار الذين أساءوا وضع القوانين أو أساءوا تطبيق القوانين .. والإنسان
الثائر ، والعاقل المفكر ، كل يستمسك بحقوق الإنسان الأزلية ، المتفوقة على
قوانين الحاكمين ، فكان لابد للفكر السياسي أن يجهد في عرض حقوق الإنسان
ويسخر لها البيان ولو جعل مدادها شرايين القلوب ..

وكفعل البتاء الحذر أراد الفكر أن يصف الأسس والجذور التي ينهض
فوقها بنيان راسخ كالجبال الشم لا ترزح حها الأعاصير لأنها هي التي توجه سير الأعاصير .

وكانت المحاولة الأولى في العصور الوسطى ، فراح الفكر ينسب حقوق
الإنسان إلى مايسميه « الحقوق الطبيعية » . وكذلك فعل « بودان » ، فلقد أراد
أن يؤكد حق التملك بأن جعل في عنق صاحب السيادة في الدولة واجباً دينياً
يلزمه ألا يمس الحقوق الطبيعية لأنها من طبيعة الإرادة الالهية ..

غير ان الدين نفسه كان موضع الهزات والثورات في أوروبا وقد ترعزت وحدة الإيمان في شعوبها حين شقت البروتستانتية عصا الطاعة على البابوية . فلم يعد الدين يصلح سنداً ثابتاً للحقوق الطبيعية ، وراح الفكر يلتمس لها دعامة في الأرض ، بعد أن انقطعت بأوربة أسباب السماء . وفي هذا النطاق الجديد يلمع اسم جون لوك في الفكر الانكلوساكسوني ، ويقبس عنه جان جاك روسو مواطن جنيف ..

يصور ههنا الفكر الإنسان في حالة الطبيعة ، طيب الطوية ، خالصاً من كل سوء ، وقد نعم بحقوقه جميعاً ، ليس بينه وبينها حائل ، غير أنه يخشى مع ذلك أن تفسد هذه الحال فتضيع منه هذه الحقوق ، ولهذا ينتقل الأفراد معاً الى حالة الاجتماع وقد تعاقدوا على أن تبقى لهم حقوقهم الطبيعية لأنهم ما ابتغوا العيش في كيان الدولة إلا لتحفظ السلطة المنظمة حقوقهم من الضياع .

كان جون لوك يصور في هذا نصر حزب الأحرار في انكارترا على الملك جاك الثاني الذي كان يتآمر مع ملك فرنسا من أجل إعادة دين رومة إلى شعب تطرف بالأخذ بالبروتستانتية . وسجل الشعب نصره على جاك الثاني فأطاح به عن العرش ودعا اليه مكانه غليوم دورانج من هولاندة موئل البروتستانتية في أوربة ذلك الحين وسلمه الحكم وديعة وأمانة ليرعى « لائحة الحقوق » التي فرضها حزب الأحرار ، وأضحت الملكية الوراثية من ثم تجري في هذا الإطار التعاقدي الذي لا يرجع فيه صاحب التاج عما التزم به أمام الشعب ...

وقد حمل المهاجرون الإنكليز إلى أمريكا أفكارهم هذه إلى مستقرهم الجديد ، فلما أرادت لندن أن تفرض عليهم حكم الوطن الأم غير آبهة بحقوقهم كأناسي يريدون أن يرعوا بأنفسهم شؤون كيانهم في العالم البعيد الذي كانوا ينشئون سخرها بلندن وسلطتها وحطموا كبرياءها وتشريعها واستمدوا من لائحة

الحقوق التي كانت تنظيماً عملياً على الطريقة الانكليزية يكفل للمواطنين منع كل اعتداء على حقوقهم الطبيعية ، واستمدوا من أفكار لوك التي تدعم حق الشعب في الثورة على الحاكمين الذين يخونون أمانة الحكم ويخرجون على شروط الوديعة ، واستمدوا من إيمانهم العميق بالله الذي حفزهم الى مغادرة الوطن الذي ترزعزع فيه ذلك الإيمان بالله ، استمدوا من كل ذلك أول صيغة نعرفها في العصر الحديث لإعلانات حقوق الإنسان فكانت كل مستعمرة تائرة تضع إعلانها ثم وضعت كلها معاً إعلاناً موحداً ، وتسلسل هذا على يد (جيمس آرتس وسامويل آدمز) وغيرهما من عام ١٧٧٢ الى عام ١٧٧٦ حين أعلنت الولايات التائرة استقلالها مهددة له بالذي تبغيه منه مؤكدة معناه : تحقيق حقوق الإنسان ..

ولم يعدم الثائرون الانكليز دماً في أمريكا نصيراً لهم في الوطن الذي اضطهدهم حتى انتزعوا منه استقلالهم ، وهذا « ادموند بورك » محبس مكانته في في حزب به وقد كان من قادة حزب الأحرار وينظر اليه شزراً أكثر بني قومه ، لأنه نهض يؤازر الثوار في قلب لندن التي داس الثوار تشريعها ونبذوا سلطانها ودحروا جيشها .

فاذا جاءت الثورة الفرنسية بعد قليل ، وأعلنت حقوق الإنسان على طريقتهما ابتداء من عام ١٧٨٩ هب « ادموند بورك » نفسه مندداً بها ساخراً من أعمالها مفنداً ماتدعيه من أنها تهدف حقاً الى خدمة الإنسان .. وراح يعنف جماعة من الإنكليز باركوا ثورة في باريس تجيء بعد ثورتهم في انكلترا بمائة عام .. فكيف لهؤلاء أن يضعوا في حد سواء الثورة الانكليزية الرصينة الواقعية المحدودة البروتستانتية ، والثورة الفرنسية الفاجرة المجردة المنطلقة الكافرة .. ألا يكفيها سوءاً أنها تنبذ نتاج العقول عبر العصور وتنكر الله وتزعم أنها تقيم بنيان الدولة بخطوط هندسية ، كأن كل الذي مضى من حقب التاريخ لم يخلف أثراً ، فلا يقيم له الثائرون وزناً ؟! حتى يقول : « إنني لا أدخل في نطاق الميتافيزيكية فأنا

أكره حتى وقع هذه الكلمة على السمع .. ولهذا يرفض كل مناقشة تتجرد عن مناسبات الزمان والمكان والأشخاص ، لأن هذه المناسبات في الحقيقة هي التي تعطي المبدأ السياسي لونه المميز وطابعه الحقوقي وهي التي تجعل نهجاً مدنياً أو سياسياً يفيد أو يضر الجنس البشري ، فالعقل الانكليزي يأبى الدفاع عن مبدأ مجرد بغير معرفة ملاسباته الدقيقة .. ولهذا ينقض بورك مفاهيم الثورة المجردة ومن بينها حقوق الإنسان لأنها جاءت على لسان الفرنسيين لغماً يهاً تحت الأرض حتى إذا ما تفجر نسف دفعة واحدة ما جاءت به العصور القديمة والأعراف والمواثيق ! . ترى إذا كانت الحرية في معناها المجرد ينبغي أن توضع بين خيارات الجنس البشري ، فهل يُبارك المجنون الذي ينطلق من قسر الحماية ومن ظلمة الوحدة في الزلزلة لأنه استعاد حقه في الضياء والحرية ..؟

لا شك في أن من حق الإنسان أن يطلب العدالة وأن يستمسك بمحصول عمله وبكل وسيلة تؤول الى تمييزه ، وأن من حقه أن ينتسب إلى آباءه وأجداده وأن ينهض بتنشئة وتثقيف أبنائه ، وأن من حقه أن يسعى إلى أي شيء سعيًا مستقلاً من أجل مصلحته دونما تعدي في ذلك على مصلحة الآخرين ..

لكن الذي كان يطلبه الثوريون الفرنسيون هو في الحقيقة حق اقتسام الحكم والسلطة وتسيير شئون الدولة .. وما كان هذا الحق في رأي « بورك » من الحقوق المباشرة الأولية للإنسان في المجتمع المدني ، فالحكم لا يقوم بالاستناد الى الحقوق الطبيعية لأنه من إبداع العقل البشري من أجل تلبية حاجات الناس لا من أجل إرضاء أهوائهم ، ولا جدال في أن أول حاجة عامة هي الحد بشكل كاف من الأهواء .. وفي هذا المعنى يكون القسر كالحرية في عداد حقوق الإنسان ..

إن الأهواء والمصالح البشرية كثيرة معقدة ، وفيها تنتثر حقوق الإنسان في اتجاهات متعددة متغايرة ، حتى أفقدها ذلك رواء بساطتها الأولية ، وبقدر

ما تكون النظريات صحيحة في شكلها الميتافيزيكي فإنها تكون خاطئة أخلاقياً وسياسياً ، بسبب تلك الأهواء والمصالح حتى أن من الصعب تعريف حقوق الإنسان .

وهكذا يمضي (ادموند بورك) في تقرير ثورة فرنسا حتى يجند بني وطنه عليها ويطلب تطويقها في شبه حجر صحي .. فتقابل ذلك فرنسا بأن تخرج بدعوتها النظرية في حقوق الإنسان الى ما وراء حدودها وينطلق نابوليون في فتوحه ، وفي ركابه دعوة تصور أنه سيد العالم الذي نقر لخدمة الإنسانية ..

ومن عجب أن تؤخذ بهذه الدعوة بروسيا قلب العنجهية الألمانية ، فتعجب بالاحتل ولغته وآدابه ، حتى يستثير كبرياءها فيلسوف فدّ من أساتذتها الجامعيين ويعلم (فيخته) في وجه الفكر السياسي الفرنسي تفوق العنصر الألماني .. وينعكس ذلك كله على حقوق الإنسان فتتجسر في إطارها المحلي ، في كل دولة على طريقته ، ويحول بينها وبين التطبيق على صعيد عالمي حروب هو جاء تريد أن يطغى مجتمع على مجتمع مثلما كان يطغى إنسان على إنسان ..

وإذاً انقضت الحروب ظهر الإنسان ، واستنزفت خيرات الأرض فكبرتها في أتون الحرب بدلاً من أن تسعد بها البشرية حتى لتبلغ نفقات الحرب الواحدة أضعاف أضعاف ما يلزم لتحقيق الرخاء للبشرية جمعاء ، هيمنت على أفئدة الساسة المجتمعين في سان فرانسيسكو لوضع ميثاق الأمم المتحدة فيما بين الدول التي اكتوت بنار الحرب ، أفكار خالصة لوجه الإنسان ، أنى كان ، توحى بها الرهبة من حرب عالمية جديدة .. بعد كل هذا الدمار وذلك الاستهتار بالإنسان وحقه في الحياة .

وبوازع من ميثاق الأمم المتحدة الذي وقع عام ١٩٤٥ سُكّلت لجنة حقوق الإنسان بعد عام ، ثم أنجزت هذه عملها في عامين ، وكان أن صدق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في مثل هذا اليوم قبل عشرة أعوام ..

وحمل الإعلان الى الإنسان آمالاً تسع الأرض جميعاً ، وقد كفلت مواده
 الثلاثون حقوق الأفراد في الميادين المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية
 والثقافية، وكرمت حق الإنسان في الحياة والحرية والسلامة والعدالة، وأقرت
 حرمة البيوت ، وحرية الانتقال والإقامة ، ورعت حق العلم والتعلم ، وحرية
 العبادة ، وحرية التعبير عن الآراء، وحرية الاجتماع السلمي ، والأمن الاجتماعي ،
 وأن يكون للفرد ملك خاص ، وأن يشترك في حكم بلده ، وأن يشغل منصباً
 عاماً ، وأن يطلب لنفسه ملجأ ويحصل عليه ..

وقد أعلنت الجمعية العمومية أن هذه الحقوق « مستوى عام تنشد تحقيقه
 جميع الشعوب والأمم » ودعت الدول الأعضاء الى العمل على ترويض نص
 الإعلان ونشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته وبخاصة في معاهد العلم في أي دولة
 أو قطر أو إقليم مهما كان شأن الوضع السياسي القائم فيه .

وما لبث الإعلان أن ترجم إلى خمسين لغة فاضحى وروداً أساسياً في كثير
 من الاتفاقات والمعاهدات الدولية واستقت عنه الدساتير الجديدة وروعت
 أحكامه في كثير من النصوص التشريعية وقرارات المحاكم المحلية على نحو يعطيها
 بالنتيجة الذبوع العالمي بعد أن شعت في كل فج قريب أو بعيد .

وانطلقت الهيئات الرئيسية الثلاث في الأمم المتحدة التي ألقى عليها الإعلان
 العالمي واجب إنفاذ أحكامه تعمل كل في ميدانها : الجمعية العامة ، والمجلس
 الاقتصادي والاجتماعي ، ومجلس الوصاية .. وراحت تُعد صيغة ميثاقين مستمدين
 من الإعلان ، ميثاق للحقوق المدنية والسياسية وميثاق للحقوق الاقتصادية
 والاجتماعية والثقافية .. وأنشأت تبحث في سيادة الشعوب والأمم على ثروتها
 ومواردها الطبيعية ، وحقها في تقرير المصير ، وتبحث في حماية الأقليات ومنع
 التمييز ، وحرية الإعلام إن في جمع الأخبار أو إذاعتها أو تصحيح المعلومات

أو في تهيئة وسائل الإعلام في الأقطار التي لما تستكمل أسباب النهضة . وعملت الأمم المتحدة مستعينة بمنظمة العمل الدولية على إلغاء العمل الإجباري بجميع أشكاله ، ومضت في محاربة الرق بمختلف أنواعه ، وسعت سعياً حثيثاً في تحقيق مساواة النساء بالرجال في الحقوق في جميع الميادين السياسية والتعليمية والاقتصادية والمدنية والاجتماعية ، وتعاونت هيئة الأونسكو مع الأمم المتحدة في توسيع قبول النسوة في جميع الدول في جميع مدارس التعليم على اختلاف درجاتها وقبولهن للتدريب على الوظائف والمهن والاشتغال بها بشق أنواعها ومساواة أجورهن مع الرجال .

وعلى الرغم من هذه الآمال الجسام التي تفتحت أبوابها بوازع من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فإن الأمم المتحدة تعترف في تقريرها الذي نشرته ، بانقضاء عشرة أعوام على الإعلان ، أن « الاعتراف العالمي الفعال والمراعاة الواجبة للحقوق والحريات التي ينص عليها لا يزالان بعيدين عن أن يكونا من الحقائق الواقعة ! . وأنه إذا لم 'تحتوم حقوق' الإنسان وكرامة الفرد وقدره فإن قيام السلم الدائم يغدو ضرباً من المحال ! . »

ويقول التقرير : « إن الحقوق والحريات لا يمكن أن توفرها الأمم المتحدة وحدها ، ولقد قطع أعضاء هذه الهيئة على أنفسهم العهد بأن يقوموا بهذا الواجب » ، وكان التقرير يعني على كثير من الدول الأعضاء تخلفها عن أداء العهد المسئول .

ولعمري إن الحقائق قد تكشف لكل ذي عينين عن عدوان آثم على حقوق الإنسان ، تم في عهد الأمم المتحدة ، فلم 'تراع' قراراتها ولا حفلت باحترامها كثير من الدول الأعضاء فيها .. وهذه دولة تتركب رأسها في التمييز العنصري ولا تقيم وزناً لأي انتقاد توجهه إليها أجهزة الأمم المتحدة ، ألا وهي اتحاد جنوبي أفريقيا .. بل هذه دولة تقوم أجهزة الأمم المتحدة على أرضها وهي

الولايات المتحدة وهي لا تستطيع أن تمنع مواطنيها من احتقار الملونين . .
وتحت سمعها وبصرها يصير بعض الأمريكيين على أن يمنعوا من ارتياد نزلهم
الأناس السود على حد سواء مع الكلاب . . وهذه فرنسا وانكلترا وهولاندا
تدير ربحي الحرب الضروس في آسيا وأفريقيا لمنع تحرر الشعوب من نيرها
وكان هذه الشعوب لا تدخل في عداد بني البشر الذين صدر من أجلهم الإعلان
العالمي لحقوق الإنسان . . وهذه في النطاق العربي صورة يندى لها جبين الأمم
المتحدة خجلاً من الاستهتار بمواثيقها ومقرراتها تتجلى في مليون لاجيء من
فلسطين شردتهم من أرضهم شردمة باغية، تخصصت منذ فجر حياتها في العدوان
على حقوق الإنسان، وتقبل مع ذلك هذه الشردمة عضواً في الأمم المتحدة
التي فرضت على نفسها حماية حقوق الإنسان . . وهذه حرب الجزائر وثورة
العرب في الحميات واحتلال قوى الذرة لأرض العرب برغمهم في المغرب، كلها
شواهد ناطقة بشكوى الأمم المتحدة في تقريرها بالذات على استهتار أعضائها
في نصرة الإنسان .

ولئن دعت الأمم المتحدة في تقريرها أن يعمل كل إنسان بطريقته الخاصة
على إدراك الحقوق والحريات التي نص عليها الإعلان، فيقيني أن الإنسان العربي
أول من يلبي الدعوة، وأن العرب أقدر الناس على النهوض بإعلانات ذاتي
لواجبات الإنسان العربي في تحقيق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان . .

ولقد ضرب العرب في هذا مثلاً للأمم، وكانوا أول من كفّل بإعلان
للواجبات حماية الحقوق، وهذا قائد العرب الأول محمد بن عبد الله يفاخر في
عهد النبوة، أن كان حضر في عهد الجاهلية « حلف الفضول » وقد تعاقد فيه
سادة العرب « لنكونن مع المظلوم على الظالم حتى يرد إليه حقه، ما بل بجره
صوفة، وما قام الأخشبان وما رسا ثبير مكانه، حلف أبد ل طول أمد يزيد
طلوع الشمس شداً وسواد الليل مداً... »

وهذا في مدرسة محمد : عمر بن الخطاب ينتصف لمواطن ضعيف من خصمه الذي كان أقوى الخصام ويرسل قوله المأثور : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .. وهذه الدولة العربية في أوج ازدهارها وكمال رسالتها ليس فيها إنسان لم ينل حقه ، فما فيها محتاج ولا متظلم حتى فاضت الأموال في عهد عمر بن عبد العزيز حين فاضت الأنفس طهراً وصفاء وخشية من الله ..

والحق أن العرب يوم يستكملون تحررهم ووحدتهم ويستبدون بأنفسهم كنوز أرضهم وخيراتهم ، لسوف يعودون أغنى دولة في الأرض ، فما يبذرون المال يومئذ لشراء الضمائر الوسخة وحملها على مركب الشرور ، بل ينفقون المال على حبه حيثما احتاج إليه إنسان ، حتى يستنقذوا الإنسان أنى كان ، تدفعهم إلى ذلك مروءة يتفردون بكمالها بين بني الإنسان ..

ويومئذ يسكون دفة السفينة ، سفينة البشرية المعذبة ، ويسوقونها إلى مستقر آمن على شاطئ السلام ، وهم الذين يبدؤون وينتهون باسم الله واسم السلام .. والسلام عليكم ورحمة الله .

١٩٥٨/١٢/١٠

ومثل هذا الموضوع للواسع الذي له علاقة الماسة بالإنسانية كلها يحتاج بحثه إلى محاضرات عديدة بل إلى كتب ضخمة حتى تفيد حقه . ولهذا عدت إلى اجراء بعض الفكر الاساسية من مطالعاتي اليومية ، فعدت إذا لم أت الموضوع حقه في هذه المجلة وجاء مقروصاً غير كامل .

١ - ثم عن تاريخ النزول وعن أهميته العالمية في الحداثة

الاقتصادية والعسكرية :

منذ عصور بعيدة ، كان جبال العالم القديم الذين يجرون شواطئ بحر

سياسة البترول الاستعمارية في الشرق العربي والعالم

للدكتور صلاح عمر باشا

وكيل كلية الآداب

أيها السادة ،

لا بد لي أولاً من شكر ادارة الجامعة التي آتاحت لي شرف التحدث إليكم .
وانكم تعلمون أن موضوع المحاضرة : « سياسة البترول الاستعمارية في
الشرق العربي والعالم » هو ولاشك موضوع الساعة ، بل هو موضوع كل ساعة
في جميع البلاد العربية في الشرق الاوسط منذ مطلع القرن العشرين .
كما أن الازمة التي مررنا بها والتي لما تنته بعد والتي يعيشها العالم منذ ١٤ تموز
إنما هي أزمة الاستعمار وأزمة البترول في جزء هام من العالم العربي .

ومثل هذا الموضوع الواسع الذي له علاقته الماسة بنا بل بالامة العربية
كلها يحتاج بحته الى محاضرات عديدة بل الى كتب ضخمة حتي تفهم حقه . ولهذا
عمدت الى اجتزاء بعض الفكر الاساسية من مطالعاتي اليومية ، فعذراً إذا لم
أف الموضوع حقه في هذه العجالة وجاء منقوصاً غير كامل .

١ — لمحة عن تاريخ البترول وعن أهميته العالمية في المجالات

الاقتصادية والعسكرية :

منذ عصور بعيدة ، كان جوالو العالم القديم الذين يجوبون سواحل بحر

الحزور يشاهدون على أرض شبه جزيرة أبشرون apscheron حيث تقوم مدينة باكو اليوم ، ناراً تشتعل ولا تخبو . وكانت النار في ذلك الزمن بالنسبة الى البشر شيئاً خيفاً مرعباً وغامضاً ، تمثل احدى قوي هذا العالم الواسع المملوء بالاسرار والتي تسيطر عليه عناصر الخير تارة وعناصر الشر تارة أخرى . فكانوا يرون بها سرعاً معرضين بوجوههم عن هذه النيران التي يتصاعد منها دخان أسود قائم يربط الأرض بالسماء ، ينطقون بما يشبه البسملة والتعاويذ ليمبعدوا عن أنفسهم الشر والاذى ؛ او كانوا يسجدون خشوعاً واجلالاً لأنها تتمثل لهم وكأنها مظهر من مظاهر الالهية على وجه الأرض ، تنير الليل وتقشع الظلمة الخفية . ثم جاء عهد (زرادشت) الذي رأى في هذه النار الأبدية روح النور السرمدية ، فأوجد عبادة النار المقدسة في فارس . وقد عثرت البعثات التي كانت تتحرى البترول في تلك المنطقة على آثار المعابد التي شيدت تقديساً لهذه العبادة وقادتهم هذه الآثار الى معرفة مواقع الاحواض الرئيسية .

لم تكن النار الدائمة الاشتعال ، في الحقيقة . سوى غازات ملتهبة تنبعث من أرض بيتومية التربة مخضلة بالنفط . وقد عمد فيما بعد عدد من الشعوب كالكلدانيين والفينيقيين والمصريين والرومان الى الاستفادة من هذه المادة السوداء اللزجة في طلي السفن لمنع تسرب الماء إليها وللإستشفاء من بعض الامراض المستعصية كالروماتيزم كما استخدموها فيما بعد في صنع بعض ادوات الحرب كقاذفات اللهب والحمم المحرقة ثم استعملها الصينيون القدامى في الانارة والطب .

وكان على البشرية أن تنتظر حتى عام ١٧٤١ م لترى اول شركة للبترول نألت لاستغلال عرق من النفط ضمن الرمال البيتومية قرب مدينة بيشل برون

. Pechelbronn

هذا وقد جاء في التقرير الذي نشره معهد العلوم في سان - بطرسبورغ

عام ١٨١٧ « ان النفط سائل معدني لافائدة منه ولا يمكن استعماله الا في تشحيم عجلات العربات » .

ولم يبدأ الاقتصاد البترولي الحديث باستغلال منتظم لحقول البترول الا في منتصف القرن التاسع عشر وكان ذلك من أجل استخراج مادة الكيروسين (زيت الكاز) للانارة فقط .

ثم طرأ على استعمال البترول تطور فجائي عندما بدأوا في استعماله كوقود في مراحل مولدات البخار منافساً في ذلك الفحم الحجري .
والارقام التالية تعطينا فكرة عن تطور استعمال البترول في النقل البحري قبل الحرب العالمية الثانية :

العام	سفن تستعمل الفحم %	سفن تستعمل البترول %
١٩١٤	٨٨,٨٤	٣,١٠
١٩٣٩	٤٤,٤٧	٥٣,٣٩

على ان التحول الاساسي في استعمال البترول لم يبلغ أهميته الكبرى الا بعد اختراع المحركات الانفجارية (ديزل) الامر الذي سهل أمر استخدام البترول في جميع وسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية حتى انه ليؤلف اليوم بعد الفحم في (اوروبا) المصدر الثاني للقدرة على سطح الارض .

ومن المعلوم ان انتاج القدرة من مختلف أنواع المحروقات قد تطور بين عام ١٩١٣ وعام ١٩٤٨ حسب النسب الآتية :

١٩١٣	١٩٤٨	
٧٤ %	٥٥ %	الفحم الحجري
١٧,٦ %	١٠ %	الخطب
٦ %	٢٨ %	البتترول والغاز
٢,٤ %	٧ %	الكهرباء

وإذا عمدنا الى لغة الارقام استطعنا ان نقول : كانت البترول يؤلف عام ١٩٤٨ أكثر من ٣٨٪ من القدرة المنتجة في العالم . غير ان اهميته من الناحية الاقتصادية تفوق هذا الرقم ، لان البترول مصدر ممتاز للقدرة ، يعطي اكبر كمية من الحريات بأدنى وزن . ولا يمكن الاستعاضة عن مشتقاته بالنسبة للطائرات ووسائل النقل والمواصلات البرية . هذا ولا يمكن بدونه ان نتصور الحياة الاقتصادية الحديثة وهي محرومة من شبكة مواصلات سريعة ومتفرعة . يؤلف البترول بالإضافة الى ذلك مادة اولية اساسية لصناعة كيمياوية هامة ، لانه لا يحرق خاماً كالنفط ، إنما يستخدم مقطراً ، فالفائدة منه أتم وأكمل والفضل في ذلك يعود لحدثة استعماله الذي لا يزيد على خمسين سنة .

هذا ويعتبر البترول اليوم من المواد الاساسية القليلة في العالم التي يقل العرض فيها عن الطلب ، والحاجة إلى ما تزال بازدياد مستمر رغم ارتفاع انتاجه المتواصل والجدول الآتي يبين لنا تطور هذا الانتاج بين عام ١٨٩٠ و ١٩٥٦ :

١٨٩٠	١١	مليون طن (للانارة فقط) كيوسين
١٩١٣	٥٣	« « « « «
١٩٢١	١٠٦	« هذا الارتفاع في الانتاج بسبب ظهور السيارة والطائرة
١٩٣٨	٢٨٠	« لم يعتبر الانتاج ادنى نقص رغم الازمة .
١٩٤٥	٣٥١	« « «
١٩٥٦	٨٣٩	« بما فيه انتاج الاتحاد السوفيتي .

نلاحظ من الجدول ان الانتاج في صعود مستمر ولم يتعد الحاجة والطلب بل بالعكس كان الخوف ان لا يصل الانتاج الى مستوى الاستهلاك . وبذلك لم يكن لجغرافية البترول السياسية ان تحل معضلة ايجاد الاسواق (على عكس معضلة المنسوجات والمعادن والنفط) انما كان عليها ان تحل مشكلة التمويل بهذه المادة الحيوية اي أنها كانت سياسة تسابق دولي لاحتلال مناطق البترول

واحتكارها . على أن تلكو الانتاج عن الاستهلاك والطلب لا يعود الى نقص في احتياطي البترول اذ أنه لم يسبق في تاريخ انتاج البترول حقبة كان فيها الذخر العالمي من هذه المادة أغنى منه اليوم . وهو يزداد كل يوم مع توالي الاكتشافات لاحتواؤه التي تترى بها مناطق متعددة في العالم لاسيما حقول الشرق العربي والشرق الاوسط .

على ان زيادة الاستهلاك هذه تعود الى عوامل عدة أهمها التوسع الصناعي العام والتقدم الاقتصادي في البلاد المنتجة للمواد الاولية وتعميم آلية الوسائل الزراعية وتحول الصناعة شيئاً فشيئاً عن الفحم الحجري الى النفط . هذا فضلاً عن اهميته الكبرى من الناحية العسكرية فالبترول من هذه الناحية اساس قوام :

١ - القوى البحرية : إذ يستعمل بأشكال مختلفة للغواصات والوحدات الصغيرة أو للسفن الحربية الثقيلة كالمدرعات والنسافات وكاسحات الانغام الخ ...

٢ - القوى الجوية . إذ تستعمل الطائرات نوعاً خاصاً من البنزين نسبة الأوكتان فيه عالية .

٣ - القوى البرية : إذ يستخدم البترول اليوم في الوحدات الآلية وفي النقلات السريعة في جبهات القتال . استخدمت المانيا عام ١٩٤١ في بدء الحملة الروسية ٥٥٠.٠٠٠ سيارة شحن تستهلك يومياً كمية تتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ٧٠.٠٠٠ طن من البترول .

معنى ذلك كله أن التقدم الاقتصادي في العالم وبصورة خاصة التقدم الصناعي والاستراتيجي يعتمد اعتماداً كلياً على مادة البترول . ولكي يتحقق التقدم في مختلف القطاعات الاقتصادية والعسكرية كان لابد من تحسين صناعة البترول نفسها . ومنذ ذلك الحين لم يعد ينظر إليه كإحدى صالحة للاستهلاك فقط بل أصبح الشرط الأساسي لإمكان تحقيق مختلف أنواع الانتاج حتى أصبح صناعة قائمة بذاتها . وغدا

النفط موضوع صراع بين الأمم لأنه أصبح العصب الحساس لحياة الحرب كما هو لحياة السلم وهذا ما أخرجه من مرحله الاستثمار الحر التي كانت تقوم بتحقيقها شركات كبرى إلى مرحلة الاستثمار البترولي والتنافس العالمي . مما حدى الشركات الاحتكارية على زيادة نشاطها في الحصول على امتيازات جديدة للتجري والتنقيب والاستثمار وفي توسيع منشآتها للتصفية والتكرير ، وفي تشييد انابيب البترول وزيادة حجم ناقلات الزيت . ولا بد لتحقيق ذلك من الحصول على امتيازات اقتصادية يدعمها النفوذ السياسي والعسكري .

٢ — ولكن ماهي أهمية البترول العربي وبترول الشرق الأوسط بالنسبة إلى الضرر والانتاج العالميين .

إذا مادققنا جداول الإحصاء الخاصة بالبترول نلاحظ أن الانتاج العالمي في صعود مستمر كما قدمنا وأن هذا الانتاج ارتفع عام ١٩٥٦ إلى ٨٣٩ مليون طن . ويتوزع هذا الانتاج على خمس مناطق كبرى بشكل متفاوت :

المنطقة الاولى من حيث اهميتها الانتاجية هي المنطقة الاميركية المؤلفة من الولايات المتحدة الاميركية وكندا وفنزويلا وبقية بلدان امريكا اللاتينية . تنتج هذه المنطقة مايقرب من (٥٠٠) مليون طن أي مايساوي ٦٨٪ من الانتاج العالمي . وتتوزع حقول البترول الاميركية توزيعاً حسناً من وجهة نظر استراتيجية .

المنطقة الثانية هي منطقة الشرق الأوسط التي تضم المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين وقطر ومصر والعراق وايران . انتجت هذه المنطقة عام ١٩٥٦ « ١٦٠ » مليون طن أي مايساوي ٢٠٪ من الانتاج العالمي للبترول . المنطقة الثالثة من حيث الاهمية هي منطقة الدول الاشتراكية أو ما تدعى

بكتلة الاتحاد السوفيتي والمؤلفة من الاتحاد السوفيتي ورومانيا وهونغاريا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والصين . يرتفع انتاج هذه المنطقة الى ٨٥ مليون طن أي مايساوي ١٠٪ من انتاج البترول في العالم . غير أن أحواض هذه المنطقة تتركز وتتحصر في اماكن معينة مما يجعلها في خطر من الناحية الاستراتيجية .

المنطقة الرابعة هي منطقة الشرق الاقصى وقوامها اندونيسيا ، وبورنيو واليابان والهند وغينيا الجديدة وباكستان وبرمانيا . وهي فقيرة نسبياً إذ لا يتجاوز انتاجها ٢٠٤٪ من الانتاج العالمي .

المنطقة الخامسة هي منطقة اوروبا الغربية المؤلفة من المانيا وهولندا ، وفرنسا وإيطاليا وانكلترة ، يضاف إليها مناطق المغرب أي مراكش والجزائر . وهي أفقر المناطق بالبترول إذ لا يتجاوز نسبة إنتاجها السنوي ٠٦٪ من الانتاج العالمي .

نلاحظ من هذا التقسيم أن منطقة الشرق الاوسط وبصورة خاصة البلدان العربية تأتي بالدرجة الثانية من حيث الانتاج اليوم . وإذا ادركنا ان بعض أقاليم هذه المنطقة مثل مصر واليمن لم تزال مجهولة من حيث الانتاج فيها لاسيما في اليمن حيث قام مؤخراً بعض الخبراء الالمان باكتشاف بعض حقول النفط مؤكدين انها أهم واغزر من آبار العربية السعودية . وكان من المقرر أن يبدأ حفر الآبار اعتباراً من خريف عام ١٩٥٢ . وقد اتفق على مشكلة تمويل استخراج البترول على الشكل الآتي : تساهم الشركة الالمانية بنصف التكاليف أما النصف الآخر فتساهم به الدولة اليمنية نفسها .

هذا وقدر الخبراء أن الشرق الاوسط سينتج أكثر من ٣٥٠ مليون طن من البترول عام ١٩٦١ وسيوقع هذا الانتاج الى مايقرب من ٣٠ مليون طن عام ١٩٦٦ .

أما في الوقت الحاضر فإنتاج الشرق الاوسط بالنسبة الى الانتاج العالمي للبتروول فلا يتجاوز ٢٠ ٪ تقريباً .

هذا من حيث الانتاج أما إذا قارنا الذخر البتروولي في الشرق الاوسط بالنسبة الى الذخر العالمي لطلعنا بنتائج مدهشة . وذلك لان الاحتياطي ، حسب تقدير الخبراء يؤلف في هذه المنطقة في حدود معلوماتهم اليوم ٦٥ ٪^(١) من الذخر العالمي غير أن هذا الذخر ليس ثابتاً بل هو قابل للزيادة كما هو الحال في الانتاج . لاسيما وأن مناطق كبيرة من بلاد العرب لم تجر فيها إلا تحريات بسيطة أولية^(٢) . واثنا نعلم أن أكثر حقول البتروول في الشرق الاوسط لم تكتشف إلا خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة وانه خلال ثلاث سنوات فقط أي من عام ١٩٤٩ الى ١٩٥٢ ترايد الذخر في هذا الاقليم من ٤٢ الى ٦٥ ٪ بالنسبة الى الذخر العالمي . وتحتجز منه البلاد العربية في الشرق الاوسط ما يقرب من ٥٠ ٪ .

وإذا اضفنا إلى كل ذلك أن آبار الشرق الاوسط تمتاز بالنسبة الى آبار البتروول في العالم بقدرة انتاجية عالية بسبب بنيتها الجولوجية الملائمة مما يجعلها غزيرة الانتاج فضلاً عن سهولة استخراج البتروول منها وقربها من شواطئ البحر . واخيراً علينا أن لا ننسى رخص اجور اليد العاملة في المنطقة وحرمانها من أي نوع من انواع التأمين الاجتماعي .

وقد جاء في النشرة الاحصائية الشهرية التي صدرت منذ عدة اشهر أن (١٦٢) مليون طن من اصل (٣٠٠) مليون طن التي تقوم عليها تجارة البتروول في

(١) لقد قدر الاحتياطي العالمي للبتروول بما يقرب من (٣٦) مليار طن يحتبس الشرق الاوسط منه (٣٢) مليار طن .

(٢) ان الاراضي التي جرى تحريها لم تتجاوز حتى اليوم ٣٤٠٠٠٠٠ كم^٢ بينما تقدر الاراضي الرسوبية المؤمل وجود البتروول فيها بـ ٢٠ في الشرق الاوسط .

العالم انما تنتجها منطقة الشرق الاوسط . كما نقلت وكالة الصحافة الفرنسية الايضاحات التالية التي وردت في النشرة الشهرية الاحصائية المذكورة :

ان ٥٠٪ من اصل البترول الوارد من الشرق الاوسط انما يمر بقناة السويس .
و ١٠٪ من هذا البترول تنقله خطوط البترول التي تنتهي في صيدا (aramco)
٧٪ ينقل بواسطة الانابيب التي تنتهي في بانياس (أي بي سي)
٥٪ ينقل بواسطة الانابيب التي تنتهي في طرابلس (اي بي سي)
وبعملية حسابية نرى أن ٧٢٪ من بترول الشرق الاوسط يمر باراضي الجمهورية العربية المتحدة .

هذا ويصدر البترول الخام الوارد من منطقة الشرق الاوسط على الشكل التالي :

٦٠٪	الى أوروبا الغربية
١٢٪	الى امريكا الشمالية
١٥٪	الى الشرق الاقصى
٨٪	الى دول الشرق الاوسط
٥٪	الى دول متفرقة

لنتصور الآن أوروبا الغربية وقد حُرمت فجأة من بترول الشرق الأوسط قبيل تمكّنها من استغلال الطاقة الذرية فماذا يحدث ؟ سؤال طرحه الكاتب ريمون آرون في كتابه « espoir et peur du siècle » وأجاب عليه : ستقوم في أوروبا أزمة تكون نتائجها أعنف بكثير من تلك التي تنتج عادة عن أزمات فرط الإنتاج (١٩٢٩) .

إن هذه الأهمية البالغة لبترول الشرق الاوسط وبصورة خاصة لبترول العالم العربي بالنسبة إلى أوروبا الغربية أولاً وبالنسبة إلى الاحتكارات البترولية

الكبرى ثانياً التي تجني أرباحاً جنوبية طائلة من امتيازاتها في بلادنا ونهب ثرواتنا هي التي تفسر لنا حركة تكالب هذه السياسة الاستعمارية التي ينتهجونها ويعملون على تحقيقها بمختلف الوسائل ، تارة بشراء ضباط الطبقة الحاكمة خادمة الاستعمار وعميلته ، وبافساد اخلاق الشعب والوقوف في طريق تطوره ومعاكسة كل خطوة يخطوها نحو التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وتارة بالمؤامرات الدنيئة المتتالية القائمة على الغدر والخيانة وتارة أخرى بالتهديد والوعيد وحشد الجيوش وتحريك الاساطيل وأخيراً باللجوء الى القوة والعنف .

غير اننا لن ندرك كنه سياسة الاستعمار هذه التي تجري في بلادنا اذا لم نلم بالسياسة العالمية للبترول وبالعلاقة الوثيقة التي تربط الاحتكارات البترولية الكبرى بالحكومات الاستعمارية القائمة على رأس الدول الرأسمالية .

وسنرى كيف على ضوء هذه السياسة العالمية للبترول تتجلى لنا بكل وضوح جميع أساليب الاستعمار وتظهر لنا أهدافه القريبة والبعيدة في منطقة الشرق الاوسط عامة وفي بلادنا العربية بصورة خاصة .

٣ — السياسة العالمية للبترول

في مركز الاعمال التجارية في لندن أي في « السيتي » كما هي الحال تماماً في « الويل ستريت » في نيويورك نجد الاعمال المصرفية الكبرى والبترول وصناعة اسلحة الحرب والتجسس والديبلوماسية جميعها تتضافر وتعاون على دعم الاستعمار اينما كان وعلى بسط سلطانه ومد نفوذه . حتى أصبحت سياسة الشركات الاحتكارية الكبرى للبترول في البلدان الرأسمالية تتماشى وتندمج مع سياسة حكوماتها للاستيلاء على الاحواض الرئيسية لهذه المادة الثمينة .

إن هذا الارتباط الوثيق بين الاحتكارات البترولية الكبرى والسياسة

ظهر بوضوح في سياستي الولايات المتحدة وبريطانيا منذ مطلع القرن العشرين وبلغ أوجه خلال الحرب العالمية الثانية ولم يزل يشتد وينمو حتى اليوم . حتى اننا لنستطيع القول إن سياسة الولايات المتحدة وانكلترة في الشرق الاوسط إنما هي تعبير واضح لسياسة الستاندارد أويل والرويال - دودتش - شل وفروعها المتعددة .

في انكلترة: ان الدافع الاول لهذه السياسة كان الاميرال فيشر Fisher الانكليزي الذي شعر بأهمية البترول بالنسبة لمستقبل الاسطول البريطاني الحربي والتجاري وكانت غاية هذه السياسة وضع اليد على أحواض النفط لتأمين تامين الاسطول بالبترول كما كانت الحال في زمن الفحم . فكانت النتيجة ان تحولت الشل الى شركة بترول تستغل أحواض بورنيثو ثم اتحدت عام ١٩٠٣ مع الشركة الهولندية رويال - دوتش التي كانت تستغل أحواض جاوا وسومطره . ودعمت الحكومة البريطانية هذه الشركة في جميع المجالات : دعمتها في المكسيك حيث استطاعت أن تحتكر جميع أحواض البترول المكسيكية حتى عام ١٩٣٦ ودعمتها في فنزويلا وبلاد الشرق الاقصى (برمانيا) كذلك مدت الحكومة الانكليزية يد المساعدة لهذه الشركة ودعمتها دبلوماسياً في مجالات متعددة في أوروبا وأمريكا نفسها . دعمتها في رومانيا حتى عام ١٩٤٠ ، وفي فرنسا حيث استطاعت بريطانيا عام ١٩٢٣ أن تنتزع وعداً من فرنسا باعطاء الشركة امتيازات لاستغلال البترول في المستعمرات الفرنسية ، كما نالت الشركة عملياً عام ١٩٥٠ امتيازات هامة في افريقية الشمالية (لاسيا في القسم الجنوبي من تونس) وفي المناطق التي يظن أنها تحتوي على البترول وذلك من غير مراعاة للمصلحة القومية الفرنسية . ولم تعتمد بريطانيا المساعدة سوية للخلاص من فرنسا إلا لتترك للشركة المجال الواسع لوضع يدها على بترول العراق بكامله .

هذا وقد بدأت ترسم سياسة الاستعمار البترولية البريطانية بصفة رسمية

عندما تأسست الشركة الانكليزية - الايرانية عام ١٩٠٩ وذلك باندماج شركة بورما للزيت وشركة الانكلو - برسيان (الانكليزية - الفارسية) التي كانت الحكومة البريطانية تمتلك بعض اسهمها وكونتا شركة واحدة سميت الشركة الانكليزية - الايرانية ، للحكومة البريطانية ٥٦ ٪ من الاسهم . مهمة هذه الشركة احتكار استغلال البترول في الشرق الاوسط . ولذا كانت الحكومة الانكليزية تضغط على ايران لمنعها من منح امتيازات لدول أخرى للتجري أو لاستغلال البترول في قسمها الشمالي (صراع عنيف ضد ألمانيا حتى ١٩٣٩ . ثم ضد الاتحاد السوفيتي الذي اقترح على ايران عقد معاهدة يتقاسمان بموجبها مناصفة بترول آزر بايجان الايرانية) . وحفاظاً على هذه المصالح البترولية الانكليزية فقد قضي مرات عديدة بالحديد والنار على الحركات الكردية الأزر بايجانية التي قامت في ايران . كل ذلك من أجل (٢,٥) مليون جنيه سنوياً كانت تدفعها الشركة للحكومة الايرانية . (قبل ثورة مصدق) .

هذا وقد نالت الشركة الانكليزية - الايرانية بالإضافة الى امتيازاتها في فرنسا وافريقية الشرقية وسيلان امتيازات هامة في البلاد العربية : في العراق (الشركة العراقية ، شركة نفط الموصل ، شركة نفط البصرة) والكويت ٥٠ ٪ وفي قطر وعمان ووظفار وعسير والحجاز وسورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر ، حتى أن الشركة الانكليزية - الايرانية التي تملك الحكومة البريطانية كما قدمنا ، ٥٦ ٪ من أسهمها أصبحت تسيطر على ٢٤,٧٢٥ ٪ من مجموع البترول العربي و ٦,٦٧٥ ٪ تسيطر عليه شركة رويال دوتش - شل الانكليزية أيضاً وبذا تصبح حصة الشركات الانكليزية في البترول العربي حوالي ٣١,٤ ٪ .

وهكذا نرى أن السياسة الانكليزية إنما هي سياسة احتكار لمنابع البترول العالمية وسياسة تفاهم وتحالف مع شركات البترول الكبرى . وبذا تمكنت انكسرة من حيازة عدة أحواض بترولية خارج امبراطوريتها كما استطاعت

أن تؤمن حاجاتها وحاجات الدومينيون وتبيع كميات فائضة كبيرة لمعظم دول العالم . ويعتبر امتلاك بريطانيا لمنابع النفط من أقوى روابط التضامن الامبراطوري والانكليزي .

في الولايات المتحدة : أما الولايات المتحدة فقد حزت في سياستها البترولية حزو انكلترة ولكن بتأخر (٣٠) سنة . رغم ذلك فقد سجلت عدة نجاحات في هذا المضمار بسبب الحربين العالميتين .

- قبل ١٩١٤ كانت الولايات المتحدة دولة مصدرة للبترول (تصدر ١٣٪ من انتاجها عام ١٩١٣) ولذا لم تكن تخاف نفاذ البترول من أراضيها ، انما كانت منهمكة بنضالها ضد شركة الستاندرد أويل (جماعة وكفلر) لتمنع احتكارها للسوق الداخلية للولايات المتحدة (دعاوى متعددة على شركة الستاندرد أويل مستندة على القانون الصادر ضد الشركات الاحتكارية الكبرى) كذلك ساعدت الحكومة الاميركية شركة شل الانكليزية على دخول الولايات المتحدة ومنافسة الستاندرد أويل في عقر دارها .

- في فترة ما بين الحربين بدأت سياستها في التحول ، فصادراتها البترولية أخذت تهبط منذ عام ١٩٢٠ وأصبحت تخشى نقصان البترول في أراضيها كما بدأت تطمع في الاستيلاء على بعض الاحواض الخارجية . فاختصت نفسها بحجز من بترول العراق (حصة المانيا) وسعت لجعل الاتحاد السوفيتي يتخلى عن احواض جزيرة سخالين .

وعندما بدأ روزفلت بتطبيق سياسته الجديدة المسماة Le Neu deal عهد صراحة الى اتباع سياسة بترولية استعمارية .

ففي داخل الولايات المتحدة أراد الابقاء على الذخر الموجود أطول مدة

ممكنة فاتخذ اجراءات ضد التبذير واعتبر احواض البترول البيتومي في المناطق الغربية عبارة عن مستودعات طبيعيه حين الضرورة .

اما في السياسة االخارجية فقد دعم شركات البترول الكبرى في توسعها؛ فهو الذي اعطاها امتيازاتها في البحرين وفنزويلا وفي المملكة العربية السعودية وفي مصر . كما دعم سياسة هذه الشركات في المكسيك ، وبذا أصبح للولايات المتحدة سياسة بترولية عالمية عملت الحرب العالمية الثانية على توسيعها بسبب الحاجات العسكرية ومنحها أقوى الوسائل .

— وفي اثناء الحرب العالمية الثانية استفادت الولايات المتحدة من الظروف الطارئة فانشأت مؤسسة خزن البترول Petroleum Reserve Corporation وهي نموذج لمؤسسات الدول الرأسمالية . قامت هذه المؤسسة على اشتراك رؤوس الاموال الخامة (شركات البترول) مع رأس مال حكومي . وتدار عملياً من قبل الشركات الاحتكارية للبترول التي تستخدم بهذه الوسيلة سلطة الدولة بكاملها . وكانت غاية المؤسسة :

- ١ — الحصول على البترول من خارج أراضي الولايات المتحدة ثم جمعه وبيعه .
 - ٢ — تمثيل المصالح الاميركية في المنافسات الدولية من أجل البترول .
- وقد نظمت هذه المؤسسة بالاتفاق بين الشركات الاحتكارية المشتركة برأس المال وبين الحكومة الاميركية التي لها رآسة المؤسسة وثلاثة أعضاء في مجلس ادارتها ينتقون من الوزراء .

— فالسياسة الاميركية إذن هي أيضاً سياسة تحالف مع الشركات الاحتكارية للبترول . وقد أخذت دعايات هذه المؤسسة تنادي بقرب نزوب احواض البترول الاميركية (خلافاً لرأي الفنين) لتجعل من ذلك ذريعة لبسط سيطرتها الاستعمارية حتى على البلدان التي ينقصها البترول كفرنسا مثلاً (استفادت

الشركات الاميركية الكبرى من مشروع مارشال فحصلت على امتياز لاحتكار التحري عن البترول واستغلاله في جزء كبير من افريقيا الشمالية كما حصلت على امتياز استغلال البترول ايضاً في قسم كبير من حوض اكينانيا الغربية حيث اجري الفنيون الفرنسيون تحريات مشجعة .

وهكذا عملت الولايات المتحدة على الاقامة في كل مكان تستطيع دخوله ، فاستفادت مثلاً من الضائقة التي وقعت فيها انكلترة بسبب الحرب فاشتدت في الولايات المتحدة نفسها قبل قانون الاعارة والتأجير معظم المصالح الانكليزية . كذلك استفادت في فنزويلا من عجز الانكليز (بسبب الحرب) عن القيام بما توجبه القوانين المحلية الجديدة . وفي المملكة العربية السعودية استحصلت على معظم الاحواض التي خبرتها البعثات الاميركية وتنازلت عنها انكلترة . وضمت في العراق بالاضافة الى حصتها ، ٢٣ و ٧٥ ٪ ، جزءاً من حصة انكلترة بفضل قانون الاعارة والتأجير ، كما اتفقت مع الانكليز على حرمان فرنسا من الاشتراك في توسيع استغلال البترول العراقي وهذا رغم أن الحقوق الدولية . كذلك حصلت في ايران (بعد ثورة مصدق) على بعض الامتيازات .

نرى بما تقدم ان الولايات المتحدة قلبت الوضع السابق رأساً على عقب كما انقلبت سياسة انكلترة البترولية وبالأعلى عليها واصبحت الولايات المتحدة تسيطر الآن على ٦٢ و ٤٢٥ ٪ من البترول العربي . بينما لم يبق لفرنسا سوى حصة صغيرة تساوي ٦ و ١٧٥ ٪ فقط .

— أما بقية الدول الفقيرة برووس امواها كإيطاليا واليابان أو التي تأخرت عن الركب كفرنسا والمانيا فقد عمدت اما الى سياسة الضمان والتأمين (استغلال الاحواض التي تقع تحت سيطرتها وتجهيز صناعة استخراج البترول التريكمي وبناء المصافي وموانيء التخزين) وإما الى اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي وذلك حتى لا تقع تحت رحمة شركات البترول الانكليزية والاميركية .

ردة الفعل لسياسة الاحتكار النفطية في البلدان المنتجة للبتروول

ادى هذا الاستغلال البشع المحرب ، من قبل الاحتكارات العالمية الكبرى لاحواض البترول في البلدان المنتجة الى قيام ردة فعل قوية على اساس من القومية والاشتراكية .

١ - فالاتحاد السوفيتي هو الذي بدأ بتطبيق النظام الاشتراكي على مشاريع استغلال البترول بعد ان ابطال جميع امتيازات الشركات الاجنبية داخل بلاده وكانت في معظمها شركات انكليزية . وتقوم سياسة الاتحاد السوفيتي البترولية اليوم على الاسس التالية :

أ - استغلال الثروات القومية للاتحاد في نطاق برامج السنوات الخمس . وذلك بالاكثر من مناطق الاستغلال وتوسيع نطاق التحري الى أقصى ما يمكن .

ب - باستيراد ضئيل للبتروول من رومانيا التي تدفع من انتاجها للبتروول ثمن أدوات واولئل الاستخراج الحديثة التي قدمها لها الاتحاد السوفيتي . وقد بقي الاتحاد السوفيتي بسبب اقتصاده الاشتراكي خارج دائرة النزاع العالمي على البترول .

٢ - هذا وقد أدى الغاء المصالح الرأسمالية في بلدان الديمقراطيات الشعبية الى طرح مشكلة استيراد هذه الدول للادوات والآلات الضرورية لصناعة البترول والتي لا تستطيع صنعها بنفسها . وحلت هذه المشكلة بانشاء شركات مختلطة يشترك فيها الاتحاد السوفيتي بنسبة النصف ، وبشكل يجعل ادارة الشركة قائمة على التفاهم لاعلى التبعية . على ان هذه الشركات (وهذا هو المهم في الامر)

تابعة لادارة برامج الخمس سنوات للبلد التي هي فيه وتعمل لصالح البلد نفسه لا لصالح دولة استعمارية بعيدة كما هي حال الشركات التابعة للاحتكارات العالمية .

٣ - لقد اتبعت المكسيك سياسة مماثلة بسبب النزاع الذي تفاقم بينهما وبين الشركات الاحتكارية العالمية ، غير ان هذه السياسة أحبطت بسبب المؤامرات الاميركية واستسلام الحكومة المكسيكية التي لم تدعمها دولة صناعية كبرى فخفضت ثانية لادارة الشركات الاحتكارية .

٤ - اما فنزويلا فلقد اتبعت سياسة فيها كثير من الليونة والمسايرة للاستعمار غير انها ضمنت فوائد عاجلة منذ عام ١٩٤٣ وذلك :

أ - بفرض رسوم على اصدار البترول وضرائب متعددة على انتاجه .
ب - بالعمل والسعي على مكافحة التبذير ، اذ لم تمنح الامتيازات الجديدة إلا بشروط قاسية وكثيرة التكاليف كضرورة الاستغلال ضمن مدة معينة مع واجب التوسع السريع بما يضمن لفنزويلا دخلاً كبيراً متزايداً .

ج - واخيراً باجبار الشركات المستغلة على تصفية البترول ضمن اراضي فنزويلا .
٥ - اما منطقة الشرق الاوسط لاسيما البلدان العربية التي تعاني في الحاضر ازمات شتى مرداكثرها الى العامل الاقتصادي ، فقد اخذت حكوماتها تطالب في السنوات الاخيرة الشركات صاحبة الامتياز باعادة النظر في الاتفاقيات المتعلقة بتقسيم الارباح بغية تخصيص قسم هام للانماء الاقتصادي . وكانت المملكة العربية السعودية في طليعة البلاد التي توصلت الى عقد اتفاقية التقسيم النصفى للارباح « كانون الاول ١٩٥٠ تم تلتها بقية الاقطار العربية .

واخيراً عندما زال الحلف الانكليزي - الايراني اثر بيان ٥ آب عام ١٩٥٤ حصلت ايران على اتفاقية التقسيم النصفى للارباح أيضاً .

٤ - التضخم الهائل في رأس مال شركات البترول الأمريكية :

من المضاعفات الهامة التي نشأت عن احتكار البترول العالمي من قبل عدد ضئيل من الشركات الاميركية والانكليزية، احتكار يمتد من مرحلة الاستخراج الى مراحل النقل والتكرير والتوزيع وفرض الاسعار، ان نما رأس مال هذه الشركات نمواً هائلاً مخيفاً لاسباب في فترة ما بين الحربين وغلبت الحرب العالمية الثانية، ولنضرب على ذلك مثلاً شركة ستاندارد أويل التابعة لاسرة روكفلر. لقد كان الدخل السنوي لهذه الشركة عام ١٨٩٠ لا يتجاوز « ١٠ » ملايين دولار وكانت اعمالها محدودة ضمن اراضي الولايات المتحدة وبقيت كذلك حتي الحرب العالمية الاولى حيث ارتفع الدخل السنوي لهذه الشركة عام ١٩١٧ الى « ١٠٠ » مليون دولار. وقد ردت الارباح الصافية لروكفلر خلال الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٧ بـ « ٥٠٠ » مليون دولار.

ثم اخذت الشركة بعد الحرب تتطلع الى مد نفوذها خارج الولايات المتحدة وتوظيف الفائض من رأل المال في حقول البترول في اميركا اللاتينية وبلاد الشرق الاوسط وذلك بالرغم من معارضة بريطانيا واثماناً كثيرة على حساب مصالحها الحيوية. كما عمدت الشركة الى فتح مراكز واسواق لبيع البترول في جميع انحاء العالم.

ثم اصبح استهلاك البترول أثناء الحرب العالمية الثانية شيئاً اساسياً في الحرب وفي الصناعات الكيماوية للانتاج الحربي. فازدادت الارباح حتى بلغت في الفترة بين ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ما يقرب من « ٢ » مليار دولار. وغدت شركة ستاندارد أويل التابعة لروكفلر، والتي لم تكن تمتلك غلب الحرب العالمية الاولى شيئاً من الامتيازات البترولية في البلدان الاجنبية، غدت تحتكر مع

حلفاء ما يقرب من ٢/١ استخراج البترول في العالم الراسمالي . اذ بلغت حصتها في أحواض فنزويلا ٨,٦٧٪ وفي أحواض الشرق الاوسط ٨,٥٥٪ .

وهكذا فقد أصبحت شركات البترول الاميركية الدعامه الاساسية للاستعمار الاميركي . حتى ان توظيف رؤوس الاموال الاميركية في البلدان الاجنبية كان بنسبة ٣/١ في الصناعة البترولية . فالارباح الطائلة التي تجنيها شركة ستاندارد اويل اوف نيوجرسي التي تعتبر المؤسسة الرئيسية لروكفلر تأتي بنسبة ٣/١ من الخارج . فشركة البترول العربية — الاميركية Aramco مثلا التي تعمل في المملكة العربية السعودية والتابعة لجماعة روكفلر بلغت ارباحها لوحدها عام ١٩٥٥ « ٥٨٠ » مليون دولار .

ان يمكن توظيف هذا الشلال من الدولارات الآتية من ارباح البترول؟ لقد كانت الاحتكارات البترولية الكبرى في اميركا ادري الناس بان الولايات المتحدة مقبلة لاحالة بعد الحرب العالمية الثانية على ازمه اقتصادية خانقة « فيض في الانتاج » . فلما تنقذ نفسها من مثل هذه الازمة عمدت الى توظيف الفائض من رؤوس أموالها في صناعة لا تكسد اسواقها في الدول الرأسمالية هي صناعة الاسلحة الحربية ولا سيما صناعة السلاح الذري التي تدر أموالاً طائلة بالنسبة لرأس المال الموظف فيها .

وهكذا لم تكد الحرب العالمية الثانية تقارب نهايتها حتى نرى مؤسسة روكفلر وبنوك (مورغان) و (ديبون) وبعض الاحتكارات الاميركية الكبرى تضع يدها على هذه الصناعة الجديدة التي بدأت تنمو خلسة في الولايات المتحدة .

لقد اخذت شركات البترول الاميركية منذ ذلك الوقت بتوجيه اهتمامها نحو السياسة الخارجية للولايات المتحدة وقد استطاعت فعلا تسيير هذه السياسة

حسب مصالح الاحتكارات البتروولية تماماً وتمكنت من تنصيب رجالها في المراكز الحساسة في وزارتي الخارجية والدفاع . حتى ان معظم الخبراء الذريين الناطقين باسم حكومة الولايات المتحدة لم يكونوا في الحقيقة سوى عملاء لشركات البترول يعملون لحسابها ولا سيما لحساب شركة الستاندارد اويل أوف نيوجرسي التابعة لروكفلر ، والتي كان لها حصة الاسد في هذه الصناعة .

فوزير الخارجية نفسه جون فوستر دلاس كان يشغل منصب رئيس مجلس ادارة مؤسسة رو كفلر ، وأخوه آلن دلاس الذي يقوم حالياً على رأس مصلحة الاستخبارات السرية للولايات المتحدة كان محامي مؤسسات رو كفلر . كما ان الاميرال رادفورد الرئيس السابق لرؤساء اركان الجيش الاميركي هو الصديق الصدوق لرو كفلر . ثم نلسون رو كفلر الاخ الثاني لاسرة رو كفلر أصبح الآن ماحقاً خاصاً ومستشاراً للرئيس ايزنهاور نفسه .

هذا ويمكن ان نعدد اسماء كثيرة من موظفي شركة الستاندارد اويل ممن تسلموا الاعلا المناصب الحساسة في السياسة والدفاع في الولايات المتحدة . فأوجه مورفري E ger Murphree رئيس لجنة التمهيج لصنع القنبلة الذرية والمساعد الخاص في وزارة الدفاع الاميركية كان مديراً لشركة الستاندارد اويل . ثم إن شستربنار مستشار وزارة الخارجية لشؤون القنبلة الذرية كان رئيساً لمؤسسة رو كفلر . كما أن لويس ستراوسس Lowis strauss الذي كان حتى مدة أشهر تقريباً رئيس لجنة الطاقة الذرية للولايات المتحدة كان يشغل منصب المستشار المالي للاخوان رو كفلر . وماريون بوايه Marion Boyer المدير العام السابق للجنة الطاقة الذرية كان مديراً لشركة الستاندارد اويل اف نيوجرسي .

واخيراً وليس آخراً روبرت لوبارون Robert Le Baron رئيس اللجنة العسكرية وضابط التنسيق للشؤون الذرية هو عضو في ادارة الستاندارد اويل أوف كاليفورنيا .

إني أبغي من تعداد هذه الاسماء بيان العلاقة الكبرى بين سياسة الولايات المتحدة التي جمعت أساطيلها أمام الموانئ اللبنانية وانزلت جنودها يوم ١٥ تموز ١٩٥٨ وبين مصالح شركات البترول الأميركية . لقد خاطر هؤلاء الأشخاص الذين يمثلون أقطاب السياسة الأميركية بزج الولايات المتحدة والعالم بأسره في حرب مدمرة لا يعلم أحد مداها في سبيل الحفاظ على مصالح شركات البترول الأميركية . حتى أن بعض الصحف الأميركية نفسها قالت : أن التدخل في الشرق الأدنى لم يكن مدفوعاً إلا من جماعة وكفار التي وظفت في هذه المنطقة مبلغ مليار ونصف من الدولارات في حقول البترول وأتابيب الزيت والتي تأمل أن تجني في السنوات القريبة أضعاف أضعاف هذا المبلغ .

إن نفس الدوافع التي حملت الولايات المتحدة على انزال جنودها في لبنان متحدة في ذلك كل منطق والرأي العام العالمي هي نفسها التي حملت انكساراً أيضاً على انزال جنودها في الأردن . إذ لم تكذب ثورة العراق حتى تضافت أربع قوى في بريطانيا ، لها جميعها علاقة ماسة بالبترول العربي أو بكلمة أوضح بشركة البترول العراقية التي كانت تحكم العراق حتى ١٤ تموز ١٩٥٨ .

أولى هذه القوى هي الاحتكارات البترولية الانكليزية ممثلة بالشل وبالشركة البريطانية للبترول والتي كانت تسمى بشركة الزيت الانكليزية ، غايتها الإبقاء على أحواض البترول في العراق ضمن دائرة نفوذها . ويقوم على رأس الشل أصحاب البنوك أمثال صامويل وروتشيلد ومجموعة البنوك الهولندية وفرع بنك مورغان الأميركي في لندن . إن هؤلاء هم نواة « السيتي City » في لندن ، ومن المعلوم أيضاً كما قدمنا سابقاً أن الحكومة البريطانية هي إحدى أصحاب الشركة الانكليزية للبترول وشريكة شركة البترول العراقية .

— تتمثل القوة الثانية بالمدرسة العسكرية الاستعمارية في انكساراً التي

لم يزل فيها رmq من حياة والتي لا تستطيع أن تتصور مستقبل بريطانيا بعيداً عن طريقة النهب الاستعمارية . ومنذ أن اشترت الاميرالية البريطانية (قبل الحرب العالمية الاولى) بايعاذ من تشرشل جزءاً من أسهم الشركة الانكليزية الايرانية للزيت ، دخلت الاوساط العسكرية الرجعية في نطاق سياسة الاحتكارات البترولية . ولعدد كبير من كبار الضباط علاقة وثيقة بهذه الشركات . ف رئيس مجلس ادارة شركة البترول العراقية هو في الوقت الحاضر الاميرال كوينفهام الرئيس السابق لهيئة الاركان البحرية وقائد الاسطول البريطاني في البحر الابيض المتوسط ويقوم على ادارة الشركة نفسها الفيلدارشال اللورد آلن بروك الرئيس السابق للهيئة العامة للاركان البريطانية كما يقوم على رأس شركة الشل ماريشال القوى الجوية سابقاً جون سالمون .

يمثل هؤلاء الضباط العسكرية البريطانية التي نشأت ودرجت على مدرسة الاستعمار وفق خطة وآراء كبار المستعمرين البريطانيين أمثال كيبلمنغ وكورزون و كيتشنر . هذا وتؤلف هذه الاوساط العسكرية اليوم بالإضافة الى الناحية العقائدية التي لا يمكنها أن تتصور انكتره من غير امبراطورية استعمارية في آسيا وأفريقيا ، أقول بالإضافة الى هذه الناحية العقائدية فانها تؤلف طبقة لها مصالحها الآنية في استغلال البترول العربي .

أما القوة الثالثة التي دفعت انكتره على الاعتداء على البلاد العربية مرتين في هذه الفترة القريبة فتتمثل بمدرسة لورانس الاستعمارية أي جماعة « الانتليجانس سرفيس » الذين لهم أثرهم الكبير على الاوساط العسكرية والاستعمارية في انكتره كما ترتبط هذه القوة الثالثة بعلاقة وثيقة مع شركات البترول في الشرق الاوسط وبصورة خاصة مع شركة البترول العراقية .

وقد مثل هذه القوة قديماً الكولونيل لورانس المشهور وتبعه بعده كثيرون

كانوا دائماً الساعد الايمن للأسرة الهاشمية ومنهم من حكم العراق فعلا مدة طويلة تحت ستار المستشارية أو كانوا مدراء لشركات أو مصارف ترتبط كلها ارتباطاً وثيقاً بشركة البترول العراقية .

كان جميع هؤلاء وأتباعهم يتقاضون رواتب ضخمة من شركة الشل وشركة البترول الانكليزية . وبجهودهم تمكنت الاسرة الهاشمية من الحصول على حصة من أرباح شركة البترول العراقية وأصبح الامير زيد ابن الحسين ، سفير العراق السابق في لندن ، أحد مدراء هذه الشركة ،

كما أن ممثل شركة البترول العراقية في بغداد السير هربرت Herbert. j.todd كان يمول حتى يوم ١٣ تموز جميع حاشية البلاط الملكي من الوزراء حتى صغار رجال الحرس . ولم تكن الوزارة العراقية (وزارة نوري السعيد) لتستطيع اتخاذ أي قرار هام قبل موافقته المسبقة .

وربما يكون من الفائدة ان نشير الى ان مويريس ما كميلان ابن رئيس وزراء حكومة صاحبة الجلالة ، يشغل اليوم رئاسة وكالة استعمارية في لندن تدعى وكالة الصحافة العربية . كما أن عم مويريس ما كميلان هذا هو اللورد هارلك Harlech من زعماء حزب المحافظين ، شغل وظيفة وزير المستعمرات وهو من أصحاب البنوك الكبيرة التي لها علاقتها بالمستعمرات وبالشرق الاوسط .

هؤلاء هم بعض الفئات من الانكليز الذين تقوم سياستهم ومستقبلهم على نهب ثروات الشرق الاوسط . وقد قامت الشركات الاحتكارية الانكليزية وشركاؤها ليؤلفوا جهة واحدة ، عند اندلاع الثورة العراقية المباركة ، ليدفعوا بانكثرتهم الى الاعتداء على البلاد العربية وليعيدوا الاحتلال البريطاني الى الاردن وليسحقوا الثورة العراقية ويعودوا مجدداً الى البلاد العربية .

اما القوة الرابعة في التأثير على قرار الحكومة البريطانية فهي سفارة الولايات المتحدة في لندن التي تمثل بحق وجهة نظر الساندارد أويل ومصالحها بالدرجة الاولى . وهذا أمر معروف في لندن من قبل جميع الطبقات السياسية . اذ كان يشغل هذا المنصب بين عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ لويس دوغلاس Lewis Douglas أحد اعضاء مجلس الوصاية في مؤسسة رو كفلر . ثم حل محله عام ١٩٥٣ وينتروب الدريش Winthrop Aldrich عم رو كفلر والرئيس السابق لبنك رو كفلر . ثم حل محله ايضاً في سفارة الولايات المتحدة في لندن جون هاي ويني J . Hay Whitney ابن اكبر مساهم في شركة الساندارد أويل .

نحن الآن على ما اعتقد ، على مثل اليقين ، ان السياسة المطبقة في بلاد الشرق الاوسط بصورة عامة وفي البلاد العربية بصورة خاصة إنما هي سياسة الاحتكارات البترولية . ولنتساءل الآن ماهي أهداف هذه السياسة وماهي خطوط مسلكها الكبرى ??

٥ - اهداف السياسة الاستعمارية في العالم العربي والشرق الاوسط

وسائل تنفيذها

من المعلوم ان النفوذ الاجنبي بدأ يتغلغل في هيكل الامبراطورية العثمانية المشرفة على الانحلال منذ أواخر القرن التاسع عشر . وأدى هذا النفوذ الى تقوية تيار التبادل التجاري بين الغرب وبلاد هذه المنطقة . وفتحت اسواقها كميدان لاستثمار رؤوس أموال الدول الاجنبية . وما ان ظهرت فيها المواد الاولية حتى تولد النزاع بين دول الغرب ولكن مادة اكثر من غيرها لفتت انتباههم هي البترول ، وكان التقدم الآلي في الغرب اخذ يشعر بالحاجة الى استعماله . وتقدم العلماء والفنيون الى دولهم بتقارير عن الارباح الكبيرة التي يمكن جنيها من توظيف الأموال في استخراج البترول ، وكانت الحاجة ملحة

وكان المال متوفراً ، وكانت المنطقة رهن تصرفهم ماداموا يتمتعون بالنفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية ، وعمل اكتشاف البترول على زيادة نفوذهم ودعمهم للتدخل بالشؤون الداخلية للبلاد فضلاً عما فرضوه عليها غب الحرب العالمية من تجزئة جغرافية لادخل للمنطق السليم فيها . وصار هدفهم الاستعمار بدلا من الاستثمار وبمعنى أوضح النهب بدلا من المبادلة العادلة .

وكان هدفهم الثاني تثبيت الاوضاع التي اوجدوها في تجزئة البلاد العربية وجعلها حقيقة علمية يؤمن بها السكان أنفسهم فأوجدوا قوميات متعددة وعملوا على دعمها بواسطة الطائفية البغيضة واثارة النعرات الدينية والمذهبية . كما سعوا في اضعاف اللغة العربية وتنمية لغات الاقليات كل ذلك لتفتيت أوصال الامة وكل مقومات حياتها فنادوا بالفرعونية في مصر وبالبربرية في المغرب وبالقومية السورية في سورية ولبنان وبالجر كسية والاشورية والسكادانية والفينيقية الخ ...

هدفوا كذلك الى اقناعنا بأن بلادنا زراعية وعليها ان تبقى كذلك مدى الدهر لان اراضيها على زعمهم خالية من جميع مقومات الصناعة فليس فيها فحم ولا ثروات معدنية كافية للتصنيع . ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على معاكسة كل حركة ترمي الى اقامة صناعة في البلاد مها قل شأنها وهزل قدرها وذلك للحد من استهلاك البترول لانهم في الحقيقة ينتجونها وفقاً لاذواق وحاجات ومصالح المستهلكين في أوروبا وأمريكا لا وفقاً لمصالح البلد المنتج للبترول . فلا يريدون ان يكثر الطلب هنا ، بل هناك لان ازدياده هناك يعني ازدياد القوة المالية والانتاجية التي سيخضع الشرق الاوسط لها كل الخضوع . وجملة القول ان الدول الكبيرة انما تستثمر اموالها لمنفعتها الخاصة ولا يهمها ان يستفيد البلد الذي تستثمر فيه الاموال . بل هي تفعل اكثر من هذا ، تمن في جعله يقوم باقتصادياته على منتج وحيد ليظل متعلقاً بها دوماً . ولنا في ايران

اعظم مثال على ذلك : ان ٨٧,٥ ٪ من الصادرات الايرانية تتألف من البترول كما تقوم ميزانية الدولة على واردات البترول . ويكفي ان ينقص الشعب البريطاني من طلبه للبترول الايراني حتى ينخفض معدل الانتاج وبالتالي تنخفض العائدات . أو قد تعتمد الحكومة البريطانية نفسها الى التوقف عن الدفع ولو لمدة من الزمن ، حتى تنهار الميزانية الايرانية وينهار تبعاً لذلك الاقتصاد الايراني مادام هذا الاقتصاد لا يقوم الا على مادة البترول . وبما أن الدول الغربية المستعمرة تمنع كل نزعة نحو التصنيع وبما أن الانتاج الزراعي يظل ضعيفاً مهماً قوي ، فلا مجال لمناقشة سيادة الرأسمالية الدخيلة التي هي صناعة البترول .

كذلك عملوا ويعملون حتى اليوم على اقناعنا بفكرة ربط انتاج النفط في الشرق الاوسط باوروبا كأنها العميل الوحيد لشرائه واستهلاكه . ويهددوننا بان اوروبا اذا ما عرضت عن شراء النفط العربي ، سينهار اقتصاد البلدان العربية جملة ، وانها ستتجه عند ذلك الى استنباطه من اراضيها او من افريقيا او انها ستعتمد الى استيراده من امريكا ، وانها ستضعاف جهودها عندئذ لاستبدال البترول باستخدام الذرة .

كلام كله هراء بهراء . لقد أبانت الحوادث الاخيرة أن اوروبا الغربية بحاجة الى بترول الشرق الاوسط ولا يمكنها بدونه أن تستمر بالحفاظ على كيانها وعلى مستوى حياة شعوبها . غير أن بترول الشرق الاوسط سيجد أمامه اذا ما عرضت اوروبا عن شرائه أسواق العالم بأسره لتصريفه . والاتحاد السوفيتي نفسه إذا ما أراد الآن رفع مستواه الداخلي وفتح أبواب التصدير اضطر لاستيراد كميات هائلة من نفط الشرق الاوسط بالاضافة الى انتاجه من هذه المادة .

أما الاراضي الاوروبية الفقيرة بالنفط وقد جرى تحريرها كاملة . أما قضية

استنباطه من افريقيا فهذا أمر فيه كثير من التفاؤل لان الشعوب الافريقية اليوم غيرها في القرون الماضية وهي كبقية شعوب العالم على وشك الخلاص من الاستعمار إن عاجلاً أو آجلاً . هذا ولا يخفى على أحد أن استيراد البترول من أمريكا يستلزم أولاً دفع ثمن هذا البترول بالدولار وهذا شيء نادر في أوروبا أو ان تسير سياسة أوروبا الغربية في ركاب السياسة الاميركية .

لم يبق من وسائل التهديد سوى استخدام الطاقة الذرية عوضاً عن البترول وهذا سيحصل حتماً حتى ولو بقيت أحواض البترول في الشرق الاوسط بكمالها تحت تصرف دول أوروبا الغربية .

لقد أدرك الغرب وعلى رأسه بريطانيا ان جميع هذه المحاولات لن تجدي نفعاً وشعر ان العرب على ابواب نهضة توشك أن تجمعهم صفاً وتوحدهم غاية ، ثم قدر ما وراء ذلك من شريعته حين يؤدي ذلك الى ضياع ما يستغل من ثروات ، فدير امره ليقف هذه النهضة ويصدع هذه الوحدة فرماناً بهذا السرطان الصهيوني « دولة اسرائيل » ليشغلنا عن امورنا وهيئة اسباب نهضتنا . ذلك هو السر الخفي وراء تلك المساعدات المتصلة التي قدمتها بريطانيا ظاهرة ومستورة الى اليهود في كفاحهم لانشاء دولة تؤويهم في فلسطين ، فحققت بذلك لنفسها ما أرادت ، حين زعمت أنها بانشاء تلك الدولة قد شطرت البلاد العربية شطرين ، شطراً في المشرق وشطراً في المغرب تفصل بينها دولة اسرائيل . ولم تبدأ المعونة الاميركية الى اسرائيل بشكلها العاجل الواسع إلا منذ أن بدأت الاحتكاكات الاميركية بوضع يدها على امتيازات استغلال البترول في البلاد العربية حيث اخذت امريكا عند ذلك تبذل الجهد مسرفة في معونة اسرائيل بالمال والعتاد والضغط السياسي ووسائل أخرى ، ولم تزل الاموال الاميركية والاسلحة الاميركية تتدفق على موافى اسرائيل لتمكن وتقوى وتستكمل اسباب الغلبة ، ولتكون قلعة للاستعمار في وسط الامة العربية ليمد

منها مده ، ويبسط نفوذه ، ويدس دسائسه وينفث سمومه الى كل ماحوالها من بلاد العرب . وقد كشفت معركة القناة النقاب عن وجه اسرائيل وظهر ان وجودها في هذه البقعة من ارضنا لم يكن توطيئاً لشعب ولكنه تحصين لعدو . وادرك الاستعمار ايضاً ان وجود اسرائيل كخطر يهدد بلاد العرب من الخارج لا يكفي لوقف حركة التحرر والوحدة فأراد تهديم هذه النهضة من الداخل فعمد كما اشرنا سابقاً الى شراء ضمائرها طبقة القائمين على الحكم من ملوك ورؤساء ودعم الاقطاعية الطاغية وعمل على ايقاع الخلاف بين الدول العربية نفسها . ثم اتجه الى الشعوب فعمل على إفساد الاخلاق واخلالها وتسميم الافكار بواسطة المجلات والدعاية والافلام والمسكاتب الثقافية التي افنتحها والنشرات التي يوزعها . ثم عندما لا ينفع كل ذلك كان الاستعمار يعمد الى التآمر للخلاص من الحكومات التي لا تخضع لارادته واوامره ، واذا استعصى عليه ذلك عمد الى الغدر والخيانة والارهاب . وكم من شهيد سقط بيد الاستعمار المجرمة القذرة لانه ابى ان يحني الرأس ذلاً وخنوعاً .

هذه يأسادة قصة الاستعمار في بلاد العرب وفي بلاد الشرق الاوسط بكامله تفوح من جوانبها ومن كل سطر من سطورها رائحة البترول . « هذا البترول ، كما يقول صديقي محمد سعيد العريان في كتيبه « اهداف المعركة » ، الذي ينبع من ارضنا وارض جيراننا هو قوة من قوانا نستطيع اذا اردنا ان يكون لنا دفءاً وحرارة ، ونستطيع اذا غفلنا ان يكون في ايدي عدونا وقوداً لطائرات تدمر ارضنا ولدبابات ترم على اجسادنا او اجساد اخوتنا ، ولسفن تحمل جنود الغزو الى شواطئنا وشواطئ جيراننا ، ولمصانع تصنع الدمار لنا ولقومنا . هذا البترول في ايدينا دفء لنا ، وفي ايدي عدونا نار تحرقنا ، ولقد علمتنا معركة بورسعيد ان نكون اقوى قوة لو كان بترولنا في ايدينا » .

تطور مفهوم النضال العربي ضد الاستعمار

للدكتور عبد الكريم غرايبة

استاذ معاهد في كلية الآداب

تطور مفهوم النضال العربي تبعاً لتطور علاقة العرب بالغرب وتطور موقف العرب من تاريخهم وتراثهم فاذا ما استعبدتهم تاريخهم وتراثهم فهموا النضال بأنه حرب لا هوادة فيها ضد الغرب وكل ما يمثله الغرب من قيم ومدنية وانتاج . واذا ما استعبدتهم بريق المدنية الغربية فهموا النضال بأنه كفاح مرير للتحرر من تاريخهم وتقاليدهم وكل ما يتبع ذلك من دين ولغة فصحي وحروف كتابة وغير ذلك . وقد يتجه النضال نحو التحرر من العبوديتين لتسخير التاريخ والتراث والمدنية الغربية في سبيل بناء مجتمع عربي جديد .

وقد مر العرب خلال القرن الاخير من تاريخهم بجميع هذه المراحل . فقد شرعوا يتحررون من عبودية التاريخ والتقاليد في منتصف القرن التاسع عشر ولكن ما لبثوا أن بهرهم بريق المدنية الغربية فحاروا بين العبوديتين الى أن سقطوا في اسر الغرب . ولم يبدأ تحررهم من العبوديتين الا خلال السنين القليلة الاخيرة . ويمكن أن تلخص مراحل النضال هذا بثلاثة أدوار :

أولاً - دورة الحيرة ١٨٥٠ - ١٩١٨ .

ثانياً - دور الاسر الغربي ١٩١٩ - ١٩٥٥ .

ثالثاً - الدور العربي ١٩٥٥ -

اولاً - دور الخيرة

ولا يوضح مفهوم النضال في هذا الدور أحد أكثر من حافظ ابراهيم اذ يقول :

وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو الى ظله الارحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب في ورده الاعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير فصد ولا مأرب

فالخيرة عامة ومنتشرة ولا يعرف الناس حقاً ماذا يريدون ولا يدركون حاجات البلاد الحقيقية . والمخلصون حيارى لا يدرون ماذا يفعلون ، أيكافحون الاستعمار الذي يهددهم أم الظلم الذي يزرعون تحته . أيقلدون الغرب المستعمر ويتخلون عن تراثهم أم ينتقون أم يعودون الى سيرة السلف الصالح . والهدف واحد ولكن الطرق مختلفة وخطرة .

فالكل يريد للبلاد العربية الحرية والاستقلال والانتعاش الاقتصادي والقوة ولكن كيف الوصول الى ذلك ؟ والعرب حيارى تتجاذبهم عبوديتان ، فلا يكادون يتحررون من عبوديتهم لتاريخهم حتى قتلقفهم المدنية الغربية لتخضعهم لعبودية أدهى وأمر وينشأ كرد فعل للعبودية الجديدة دعوة سلفية فاضل أصحابها في سبيل حمل العرب على اتباع سيرة السلف الصالح اعتقاداً منهم بأن المسلمين طبيعة مختلفة لا تحتمل ادخال الانظمة الغربية المسيحية وأنه لا يصلح أمر هذه الامة الا كما صلح أولها يجعل القرآن دستوراً واتباع سنة الرسول .

وكانت الدعوة السلفية أضعف من أن تصمد في وجه الغرب العاتي فانحسرت

لتبقى في أماكن منقطعة وفي الواحات . وبرز جيل جديد يدعو الى النضال ضد الغرب المعتدي مستعملا سلاح الغرب وأساليبه .

وكان من الطبيعي أن يختلف مفهوم النضال هذا ووسائله باختلاف الامكنة والازمنة . فهو في البلدان التي خضعت للحكم الغربي المباشر كالجزائر غيره في بلد يحكمه الغرب من وراء واجهة وطنية وغيره في بلد لم تدخله جيوش الغرب .

أ - نضال الاعيان والمثقفين

ورفعت راية النضال تلك الطبقة من الشعب التي تأثرت مصالحها بالخطر الغربي أو التي اعتبرت استخدام وسائل الغرب مفيداً أو ضاراً بمصالحها . وبسبب الهوة السحيقة التي كانت تفصل الحاكم عن المحكوم في بلادنا العربية كان تأثر الفئات الشعبية بهذا النضال بطيئاً .

ورأى الاعيان أن مصالحهم مهددة تهديداً خطيراً بالزحف الغربي والدعوة السلفية . وشعروا ألاّ أمان لمصالحهم من الخطر الا اذا شاركوا الحكام في الحكم وسيطروا على طرق الاستفادة من الغرب وعلى ما يستورد من الغرب من آراء وأدوات . فسارعوا الى التمسك بطريقة الغرب في الحكم لانهم وجدوا في النظم النيابية خير وسيلة للسيطرة على الحكم باسم الشعب الذي لم يكن قد أبدى رأيه . وسرعان ما كسبوا الى جانبهم فئة الشباب المثقف ثقافة غربية بعد أن أقنعوه بأنهم يؤمنون بمثل ما يؤمن فسخروه وسخروا آراءه لخدمة مصالحهم .

وأثر نضال الاعيان في كل من تونس ومصر ففي كليهما أشرك الحاكم الاعيان في الحكم . وأصدر باي تونس ما عرف بعهد الامان الذي أعلن فيه المساواة التامة أمام القانون وعزمه على تأسيس مجالس من الاعيان وعلماء الدين . وصدور

اول دستور عربي في تاريخ العرب الحديث في تونس في ٢٦/٤/١٨٦١ وأقسم الباي على التقيد بأحكامه . ونص الدستور على اسقاط بيعة الحاكم اذا ما أخل بواجباته أو حث يمينه كذلك نص على ايجاد مجلس للوزراء وآخر للنواب وأقر مبدأ فصل السلطات الثلاث .

كذلك حمل الاعيان الخديوي اسماعيل في مصر على جمع مجلس للاعيان في ٢٥/١١/١٨٦٦ سمي مجلس شورى للنواب . وبدأ المجلس ضعيفاً يشكر اعضاؤه ولي النعم لانعامه على عبيده ويرفعون أكفهم آثناء الليل وأطراف النهار بالدعوات . ولكن ما لبث العبيد ان استأسدوا وقالوا لولي النعم بانهم وكلاء الامة المدافعون عن حقوقها وان مجلسهم هو أساس المدنية والتقدم .

واعترضوا على اصدار قوانين بدون العودة إليهم وطالبوا بأن « يعرض عليهم كل ما يقصد به الاهالي » . وافر الاعيان ما عرف باللائحة الوطنية التي طالبوا فيها بتوسيع صلاحيات ممثلي الامة وجعل الوزارة مسئولة أمامه . ورضخ اسماعيل لطلباتهم وشكل وزارة يرضاها الاهالي .

ولكن الهجوم الغربي كان عنيفاً لا يرحم ولا يهاود . فلم يقبل أن يجد من سيطرته شيء حتى ولا الحياة النيابية التي هي إحدى اختراعاته . فتدخل في تونس ومصر للقضاء على هذا الاسلوب الغربي في الحكم . وأجبر الباي على تعليق الدستور عام ١٨٦٤ وعلى الغائه سنة ١٨٨١ كذلك تأمروا على الحكم النيابي في مصر فأقصوا أولاً الخديوي اسماعيل . ولما تدخل الجيش المصري لدعم النضال في صيقل الدستور أعلنت انكلترا وفرنسا عزمها على أن يعيدا للخديوي السلطة المختصة به . فاحتل الانكليز مصر في منتصف ايلول ١٨٨٢ لاستعادة السلطات التي سبق وانتزعها الاعيان من الخديوي وكاد الجيش المصري ان ينجح في نقلها الى الشعب .

وكان على دعاة الدستور أن يناضلوا على جبهة أخرى داخلية . فلم ترحب بعض طبقات الشعب بالحياة الدستورية ، وكان أشدهم عداً لها أولئك الذين رأوا في الحياة النيابية تهديداً لمصالحهم الخاصة . فقاد علماء بغداد مظاهرة ضد الدستور العثماني . وحرص الشريف حسين بن علي أمير مكة السلطان عبد الحميد على اللجوء إلى البلاد العربية ليتمكن من تجهيز جيش عربي للقضاء على الدستور . ورفض الحسين العمل بموجب الدستور في الحجاز وأعلن أنه لا يقبل شريعة غير شريعة الله وسنة نبيه .

١ - فضال الأعرجان والمتقفين في آسيا العربية :

ولم يشعر الاعيان والمتقفون في آسيا العربية بالخطر الغربي كما شعر به عرب افريقيا . واعتبروا التحرر من السيطرة التركية هدف النضال الاول . وبلغ من استهتارهم بالخطر الغربي انهم رحبوا بالعون والوصاية الغربية اذا ما ساعدتهم الغرب على التحرر من الاتراك . ورحب بعض عرب آسيا بانباء الهزائم التركية وألصقوا بعبد الحميد وعهده شتى التهم . وقالوا ان الترك « قوم لا يفوز لديهم إلا المشاكس » ووصفوا الدولة العثمانية :

وما هي الا دولة همجية تسوس بما يقضي هواها وتعمل

ورحبو بخدمة أغراض الاستعمار الغربي في البلاد التي لجؤوا اليها فراراً من الاضطهاد التركي . وقد خلق هذا السلوك شعوراً عدائياً نحو عرب سورية في عدد من الاقطار الافريقية ولاسيما في مصر والسودان . فيخاطب ابن النديم السوري العربي بقوله :

أنا أخوك فلم انكرتني . ما الشام ومصر الا تؤامان ابوهما واحد فلم انحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين . . أبكذا جنيتها يبيع المرء أخاه

وطنه بل جنسه . . أم بكلمة تعزيز نصرف حياتنا في خدمة الاجنبى
لنعينه على اخواننا !

وازدادت النقمه على السوريين في مصر حتى قوطعوا ورموا بثقل الظل .
وبرر حافظ ابراهيم موقف المصريين هذا على لسان سطيح في ليالى سطيح ثم
دعا الى وحدة الصف وتنامي الماضي :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

وأنس المثقفون وأبناء الاعيان في آسيا العربية جمعيات سرية وعلنية بلغ
عددها عشر جمعيات خلال الاعوام الخمسة التي تلت خلع عبد الحميد . ولم تدع
أي منها صراحة الى قطيعة تامة مع العثمانيين بل تراوحت أهدافهم من المطالبة
ببعض اللامركزية ورفع مقام اللغة العربية الى المطالبة بدولة عربية يجمعها
مع الاتراك وحدة التاج العثماني .

وتنادى المثقفون الى عقد مؤتمر عربي في باريس في حزيران عام ١٩١٣
مثلت فيه أكثر هذه الجمعيات . ومع أن هذا المؤتمر دعي بالمؤتمر العربي العام
فإنه كان خاصاً جداً لم يحضره غير شباب من العراق وسورية ولم ينضم اليه
احد من المصريين والتونسيين والجزائريين رغم وجود عدد كبير منهم في باريس
ابان عقد المؤتمر . ولم يتعرض المؤتمر لغير قضايا سورية والعراق ولم يشعر بان
هناك عربا غير السوريين والعراقيين . وقرر المؤتمر شكر فرنسا في الوقت الذي
كان فيه المارشال ليوتي يسحق العرب في مراکش بعد أن أتمت فرنسا اخضاع
تونس والجزائر . ولم يتعرض المؤتمر لأمانى مصر الوطنية ولا للنكبات التي
كانت تعانيها طرابلس على يد الغزاة الايطاليين .

وقدم عبد الحميد الزهراوى اوائل عام ١٩١٤ تقريراً عن امكانيات العرب
النضالية . ولم يتطرق في تقريره الا لثلاثة فئات من العرب : الى السوريين

والعراقيين واعراب الجزيرة. فهو أيضاً قد حصر العرب ونضالهم بآسيا. ووصف امكانية عرب آسيا فقال بانهم ثلاثة اصناف : تجار ومتعلمون ومأمورون ، فالتجار لاهم في العير ولا في النفيير . والمتعلمون اي الطلاب والمتفقون اولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم . والمأمورون أربعة أقسام : الضباط ولا تجربة لهم في رأيي في هذه المسالك والاولى عدم دخولهم فيها ، والمتقاعدون كالعجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء . والموظفون لاهم لهم الا حفظ المنصب . أما طلاب الوظائف فجميع مساكين لا يفهمون من الاصلاح الا المأمورية ان جاءت فقد جاء الاصلاح والا فلا يعترفون بوجود اصلاح .

وترامت الامارات والمشيكات العربية في الجزيرة في احضان الانكليز وكان احد الشيوخ احرص من الانكليز على فرض الحماية البريطانية على بلده . وكان عداء ابن سعود والادريسي والامام يحيى للعثمانيين اشد من شعورهم بالخطر الانكليزي فترك الاخير الانكليز يتوغلون في عدن ليتفرغ هو لحرب العثمانيين ، بينما ربح الاول والثاني بصدقة الانكليز . واصيب الحسين شريف مكة بهذا الداء الانكليزي بعد أن رأى في السكة الحجازية خطراً عليه وسارع ابنه عبد الله الى الاتصال بالانكليز في شباط عام ١٩١٤ .

٢ - نضال العرب في افريقيا العربية :

واختلف مفهوم النضال في افريقيا العربية عنه في آسيا العربية اخلافاً كلياً . فقام في كل من تونس ومصر احزاب تدعو الى العودة الى احضان العثمانيين وتناضل للتخلص من الاحتلال الاجنبي الغربي . واتبعت هذه الاحزاب طريق النضال السهل بمحاولتها كسب الرأي العام في بلد اوروبي على قضايها فاصدرت صحفاً باللغات الاوروبية لتشرح للرأي العام الغربي قضايها العادلة .

ونادى مصطفى كامل ، زعيم الحزب الوطني في مصر ، في كتابه المسألة

الشرقية ، بدوام الرابطة العثمانية . وقال ان الراية العثمانية هي « الراية الوحيدة التي يجب ان تجتمع حولها » ثم تضرع الى الله ان « يهب الدولة العثمانية القوة الادبية وان يحفظ السلطان عبد الحميد . . » وهاجم مشروع الخلافة العربية واتهم دعاة بانهم من دعاة الاستعمار البريطاني وختم مصطفى كامل كلامه بقوله : هذي يدي على حبة أمير المؤمنين — السلطان عبد الحميد — والا فقطعها خير من وضعها في يد الاجنبي . كذلك اعتبر الشيخ محمد عبده المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله . ودعا الشاعر المصري الكاشف الحديوي عباس الثاني الى التمسك باهداب الخلافة :

تعدو تبوعا للخليفة مخلصا وتروح بالهمم العلى مشغولا
هل تستغيث بضيفك المملول من أهليك والمولى الاعز قيلا
متباينون هم ونحن شراعا وطباعا ومنازعا واصولا
وهاجم حافظ العصاة على السلطان :
والى الحجاز الحارجي ومابه الا اقتناص الاصفر الرنان

واوضح حافظ موقف عرب افريقيا من الاستعمار الغربي :

طمع القى عن الغرب اللثاما فاستفق يشرق واحذر ان تناما
احرقوا الدور استحلوا كل ما حرمت لاهاي في العهد احترامما

وحزن المصريون على ذهاب عبد الحميد فقال حافظ :

خالد انت رغم انف الليالي في كبار الرجال أهل الخلود
حاولوا طمس ما صنعت وودوا لو يطيقون طمس خط الحديد

واستغفر شوقي الاله له :

شيخ الملوك وان تضعضع في الفؤاد وفي الضمير

عبد الحميد حساب مثلك في يد الملك الغفور .

وحمل محرم على المنافقين :

الميك ظل الله في الامس بيننا نلوذبه و الخطب ضحك مذاهبه
انطريه قهارا ونوذيه مرهقا كفى الليث شر أن تقل مخالبه

ولم يتالك عبد المطلب من رثاء العلم العثماني الذي لم يعد خفقا في سماء مصر بعد اعلان الحماية البريطانية عليها آخر ١٩١٤ و اظهر الشجاعة باطيل الحلفاء بعد فشلها في الدردنيل . ونظر عرب آسيا شذرا الى هذه الاقوال التي اعتبروها غريبة وجنونية . فعجب سليم سر كيس من المصريين الذين يتمسكون باذيال العرش العثماني ويريدون الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية .

ونشأت في مصر طبقة جديدة لها مفاهيم مختلفة . فقد تغير موقف بعض الاعيان والمثقفين من الاحتلال البريطاني وتنادوا لتأسيس حزب جديد دعوه حزب الامة . وضم هذا الحزب اصحاب المصالح الحقيقية في مصر الذين «عرفوا بعلو النسب والعلم والفضل» وقيل ان كرومر كان يعطف على هذا الحزب ويشجعه لمقاومة الحزب الوطني العثماني الميول ، وطالب حزب الامة بالاستقلال والدستور ولكن في ظل الحماية البريطانية . ونادى افراد هذا الحزب بمفاهيم جديدة للدولة والوطن والنضال فالحياة الدستورية في نظرهم وظيفة اجتماعية وليست حقاً للمواطنين . ويمارس الحكم في رأيهم الاعيان الذين هم رؤساء الامة الطبيعيون . ويجب على الاعيان ان يتخذوا لهم مركزاً ثابتاً بين السلطتين (الشرعية والاحتلال او السلطان والانجليز) وان يتبعوا سياسة سلمية مشروعة لا تمس مصلحة الاجانب ولا تجعل للانجليز ذريعة جديدة لثبوت مركزهم . ونادى فيلسوفهم لطفي السيد بعدم السماح بتدخل الشعب المتطرف بالسياسة لئلا يؤدي ذلك الى العناد والقسوة من جانب الانجليز . اما الوطن في رأيهم فهو « مصلحة مادية مشتركة لهم

اصحاب المصالح الحقيقية والاعيان » وناضل هؤلاء الأعيان لمشاركة السلطين في الحكم عن طريق مجلس نواب ودستور ينظم العلاقة بينهم وبين السلطين ويضمن مصالحهم الخاصة التي ادعوا بانها تمثل مصالح الشعب المصري .

ثانياً — الحرب العالمية الاولى واثرها على النضال :

وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضع حداً لهذه الحيرة فقد حزم الغرب امره وقرر ان يخضع العرب لحكمه . فبادر الى اعلان حمايته الرسمية على مصر ثم شرع باخضاع ما تبقى من البلاد العربية في آسيا . وتذكر عرض شريف مكة فبادر السر رونالد ستورز الى الاتصال بابن الشريف في تشرين الاول ١٩١٤ وكان هدف انجلترا كما صرح ستورز عام ١٩٥٣ هو حرمان الجيش العثماني من نصف مليون جمل يملكها الشريف واتباعه كذلك عقدت بريطانيا معاهدات مع ابن السعود والادريسي وخصصت لهما اعانات شهرية .

وتردد الحسين الى ان رأى حيرانه من الامراء قد سبقوه في الحظوه لدى الغرب بينما هو عاجز عن ارضاء العثمانيين . وادرك ان افكار العرب في سورية مضطربة . واقنع رجال العربية الفتاة والعهد بوجود الاتفاق مع الانكليز بل ووضعوا له مسودة لمطالب العرب فبعث بها جواباً للمندوب البريطاني في مصر . وماطل الانكليز وتزايد الخطر على الحسين واعدمت القافلة العربية الاولى في بيروت ووصلت الحملة الالمانية الى المدينة فاصبح الحسين في وضع لا يمكنه من الإطالة فوافق في اول كانون الثاني ١٩١٦ على تأجيل ايضاح المسائل المختلف عليها الى ما بعد الحرب . واعلن الثورة في العاشر من حزيران ١٩١٦ بعد شهر من اعدام افراد القافلة الثانية .

ونظر العرب في سورية الى الثورة نظرة جدية ولم يتقيدوا بأهداف الحسين واولاده وحلفائه . واعتبروها فاتحة عهد للتحرر فاكسبها ذلك معنى جديداً

وجعلها أكبر وأهم من الحسين وأولاده . حقاً لقد أعلن الحسين الثورة وقاد أولاده جيوشها ولكن الثورة لم تبق ثورتهم وكانوا أول من تنكروا لها عملياً وأول من خالف مبادئها بعد أن افلت زمامها من أيديهم وأصبحت ثورة الشعب العربي في سورية وكبد الجيش العربي الذي لم يتجاوز تعداد قوته النظامية الثمانية آلاف ولم تزد نفقاته طوال الحرب على مليون جنيه ، العثمانيون أكثر من ٢٥٠.٠٠٠ أسير وأكثر من ٧٠٠٠ جريح وقتيل كما عطل عن الحركة ٣٠.٠٠٠ جندي عثماني حوصرت في معان والمدينة وأماكن أخرى . وناضل الجندي العربي ببسالة وحقت هذه القوة الصغيرة في ميدان القتال ما عجزت عنه قوات تفوقها عدداً وعدة وقدرباً .

وانتهت الحرب العالمية الأولى وقد سيطر الغرب على جميع البلاد العربية في آسيا وأفريقيا باستثناء اليمن . وغدت بريطانيا محتلة للعراق وأكثر سورية ، مصر والسودان وسواحل الجزيرة العربية الشرقية والجنوبية كما تناول كل من سلطان نجد وملك الحجاز وأمام عسير وراتب شهرية من الإنكليز مقابل تنازلهم عن سيادتهم . فكان راتب الحسين الشهري / ٢٠٠.٠٠٠ / جنيهاً وراتب ابن سعود ٥٠٠٠ جنيهاً وتوقف الدفع في ٣١/٣/١٩٢٤ فبلغ مجموع ما تقاضاه الحسين ستة ملايين جنيهاً وما تقاضاه ابن سعود نصف مليون جنيه . كذلك احتلت فرنسا أكثر الساحل السوري وتونس والجزائر ومراكش كما احتلت إيطاليا طرابلس . وكانت اليمن هي البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للاحتلال الغربي ولم يكن للغرب نفوذ فيه .

II — مفهوم النضال في دور الأسر الغربي :

استسلم العرب للأسر الغربي فلم يأملوا منه فكاكاً كاملاً . وفهموا النضال بأنه السعي لتنظيم علاقتهم بأسريهم بمعاهدة تعترف بموجها الدولة الأسيرة باستقلال

شكلي . وبدأت تختفي بسرعة افكار الوحدة والتحرر وقل الحديث عن الامة العربية وبدأ القادة يتكلمون عن الاماني المحلية وعن اختلاف العرب باختلاف الاقاليم .

أ - الهاشميون ينزعهم من سياسي الجزيرة والتمردية :

وقبل مرور شهر على انتهاء الحرب مع تركيا ، وقبل أن تلتئم جراح المناضلين العرب ، بل وقبل توقيع الهدنة مع المانيا بدأ قائد جيش الثورة دعوة كريمة . فقد وقف فيصل بن الحسين في حلب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ ليعلم ان العرب شعوب مختلفة باختلاف الاقاليم ولا يمكن أن يخضعوا لقانون واحد . وعاد فشرح رأيه في دمشق في الخامس من أيار ١٩١٩ . وأعلن ان الظروف ليست كافية لتجعل العرب أمة واحدة وحكومة واحدة وهذا مادعاه للمطالبة بحكومات عربية . كما نادى بسورية بحدودها الطبيعية دولة مستقلة لاعلاقة لها بسائر البلدان العربية .

هذا كان مصير فكرة الوحدة العربية عند الهاشميين . بدأها الحسين دعوة ضيقة لتوحيد الاقطار العربية في آسيا وفصل عرب آسيا عن عرب افريقيا . فجاء اولاده فحطموا حتى فكرة الوحدة المحدودة ونادوا بالاقليمية وخرجوا على مبادئ الثورة وعلى مبادئ ابيهم قبل ان ينكث الحلفاء بوعودهم لايهم وللغرب .

وشعر اولاد الحسين ان الشعب قد بدأ يتنبه ويتشكك بموقف الهاشميين وبعود الحلفاء . وخشى الهاشميون هذا الخطر الجديد وخاب املهم بان ينقاد العرب اليهم ويبايعوهم كمنقذين بدون قيد او شرط . وقام الشعب يناقش فيصل الحساب ويتهمه . فشرع فيصل يدافع عن حسن نيات الحلفاء ونبل مقاصدهم

فاعتبر فيصل البلاغ الافرنسي البريطاني الصادر في ١٨/١١/١٩١٨ دليلاً على حسن نيات الحلفاء الذين اعلنوا في هذا البيان عزمهم على تأسيس حكومات وادارات وطنية « لادولة عربية واحدة » .

وجمع فيصل وجوه وأعيان دمشق في ٥/٥/١٩١٩ ليعلن لهم بالحرف الواحد « ان الحلفاء قاموا لانصاف المغلوب والاخذ بناصر الحق لافرق احد على الآخر في الصدق وحسن النية والاخلاص لنا » ثم طلب من الأمة تفويضاً مطلقاً بدون قيد أو شرط وباعطائه جميع ما يطلب وتفويضه بادرارة السياسة الداخلية والخارجية . وهتف الوجوه والاعيان له . وصفقوا حيناً وجه اليهم اسئلته :

احسن ما قمنا به : فاجيب : حسن حسن مع التصفيق والهتاف

هل هو موافق لرغائب الامة ام لا : موافق موافق مع الهتاف الشديد .

هل اعمالنا مقرونة برضى الامة : نعم وكل الرضى . تصفيق وهتاف . .

هل يريدون ان نداوم على عملنا ام لاندوام نداوم . . مع الهتاف

هل تؤيد الامة كل اعمالنا بدون قيد او شرط نعم لك الامر

وعاد فيصل في ٢٢/١/١٩٢٠ فهدد المتشككين بانه لا يخاف الجمعيات وإنما يخاف الله والتاريخ واعلن انه لا يسمح لجماعة او شخص ان ينتقدوا الحكومة . لان الحكومة قائمة برأيه والحكومة هي شخصه وليس لاحد الحق بالنقد والطعن والافق ان ينصرف كل الى عمله . ثم التفت الى الشهبندر ونصحه بترك السياسة والانصراف الى الطب .

وترأس فيصل الوفد العربي الوحيد الى مؤتمر الصلح . وكان في باريس اذ ذاك وفدان عربيان يسعيان لعرض قضايا بلديهما ولكن فيصل واعضاء وفده

أبو الاتصال بالوفد المصري الذي كان يرأسه سعد زغلول أو بالوفد التونسي برئاسة الشعايلي ورفض فيصل أن يدافع عن قضايا العرب في إفريقيا . وما لبث فيصل أن تخلى حتى عن فكرة الدفاع عن وحدة العرب في آسيا .

ولم يعارض فيصل أحد من رجال وفده وكلهم لعب فيما بعد دوراً هاماً في تاريخ بلاده وبعضهم مازال يلعب دوره .

ولم يتخلوا عن وحدة العرب فيحسب ولا عن وحدة العرب في آسيا بل حتى عن وحدة سورية حينما وافقوا جميعاً باستثناء واحد منهم فقط ، على توقيع اتفاقية مع فيصل - وايزمن في أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ التي تنازل فيصل بموجبها عن فلسطين لليهود . وبرر فيصل ورفاقه موقفهم بأنهم يرغبون كسب عطف ويلسون لويد جورج ووايزمن وكليمنصو ولورنس . وكان الإعجاب بالانجليز قد بلغ بهم حداً كبيراً دعاً أحدهم لأن يقول : الانجليز يا أخي يختلفون عن بقية الناس .. هم وحدهم ممتازون نزلوا من السماء في قفة ويجب أن ندرس هؤلاء ونفهمهم ونتفاهم وإياهم هم لازمون لنا .

وعمل الانجليز وحلفاؤهم بدورهم كل ما في وسعهم للإساءة الى العرب والى الحسين وأولاده . فصدرت تعليمات وزاره الحرب البريطانية بتأسيس ادارة بريطانية دائمة ، مركزها البصرة ، لحكم جنوب العراق وبلدان الخليج بيناتنشأ في بغداد واجهة عربية للحكم البريطاني كما حرصت بريطانيا على عدم تسرب مبادئ ولسن الى الاراضي التي يحتلها الجيش البريطاني كما أصر الخبراء الانجليز على ضرورة فصل العراق كلياً عن العالم العربي وأشاروا بأن تمسكهم بالعراق يمكنهم من دق اسفين في العالم العربي ويحول دون تجمع العرب ، فسياسة فصل العراق عن ركب العروبة سياسة قديمة بدأها الاستعمار الغربي قبل أربعين عاماً .

ثانياً - النضال المسلح ١٩١٩ - ١٩٢٧

لم تشاطر الشعوب العربية الحسين وأولاده إيمانهم بحسن نية الحلفاء كما لم تستسلم لليأس . ومع أن الدول الغربية خرجت من الحرب منتصرة فإن أكثر الشعوب العربية وجدت في نفسها الجرأة لتقدم على تحدي هذه الدول وإعلان العصيان . فثارت مصر وسورية والعراق ومراكش كما حدثت اضطرابات في تونس وفلسطين وشرق الاردن .

بدأ الشعب العربي في مصر أول نضال مسلح ضد الغرب . ففي نفس اليوم الذي كان فيه فيصل يخطب في حلب مطرياً الحلفاء ومشيداً بحسن نيّتهم ، كان ثلاثة من الاعيان المصريين يطلبون مقابلة المندوب البريطاني ليطلبوا بأن يكون المصريون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر . وكان هذا القول مثار دهشة المندوب الذي تساءل باستغراب : اذا أنتم تطلبون الاستقلال : فاجابه سعد زغلول ، نحن له أهل . فاجاب المندوب : الطفل اذا أعطي من الغذاء أكثر مما يلزم تخم . فدافع عبد العزيز فهمي عن حق مصر بالاستقلال وأبدى زغلول استعداد مصر لمنح بريطانيا الضمانات اللازمة والسماح لها وحدها دون غيرها باحتلال منطقة القناة عند الاقتضاء . وقال علي الشعراوي بأن مصر تقبل ببقاء المستشار المالي البريطاني . وتعهد ثلاثتهم بالا يبحثوا مطالب مصر الام مع ممثلي بريطانيا .

وشرعت جماعة الاعيان ، التي اطلقت على نفسها اسم الوفد المصري ، بجمع التوكيلات من الشعب المصري لكي يسعوا بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجدوا للسعي سبيلاً ، في سبيل استقلال مصر تطبيقاً لمبادئ الحرية والعدالة التي تنشر بريطانيا رايها .

وترغم هذه الحركة سعد زغلول وكان اذ ذاك في الثالثة والستين من عمره .
 قضى زغلول حياته في صحبة الارستقراطية و صاهرها رغم أصله الريفي . ولم
 يستطع أن ينضم الى أى حزب من الاحزاب القائمة ولكنه لم يعاد أيا منها بل
 صادق الجميع . واصبح وزيراً برأى كرومر ودافع عن تمديد امتياز قناة السويس
 وعن قوانين الصحافة . ثم اصبح نائباً رغم معارضة المندوب البريطاني . وجنب
 نفسه اكثر حياته كل ضيق مادي او معنوى وعاش مرفهاً . ثم حزم أمره
 آخر عمره وقرر ان يناضل بجده وان يعرض نفسه للأذى في سبيل بلاده فأظهر
 ثباتاً و إخلاصاً ادهش الجميع .

بدا الأعيان المصريون نضال شعبهم لتتال مصر نوعاً من الاستقلال . كانوا
 يأملون مشاركة الانجليز والسلطان في الحكم ويتقبلون كأمر بديهي تمتع
 بريطانيا بمرکز خاص في مصر وسعوا الى عقد معاهد تنظم العلاقة بين بريطانيا
 ومصر ولم يفكر اى منهم ان الجلاء البريطاني الكامل امر ممكن أو مستحسن
 الحدوث . كما لم يخطر ببال اى منهم أن الشعب سيكون له نصيب
 بالنضال وفي قطف النتائج .

واكتفى الاعيان من النضال بالبيانات والنداءات والمقالات الصحفية .
 و اعلن سعد في السابع من شباط بطلان الحماية بعد اسبوع من اعلان مؤتمر
 الصلح لحق تقرير المصير . ولم يستهدف الاعيان اثاره الشعب المصري ولا
 اشراكه بالنضال وانما ارادوا اسماع صوت مصر في اوربا واثارة الرأي العام
 الاوروي وكسب عطفه . وكان الامير فيصل ورفاقه يدافعون اذ ذاك عن
 قضايا العرب في مؤتمر الصلح ولكن حسب مفهومهم الخاص لها . وتقدم للكلام
 باسم العرب مندوبان احدهما انجليزي والثاني دمشقي رشحته فرنسا . وطبعاً لم
 يتعرض المندوبان للقضية المصرية . واعتقل سعد واثارت مصر وبطش الانجليز
 بالشعب المصري اثناء مناقشة القضية العربية في مؤتمر الصلح ولكن لم تناقش

قضية مصر . وبينما كانت نساء مصر يتظاهرن في شوارع القاهرة ويطاردهن الجنود الانجليز اتخذ مؤتمر الصلح قراراً بارسال لجنة تحقيق الى البلاد العربية لاستطلاع رأيها . ولكن لم يخطر ببال احد حتى ولا خطر لو قد فيصل أن العرب لا يسكنون في سورية وحدها وان من الواجب استطلاع رأي العرب في اقطار أخرى .

ادهش الشعب المصري الجميع في مصر وخارجها . فلم يخطر ببال أحد بل لم يرد احد ان يشترك الشعب بالنضال . ولكن المظاهرات بدأت عنيفة فور انتشار خبر اعتقال سعد . وثار الاعيان وها لهم الخطر الشعبي الجديد فغدا عبد العزيز فهمي تالف الاعصاب بصيح بالطلاب : انكم تلعبون بالنار ، دعونا نعمل بهدوء ولا تزيدوا في غضب الانجليز . وتأمل الاعيان ان تكون ثورة الشعب مجرد شعب عابر فسارعوا الى التنصل من مسؤوليته وعلنوا ان الاعتداء على الانفس والاملاك محرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية . . . ويضيع على المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم وكأنما خيل للاعيان ان حرية بلد من البلدان يمكن ان تحقق في نقاش حول الموائد وعن طريق استدرار عطف الاجنبي ، وكأنما الشرائع الالهية لا تحرم الاعتداء على حريات الشعوب . واشترك الشعب المصري بكافة فئاته بالنضال فاضرب الموظفون وتظاهر الرجال والنساء والعمال واهل الفن واعتبر محمد فريد زعيم الحزب الوطني ، هذه الثورة من الحوادث المفاجئة والامور التي كانت غير منتظرة . . ان هذه الحركة لم تكن في الحسبان . وادرك الاعيان ان هذه الثورة الشعبية خطر عليهم وعلى مصالحهم . كما ادرك الانجليز ان من الخير لهم الاتفاق مع الاعيان قبل ان تقلت الامور من ايديهم ويسيطر الشعب فسارعوا الى الافراج عن سعد . ولكن سعد كان قد حزم امره وقرر ان يسلك طريق النضال الى جانب الشعب فانفض عن سعد وعن الوفد اعضاء حزب الامة القدماء من الاعيان واعيد اعتقال سعد . وتوصلت بريطانيا والاعيان الى اتفاق يضمن مصالح

الطرفين في مصر فاصدورت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير الذي اعلنت فيه انتهاء حمايتها على مصر واعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق الدفاع عن مصر وحماية مواصلاتها وحماية المصالح الاجنبية كما احتفظت بالسودان واندوت الشعب المصري بان الاستسلام للاماني الوطنية يعرضه للخطر وانه كلما زاد اعتراف المصريين بوحدة المصالح البريطانية ومصالحهم كلما قلت الحاجة الى الضمانات . واعتقد الاعيان ان طريق النضال اصبح واضح المعالم فلم يبق عليهم الا ان يقنعوا بريطانيا ان ليس بها من حاجة الى التمسك بالضمانات ولا سبيل الى ذلك في رأي الاعيان الا بالتعلق باهداب السكينة والتزام الهدوء .

واصبح بإمكان الاعيان ان ينصرفوا الى تنظيم علاقاتهم مع الملك بعد ان نظموها مع الانجليز . فاستعاروا دستور دولة اعيان وهو الدستور البلجيكي ليضعوا على نسقه ما عرف بدستور ١٩٢٣ . ولكن الشعب المصري بدأ يثبت وجوده فهدم أمانى الاعيان عندما رفض ان يعترف بهم ممثلين عنه في البرلمان ، واكتشف الاعيان ان الدستور الذي وضعوه لخدمة مصالحهم مصلح سعد والشعب فعاد الاعيان وتعاونوا مع المستعمر والملك على التلاعب بالدستور وحياناً على تعليقه او على اجراء انتخابات مزورة .

وكانت الثورة المصرية هي الاولى في سلسلة من الثورات التي عمت العالم العربي في محاولته التخلص من اسر الغرب . فبعد اشهر قليلة من نشوب الثورة في مصر قامت حركة مسلحة ضد الانجليز في الجزيرة الفراتية . وسارعت حكومة دمشق الهاشمية الى التصل منها . ونظر الانجليز نظرة جدية الى هذه الحركة وخطب تشرشل في الثالث من كانون الثاني ١٩٢٠ محذراً من الخطر الذي يهدد الحضارة الغربية من التقاء الاعداء العملاقة الثلاث : لينين واثاتورك وقائد ثورة الجزيرة رمضان سلاش .

وبدأ النضال المسلح الثالث في العراق في صيف ١٩٢٠ في الوقت الذي كانت تنهار فيه ملكية دمشق . وكان الانجليز قد حولوا العراق الى مزرعة للمنتفعين الانجليز فجبوا ثلاثة امثال ما كان يجنيه العثمانيون وانفقوا اكثر ذلك على توفير راحة الموظفين الانجليز . واقصوا العرب من الوظائف بحيث لم تتجاوز نسبة الموظفين العرب الى ٣٧٪ من كبار الموظفين واقل من نصف صغار الموظفين و ١٧٪ من موظفي السكك الحديدية . وادخل الانجليز نظام جرائم الحدود الهندي باسم نظام العشائر ورفعوا مكانة الشيوخ واقطعوا اراضي واسعة . واعلنوا بوضوح ان سياستهم هي التمسك ببغداد واعتبروا الامال السياسية والرغبة في الحكم الذاتي اوهاما تجول في بخيلة المتطرفين وينبغي ان تقمع بشدة . وقالوا ان تأسيس دولة عربية في العراق يترك الشرق الاوسط كله طعمة للفوضوية والشيوعية . واعتبروا كل عراقي يدعو للاستقلال شيوعيا وعلى هذا الاساس اعتقلوا ابن المجتهد الاكبر بتهمة الشيوعية . ونشبت الثورة وكلفت بريطانيا اكثر من عشرين مليون جنيه بالاضافة الى الفى اصابة تكبدها الجيش البريطاني . ولكن بريطانيا تمكنت من اخماد الثورة في تشرين الثاني وعاجلت جرحها في العراق . واعادت فصل العراق عن ركب العروبة بمساعدة الفئة التي اضاعت سوريه التي حولت الى العراق لتشكل واجهة عربية حكمت بريطانيا العراق من ورائها حتى تموز ١٩٥٨ .

وكانت أعنف الثورات المسلحة ضد الاستعمار هي ثورة عبد الكريم الريفي التي بدأت في تموز ١٩٢١ . وكبد العرب المراكشيون القوات الاسبانية خمسة عشر الف اصابة وكميات كبيرة من الاعتدة وأجبروا الاسبان على اخلاء اكثر الريف . وهذا كان اكبر نصر عسكري حازه جيش عربي على جيش اوروبي حديث . واعتبر الافرنسيون نجاح الثورة خطرا يهدد مصالحهم ومصالح جميع الدول الاوربية . فحشدت فرنسا واسبانيا اكثر من ربع مليون جندي

و ٣٢١ طائفة ضد قوات جمهورية الريف التي لم تتجاوز عشرة آلاف جندي نظامي . وتم للغرب النصر العسكري في منتصف ١٩٢٦ .

وشكل الوطنيون في طرابلس جمهورية عربية عام ١٩٢٠ في غريان بزعامة رمضان السويجلي يساعده عبد الرحمن عزام . ثم بوبيع السنوسي اميرا عاما على ليبيا في تشرين الثاني ١٩٢٢ . ولكن ايطاليا الفاشستية ارسلت حملة عسكرية تمكنت من اخضاع قطاع طرابلس ١٩٢٥ واكثر برقة عام ١٩٢٩ واستسلم زعيم المقاومة في برقة عمر المختار .

ولم يتوقف النضال في سورية ضد الافرنسيين . فقد فقد الجيش الافرنسي حتى قيام الثورة السورية الكبرى اكثر من خمسة آلاف قتيل وبدأت الثورة في تموز ١٩٢٥ واستمرت الى منتصف عام ١٩٢٧ . وسجل السوريون في هذه الثورة بطولات كثيرة لا تقل عن البطولات التي كان يسجلها اخوانهم في الوقت نفسه في الريف . واضطر عدد من المناضلين الى مغادرة البلاد بعد نهاية الثورة .

وجاء الاردن في اواخر ١٩٢٠ الامير عبد الله بن الحسين مدعياً ان هدفه تحرير سورية من الافرنسيين . ووجه نداءً الى السوريين قال فيه : « كيف ترضون بأن تكون العاصمة الاموية مستعمرة فرنسية ، إن رضيت بذلك فالجزيرة لا ترضى وستأتكم غضبي ، أتينا لبذل المهج دونكم ، لا اريد منكم غير السمع والطاعة » وآمن بهذا الكلام كثيرون ولكن عبد الله سرعان ما خيب الآمال وعاد يقول : « ان الحكومة الفرنسية لا تحمل حقداً على قوميتنا وقضيتنا » وثار عليه الاردنيون في كل مكان ورجعوا سيارته وقاطعوا انتخاباته ومنعوه من تأجير اراضيه لليهود .

والغريب ان البلد العربي الوحيد الذي ساد الهدوء خلال هذه السنوات

هو فلسطين . فباستثناء حوادث ١٩١٩ البسيطة ظلت الاحوال فيها هادئة حتى عام ١٩٢٩ وظهر عرب فلسطين في خلالها بمظهر من ينام على الضيم ولا تهزه احمية لنصرة بلاده وقومه وللدفاع عن حقوقه ومصالحه . واكتفوا من النضال بعقد سبعة مؤتمرات واتخاذ قرارات واصدار بيانات وكفى الله المؤمنين القتال .

وشابه نضال تونس نضال فلسطين في النوع ونضال مصر في التنظيم . فقد ضعف امر جماعة الحاضرة وحزب تونس الفتاة الذين كانا يدعوان الى الجامعة العثمانية الاسلامية وبرز عام ١٩١٩ حزب الدستور الذي اسسه خريج الزيتونة عبد العزيز الثعالبي . وهذا يشبه ما حدث في مصر حيث ضعف نفوذ الحزب الوطني الموالي للعثمانيين وبرز حزب الوفد برئاسة خريج الازهر سعد زغلول . وسعى الثعالبي كما سعى زغلول لاسماع صوت بلاده في مؤتمر الصلح في باريس . ولكن التونسيين لم يثوروا ولم يلجأوا الى الكفاح المسلح وانصرف ساستهم الى محاولة كسب ود الاحزاب اليسارية الافرنسية واكتفوا بالمطالبة بحياة دستورية وفتح ابواب الوظائف امام التونسيون . وضاعت فرنسا ذرعاً بهذه المطالب المعتدلة واضطر الثعالبي الى اللجوء الى مصر من ١٩٢٣-١٩٣٧ .

كانت نتيجة نضال السنوات العشر بعد الحرب العالمية الاولى مؤلمة وخيبة للآمال . فلم يستطع أي بلد عربي ان يفك أسرهِ . وتمكن الغرب من سحق كل مقاومة عسكرية عربية ، وتبين من مراحل هذا النضال ان الشعب اكثر استعداداً للتضحية واشد تمسكاً بحريته من زعمائه . وحققت البلاد العربية التي لجأت الى العنف بعض المكاسب السياسية واجبرت آسريها على توضيح وتنظيم علاقاتهم بتلك البلاد . واستطاع الغرب ان يجد في الزعماء عوناً على تهدئة الحواطر وبث الطمأنينة فأصدر تصريحات مطمئنة في مصر والاردن والعراق وسورية وتونس ومراكش كانت جميعها من حيث المبدأ واحدة . والتزمت الدولة

الغربية في التصريح البريطاني حول مصر في فبراير ١٩٢٢ والبلاغ البريطاني الصادر في بغداد في ١٩٢٠/٦/٢٠ وتصريحات المندوب السامي الفرنسي في سورية في الاعوام ١٩٢٧ و ١٩٣٨ و ١٩٣٠ بالموافقة على اقامة حكومات دستورية في هذه البلاد العربية والاعتراف باستقلالها الشكلي ، ولكن الدول الغربية اصرت على الاحتفاظ لنفسها بحق الاشراف على الامن الداخلي والخارجي وحماية مصالحها ومصالح الدول الاجنبية على ان تنظم حقوق الدولة الغربية بموجب معاهدة تعقد مع حكومة البلد العربي .

دساتير المظاهرات

تقيد الساسة العرب ربع قرن بالمفهوم الجديد للنضال الذي اوحى به اليهم الغرب ، فقد وجه النضال وجهة اقليمية واستهدف سن دستور واجراء انتخابات وتشكيل حكومة دستورية تعقد معاهدة مع الدولة الغربية . ولكن الغرب بدأ يشترط شروطاً جديدة ، فهو يراوغ ويماطل ويصر على ان يقر المعاهدة مجلس نواب منتخب يمثل الشعب ، فيتبارى الساسة في تأسيس التجمعات والكتل والاحزاب للسيطرة على المجالس النيابية ليم على ايديهم فخر عقد معاهدة الشرف والاستقلال والاسر الدائم .

وتسكاد تلمح يد الدولة الغربية وراء كل وزارة تشكل او تسقط ، ووراء كل مجلس نواب يحل او حزب يشكل ، واصبح هدف كل حزب اقناع الشعب بأنه احرص من غيره على حقوق الشعب ، واقناع الدول الغربية بأنه اقدر من غيره على اقناع الشعب بقبول المعاهدة مع الدولة الغربية ، وبدلاً من ان تتضافر جهود الساسة ويشكلوا جهة واحدة امام المستعمر بدأ النزاع بينهم افراداً واحزاباً وكلهم يدعي انه يمثل الشعب واماني الشعب اكثر من غيره .

وقام في البلاد العربية خلال فترة الاسر هذه اكثر من مئة حزب اسس اكثر من ربعها في سورية ومثل ذلك في العراق واكثر من اثنتي عشر حزباً في مصر ، ولا يدخل ضمن هذا التعداد الاحزاب الشيوعية ولا الاحزاب التي تنشأ في المغرب ، كفروع لأحزاب اجنبية ، واصر زعماء الاحزاب على ان النضال عمل تعاوني لا يمكن ان يكون فردياً ويجب على الفرد ان يخرط في الحزبية باعتبارها امراً سياسياً في حياة الفرد والامة . وبدأت الاحزاب تجند اعوانها بين طلاب المدارس والجامعات مما اضعف الروح العلمية بين الطلاب وأحل التعصب محل التسامح والتواضع العلمي ، وكانت الاحزاب العقائدية أشد ضرراً في هذا الميدان من الاحزاب التقليدية .

وكانت جميع هذه الاحزاب ، باستثناء ثلاث منها ، اقليلية في نشاطها ومبادئها . ومع ان بعض الاحزاب الاقليلية في سورية والعراق تكلمت عن الامة العربية والوحدة العربية ولكنها لم يتعد مفهوم الوحدة في نظرها وحدة اقطار الهلال الخصيب . وفي سورية قام قبل ربع قرن اول حزب دعا الى الوحدة العربية كما نفهمها اليوم كما قام فيها اول حزب عقائدي قومي في التاريخ لا يدعو الى احتقار القوميات الاخرى ولا يدعو الى غايات عدوانية بل يهتم بالقيم الانسانية بل يدعو لمكافحة الاستعمار ومساعدة الشعوب على التحرر .

وكان مفهوم النضال واحداً لدى الاحزاب والكتل السياسية قبل الحرب العالمية الثانية . فكلها تدعو الى وضع دستور وتشكيل مجالس نيابية منتخبة وعقد معاهدات مع الدولة الغربية ذات المصالح في بلدهم وجاءت الدساتير والانتخابات والمجالس النيابية والمعاهدات متشابهة . فلم ينص أي من الدساتير التي وضعت خلال هذه الفترة على ان شعب ذلك البلد هو جزء من الامة العربية . بل اكد دستور كل بلد ان شعبه امة تامة كما اكد على سيادة البلد ومنحت

جميعها ورئيس الدولة سلطات واسعة لتمكنه من القيام بالتزاماته نحو الحليف الغربي . وكان رئيس الدولة والحليفة يضيّقان مراراً بالدستور فيعطلانه فقد عطل الدستور المصري سبع مرات وعاشت مصر بدون حياة دستورية سبع سنوات وفرض عليها دستور جديد لمدة ثلاث سنوات . وعلق الدستور في لبنان ثلاث مرات ولمدة سبع سنوات . وعلق الدستور او عطل او الغي في سورية ست مرات ولمدة مجموعها اثني عشر عاماً . وشاهدت سورية في تاريخها القصير مجلسين تأسيسيين وخمسة دساتير . وكانت الحياة البرلمانية في البلاد العربية متشابهة . ونقد قال نوري السعيد مرة مخاطباً النواب :

هل في الامكان — اناشدكم الله — أن يخرج أحد نائباً مهما كانت منزلته في البلاد ومهما كانت خدماته في الدولة ما لم تأت الحكومة وترشحه ! وانا اراهن كل شخص يدعي بر كره ، ووطنيته فليستقل الآن ويخرج ونعيد الانتخاب ولا ندخله في قائمة الحكومة ونرى هل هذا النائب الرفيع المنزلة الذي وراءه ما وراءه من المؤيدين يستطيع ان يخرج نائباً .

وهذا القول ينطبق تماماً على السبعة عشر مجلساً نيابياً التي عرفها العراق . ولم يتم أي من هذه المجالس مدته باستثناء المجلس العاشر ١٩٣٩ — ١٩٤٣ الذي ايدت وزارات وملكين ووصيين على العرش . وكانت مقاعد المجالس محتكرة لاشخاص معدودين . وكانت كل وزارة تحل المجلس القائم لتأتي بمجلس يتأزر واياها فتحشد فيه عدداً من النواب بالتزكية وتساعد على انجاح نسبة معينة من المعارضين ويعرف المجلس بعد ذلك باسم رئيس الوزارة الذي اشرف على انتخاباته .

وعرفت مصر عشرة مجالس نيابية لم يكمل أي منها مدته وعمر احدها يوماً واحداً . ولكن لم تجر انتخابات نزيهة نسبياً الا لست مجالس دامت عشر سنوات . كذلك كان نصيب سورية تسعة مجالس نيابية . كما قام في الاردن

عشرة مجالس تشريعية ونيابية . ولم تقم في غير هذه الاقطار حياة دستورية نيابية .

وبرع المستعمر الغربي في استغلال الفوضى الحزبية وعدم استقرار الحياة النيابية . فقد ادرك ان مصالح الاعيان اصحاب المصالح الحقيقية اصبحت تهددها الحياة النيابية الصحيحة اكثر من الاستعمار . وكان الملوك اسرع من الاعيان الى التزام جانب المستعمر بعد ان شعروا ان حراب الاستعمار هي السند الوحيد لتيجانهم . فتضافرت جهود المستعمر والاعيان والملوك على تشويه الحكم النيابي واثبات عدم صلاحية الشعب له وعدم ملائمته للشعب . فقالوا بان البرلمانية تهدد الشرق العربي بمستقبله وانها تفسد الاخلاق وتفقّر البلاد وتتنافى واستعداد الشرق . قالوا ان الازمة ليست ازمة رجال بل ازمة حكم ونظام .

وكانت المجالس النيابية تحت رحمة الوزارات كلما جاءت وزارة أصرت على على الاتيان بمجلس نيابي يلائمها . ولم يسحب مجلس نيابي الثقة من وزارة قائمة بل على العكس من ذلك اذ كانت المجالس هي التي تطلب ثقة الوزارات . ومع ذلك لم تكن الوزارات اكثر ثباتاً من المجالس النيابية . فقد عرفت سورية خمساً وخمسين وزارة ضمت اكثر من ١٥٠ وزيراً شكل نصفها من عام ١٩٤٣ وتراًس صبري العسلي خمس من وزارات العهد الاستقلالي واشترك خالد العظم بنصفها كما اشترك فيضي الاتامي بعشرة والعجلاني بسبعة وحسن جبارة بخمسة .

وشكل مثل هذا العدد من الوزارات في العراق ولكن نوري السعيد هناك تراًس اكثر من ربع الوزارات في تاريخ العراق كما اشترك برع آخر كوزير للدفاع او للخارجية . أما في مصر فلم يزد عدد وزاراتها قبل الثورة على الاربعين ووزارة نصفها في عهد فاروق الذي غير الوزارة في آخر نصف سنة من حكمة ست مرات . كذلك بلغ عدد الوزارات اللبنانية اكثر من خمس واربعين

وزارة . وزاد عدد وزارات الاردن على سبع وعشرين وزارة قام نصفها في
السنين الخمسة الاخيرة في عهد الحسين .

فلماذا كانت هذه الوزارات تتساقط بسرعة بحيث اصبح معدل عمر الوزارة
لا يزيد على نصف سنة ؟ هل حدث ذلك لان البلاد العربية كانت تتمتع بنظام حكم
غير صالح ؟ وهل فشلت حقاً النظم النيابية في البلاد العربية ؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد من العود الى الوراء قليلا لنرى لماذا وكيف
قامت هذه النظم النيابية . ونجد أن النظم البرلمانية لم تقم لاشراك الشعب في
تحمل مسؤولية الحكم ، وان الوزارات لم تستهدف افهام الشعب انها ليست
الاقساماً من الامة تخصص لقيادتها . ولم اجد من عالج هذا الامر بوضوح
وكشف الغطاء عن الحقيقة غير بدوي لا يقرأ ولا يكتب .

مر بدوي بأرض كانت ميداناً لمعركة من معارك التحرر العربي بصحبه
ابي حنيك كلوب . فقال البدوي لكلوب :

يا صاحب اتعرف هذه الارض .. هنا ثردالك الانجليز ثرداً ان هذه الارض
مانتبه الاراضي انها حمراء مشحونة بالاشلاء افتدري لم هذه التضحيات .. انا
أجييك لنؤسس حكومة عربية مستقلة .

فاجاب ابو حنيك : لقد تم لكم ذلك فلکم الآن حكومة ودستور و برلمان
ووزراء وموظفون فماذا تريدون غير هذا ؟

فاجابه البدوي ، ولكنهم يوطنون يا صاحب . ولطم جبينه بيده وصاح :
عوينت ابيكم يا ولد عمي .

وقد سيطر هؤلاء الذين يوطنون على الحكم واستهدفوا ضمان فشل الحياة
الحياة النيابية ليضمنوا عدم اشراك الشعب في الحكم . وكان سقوط الوزارات

وقيامها وحل البرلمانات والانتخابات كلها مناورات وتمثيلات غايتها الاولى اثبات الفشل . ولو دققنا في اسماء الوزراء والنواب لوجدنا نفس الاشخاص يروحون ويحيئون .

وتغير مفهوم النضال تبعاً لذلك وتحول من محاولة الاستعمار الى التفاهم معه والوصول الى كراسي الحكم . ويذكر أحد كبار العاملين سابقاً في الحقل الوطني في مصر كيف (اثرت تلك المحنة) في صحته . والمحنة في رأيه سقوطه في الانتخابات لا الاحتلال الاجنبي . ويقول هذا الوطني : زما احق المجاهد بالالام اذا هو رأي من مواطنيه تنكرا له حيث ينتظر منهم التقدير .. وتذكرت مصير اخوان لي في الجهاد وبرح بهم الالام لسقوطهم في الانتخابات فأودى بحياتهم . ودعاهم بشهداء الانتخابات .

وكانت المجالس النيابية طريقة في تشكيلها واعمالها . فاذا عرض قانون صعب ايجاد نصاب قانوني لدروسه وقد يفقد النصاب اثناء الدرس . ولا ضرب علي سبيل المثال ما حدث في البرلمان المصري عام ١٩٤٦ لدى القاء خطاب العرش . فقد تناوب النواب عندما ذكرت الانشاءات وان مصر ضحت وبذلت في سبيل الديمقراطية وان المعاهدة غير صالحة للبقاء ، وهتفوا هتافاً حاداً عندما اكد الخطيب ان المعاهدة الجديدة ستعرض على هذا المجلس لا على مجلس جديد وكذلك عندما نودي بعروبة فلسطين ، وضحكوا عندما نادى الخطيب بان مصوع وارترية مصريتان .

واعود فاستشهد ثانية برأى شيخ بدوى عن الحياة النيابية اذ سألته رئيس الوزراء في بلد عربي :

— هل انت ديمقراطي .

— لا والله انني لست مقرطيا فما معنى هذه الكلمة

— انا شيخ الديمقراطية

- اذا كنت شيخ المقاتلة فيجب ان اكون انا احدهم لاني في خدمتك على الدوام ولكن مامعناها .

- ان الديمقراطية تعني المساواة فليس فيها كبير ولاصغير والجميع في سوية واحدة .

- اذا كان الامر كذلك فالله يشهد انك لست مقاتلي .

وكان رئيس الوزراء اذ جاءه وفد صاح بهم باسم من تتكلمون ؟ ومن انتم لتتكلموا باسم البلاد ؟ عودوا الى بيوتكم واشغالكم انا صاحب البلاد .

وكان هدف كل حزب ووزارة عقد معاهدة مع الدولة الغربية . هذا كان هدف سعد زغلول ومصطفى النحاس في مصر . هدف رجال الكتلة الوطنية ومعارضهم في سورية ، وهدف فيصل والساسة في العراق بل وهدف الوطنيين في تونس ومراكش . فقد كان الاستقلال الداخلي وعقد معاهدة تنظيمية مع فرنسا هو هدف ابو رقية والثعالبي في تونس ويكاد هذا الهدف يبقى بدون تغيير من تاريخ تشكيل الحزب الجديد عام ١٩٣٤ الى ان قدم ابو رقية مطالبه السبعة عام ١٩٥١ ولم تكن هذه الاهداف قد تغيرت تغيراً محسوساً عندما عقد اتفاقية مع فرنسا في الثالث من حزيران عام ١٩٥٥ . وكذلك كان الامر في مراكش .

وفي مصر لم تتقدم الاماني المصرية قبل الثورة . فقد كان الهدف عام ١٩١٩ عقد معاهدة تحالف وصداقة . وكذلك كان هدف وزارة مصطفى النحاس عام ١٩٣٦ . وبعد عشر سنوات اعلن المتكلم باسم الوفد في مجلس الشيوخ ان اماني مصر هي عقد معاهدة مع بريطانيا متفقة مع الاحوال الدولية الجديدة .

واجمعت الهيئة السياسية المصرية على تبني هدف مماثل عام ١٩٤٦ . ولم يبلغ الوفد عام ١٩٥٠ المعاهدة الا بعد ان فشل في عقد معاهدة جديدة .

وفي سورية كان الهدف من سن الدستور الاول واجراء انتخابات هو عقد معاهدة لتنظيم الانتداب الذي هو تبادل حقوق وواجبات . وكان هذا هو هدف الحكومة الدستورية عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٦ . واعلن كاترو في حزيران ١٩٤١ ان سوريا دولة مستقلة ذات سيادة على ان تحدد علاقاتها مع فرنسا بمعاهدة . ولكن الحكومة الوطنية عام ١٩٤٥ ادهشت العرب قبل العرب حين رفضت ان تعقد معاهدة مع فرنسا وكانت اول حكومة عربية ترفض ذلك .

وما ان بويغ فيصل ملكا على العراق حتى اعلن ان هدفه هو عقد معاهدة تمكن عرى التحالف الذي قدسه دم الانجليز والعرب في الحرب ، وعقدت اول معاهدة عام ١٩٢٤ وقبل اقرار الدستور العراقي . ولم تكن المعاهدة الا تكراراً لمواد صك الانتداب . فالمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، و ١٥ هي نفس مواد صك الانتداب التي تحمل تلك الارقام وشابهت المادة الاولى من المعاهدة المادة الثالثة والثانية من صك الانتداب ، والثالثة الخامسة والرابعة الثامنة والخامسة التاسعة والعاشر الثانية عشر والتاسعة الخامسة عشر . واخيراً وقع نوري السعيد ، وهو موضع ثقة فيصل والانجليز ، معاهدة عام ١٩٣٠ لم تكن غير صورة لمشروع معاهدة محمد محمود هندرسون عام ١٩٢٩ التي رفضتها مصر ذلك العام وقبلتها معدلة لصالح بريطانيا بعد ستة اعوام . وهي التي شكلت اساساً للمعاهدة الاردنية عام ١٩٤٦ ومشروع المعاهدتين السوريتين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٦ . وبعد خمسة عشر عاماً من عقد هذه المعاهدة اعلن رئيس الوزراء العراقي ان العراق سيطالب بتعديل المعاهدة ليحقق ثلاثة مطالب رئيسية :

اولاً — حق العراق بتعيين سفراء .

ثانياً - حرية العراق في اختيار الخبراء .

ثالثاً - ضمان مساعدة بريطانيا على رفع مستوى الجيش وفي ميادين التنمية الاقتصادية .

وفي الخامس من كانون الثاني عام ١٩٤٨ دافع فاضل الجمالي عن معاهدة ١٩٣٠ ولكنه لم يعارض بتعديل بعض احكامها . ووقعت معاهدة جديدة في بورتسموت بعد عام من تصريح الجمالي ظهرت فيها المواد ١ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ و ١١ من معاهدة ١٩٣٠ تحمل في معاهدة بورتسموت الارقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ واسقطت المواد الاخرى من معاهدة ١٩٣٠ لانها استنفذت اغراضها . ورفض الشعب العراقي هذه المعاهدة . ولكن في تموز كانت العاصفة قد هدأت ووجهت نحو فلسطين وعاد صالح جبر واصدر نوري السعيد كتيباً للدفاع عن المعاهدة المرفوضة واعيد الوزراء الذين وقعوا المعاهدة الى الحكم . وبقيت معاهدة ١٩٣٠ سارية المفعول كامل مدتها . وحل محلها معاهدة جديدة وقعت في الرابع من العام نفسه . وانضمت الباكستان الى الحلف بعد سبعة اشهر .

ويلاحظ ان جميع المعاهدات المعقودة بين الدول العربية والدول الغربية كما هو ظاهر في الجدول المرفق تحوي الاسس التالية :

١ - انها معاهدات في السلم والحرب

وتقتصر مساعدة الحليف العربي على تسهيل المواصلات لحليفه الاوروبي .

٢ - منح الدولة الاوروبية قواعد عسكرية ومطارات .

٣ - تستعين الدولة العربية بالدولة الاوروبية على تدريب جيشها وتسليحه

ولا تستخدم خبراء اجانب الا من رعايا تلك الدولة الاوروبية .

٤ - حماية الاقليات .

٥ - تساعد الدولة الاوروبية الدولة العربية على الانضمام الى عصبة الامم وكل خلاف بينهما فيما بعد يحال الى العصبة .

٦ - لممثل الدولة الاوروبية حق الاولوية على غيره مما يجعله السفير الوحيد في البلد العربي ولا تتبادل الدول العربية مع الدول الاخرى الا وزراء مفوضين .

٧ - مدة المعاهدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد والتعديل على اساس دوام الحلف والصدقة .

واتخذ النضال شكلاً اقليمياً في اكثر البلاد العربية . فلم يبد الساسة في اي من البلدان العربية اهتماماً بنضال اي بلد شقيق . وتحمل كل بلد عربي ثقل الاستعمار وحده . ولعل الاستثناء الوحيد لاقليمية النضال العربي قبل تأسيس الجامعة العربية هو الثورة العربية الفلسطينية عام ١٩٣٦ . فقد استطاع عرب فلسطين ان يجعلوا من قضية بلادهم قضية عربية فاشتركت اكثر البلاد العربية في تلك الثورة وحارب في فلسطين اذ ذاك العراقي والاردني والسوري والمصري والمغربي . وكانت ثورة ١٩٣٦ في فلسطين اول مظهر عملي من مظاهر وحدة النضال العربي والتضامن العربي .

وتنادى العرب في كل مكان لنصرة عرب فلسطين . فشكّلوا لجان دفاع عن فلسطين في البلاد العربية وعقدوا في بلودان مؤتمراً شعبياً لنصرة عربها . واضطرت بريطانيا الى اشراك الدول العربية في مؤتمر لندن الاول لدرس القضية الفلسطينية عام ١٩٣٩ .

مقارنة بين صواعق المعاهدات بين الدول العربية والدول الغربية

المعاهدة	المعاهدة السورية	معاهدة مصر	بورنسموث	نوري السعيد	هندسون	النحاس	محمد محمود	
المعاهدة السورية ١٩٣٦	١٩٣٣	١٩٣٦	١٩٤٨	١٩٣٠	١٩٣٠	١٩٣٠	١٩٢٩	١٩٢٩
١	١	٤	١	١	٤.٢	٦.٢	٦.٢	معاهدة صداقة وسلم دائمين
٢	٢	٢	٠	٢	١٠	١٢	١٢	تبادل التمثيل الدبلوماسي
٤	٤	٦.٦	٢	٣	٥	٤	٤	التعاون في حالة خطر الحرب
٤	٤	٧	٣	٤	٧	٧	٧	التعاون في حالة الحرب
٥	٥	٩.٨	٠	٥	٨	٩	٩	حق الدول الغربية بحماية
٨.٤٣	١١.٤٣	٠	٠	٨	٦	٦	٦	مواصلاها ومصالها وقواعد عسكرية
								اعفاء الدولة الغربية من مسؤولياتها
								الدولية السابقة
٨	١٢	١٥	٦	١٠	١٣	١٥	١٥	الخلافات تحال الى العصبة او
								الى محكمة العدل
٧.٦	١٠.٩	١٦.٨	٧	١٣.١١	١٢.١٤	١٤.١٦	١٤.١٦	مدة المعاهدة ٢٥ سنة
—	—	١١	—	—	١٣.١١	١٣.١١	١٣.١١	السودان

براية وحدة النضال العربي :

نشبت الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي ازداد فيه تضامن الشعوب والدول العربية دفاعاً عن حق عرب فلسطين . وكان لابد لهذا التضامن من ان يظهر آثاره في ميادين اخرى غير قضية فلسطين . فقد طالبت الحكومة العراقية الحكومة البريطانية بجل قضايا سورية ولبنان وفلسطين وتعهدت مقابل ذلك باشتراك قوة عراقية في الحرب ضد المحور . ولما لجأ الانجليز الى القوة لخنق الحركة الوطنية في العراق عام ١٩٤١ تضامن العرب تضامناً رائعاً في العواطف على الاقل ، مع الشعب العربي في العراق .

وادركت بريطانيا ان التضامن العربي اصبح حقيقة واقعة وقوة يجب حسابها ويصعب مقاومتها فسعى لاستغلال هذه القوة الجديدة . ورأى المستعمر ان من الحكمة مهادنة الحركة القومية العربية ، بل وتشجيعها ضمن حدود معينة أملاً بالسيطرة عليها بواسطة العملاء لتوجيهها وجهة لا تتعارض ومصالح بريطانيا الاستعمارية . فصدر وزير الخارجية البريطانية المسترايدن تصريحاً في ١٩٤٣/٢/٢٥ اعلن فيه ان الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب يراد بها ايجاد وحدة اقتصادية او ثقافية او سياسية .

وبدأ رؤساء الوزارات العربية الحائزين على ثقة المستعمر مشاوراتهم لوضع مشاريع للوحدة . وانتهت هذه المشاورات بتوقيع بروتوكول الاسكندرية في ١٩٤٤/١٠/٧ الذي شوه ليصبح ميثاق الجامعة العربية في ١٩٤٥/٣/٢٢ . واعتقد الانكليز ان تأسيس الجامعة سيصرف العرب عن السعي لتحقيق الوحدة ويضمن بصورة عملية استمرار التجزئة باسم وحدة الصف العربي . واعترفت الدول العربية بالكيانات الاقليمية واعلنت حرصها على احترامها .

وبدأت قضية فلسطين تتحول الى مأساة عام ١٩٤٨ ، فانغتم اعداء القومية العربية الفرصة لتقويض فكرة الوحدة وهدم الجامعة العربية التي غدت رغم ارادة مؤسسيها رمزاً للوحدة . وحملت الدعايات المغرضة الجامعة مسؤولية المأساة الفلسطينية . ولكن الشعوب العربية ادركت ان الفشل لم يسببه وجود الجامعة بل سببه عدم وجود رابطة بين العرب اقوى من الجامعة . واستنكرت الشعوب الموقف المتخاذل الذي وقفته الدول العربية حينما تركت الجيش المصري يتلقى وحده ضربات العدر .

وشعر المستعمر بالخطر الجديد الذي يهدد مصالحه بعد ان قربت لمأساة بين العرب وزادتهم شعوراً بضرورة الوحدة ، فلجأ أول الامر الى اعوانه في العراق والاردن ومصر . ووافق على ارسال الجيش العراقي الى فلسطين لالنصرة عربها بل لابعاد الجيش عن بغداد ليتمكن انصار معاهدة بورتسموت واعوان نوري السعيد وصالح جبر من العودة الى الحكم . واتاحت له هذه المعركة فرصة نادرة المثال لتحطيم معنويات الجيش العراقي وتجريده من العناصر الوطنية . كذلك سمح الانجليز للملك عبد الله بارسال جيشه الى فلسطين لضمان تنفيذ التقسيم . وبينما كانت المأساة تمثل على أرض فلسطين ، والتصريحات الوطنية تطلق جزافاً في العواصم العربية ، كان الملك عبد الله مجتمعاً مع موشي ديان في الشونة وممثل له مجتمعاً مع ساسون في باريس ورئيس وزرائه مجتمعاً مع وزير خارجية مصر في بيروت والكل يضعون الخطط لتقسيم فلسطين .

ولكن الاستعمار لم يطمئن الى كفاية مايقوم به العملاء فدخل معركة سافرة ضد أماني العرب . فاحتجت المجلثا على محاولات مصر لتصنيع نفسها وادعت لنفسها الحق بالتدخل اذا ارادت مصر ان تصنع نفسها وتقترض ضرائب تسيء الى الصناعة البريطانية . واعترضت المجلثا على جعل اللغة العربية لغة

رسمية اجبارية في حسابات الشركات وطالبت بالسماح لعدد من الاجانب لا يقل عن ربع مليون بمزاولة نشاطهم في مصر بحماية سفاراتهم . ثم خطت الدول الاستعمارية مجتمعة خطوة اوسع واشد خطورة حينما ادعت لنفسها حق ضمان الكيانات الاقليمية لمنع قيام الوحدة اذ اصدرت دول فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة الاميركية في ١٩٥٠/٥/٢٥ ما يعرف بالبيان الثلاثي . ورحب الساسة العملاء بهذا التصريح واعتبروه ضماناً لسبع دول من الاعتداء الاسرائيلي . وفاتهم انه ضمان لاسرائيل من اتحاد قوة الدول السبع او العشر .

ولكن بالرغم من جهود المستعمر واعوانه فقد حقق العرب مكاسب كبيرة خلال السنوات العشر التي تلت تأسيس الجامعة العربية بفضل ازدياد التعاون وتوحيد النضال . فقد تم جلاء القوات الاجنبية عن مصر وسورية ولبنان والاردن والسودان . كذلك انتهت المعاهدات التي كانت تقيد استقلال مصر والاردن والسودان . وبعد ان كانت السعودية واليمن هما الدولتان العربيتان المستقلتان استقلالا تاماً عام ١٩٤٥ أصبحت الجامعة تضم الآن عشر دول مستقلة كلها اعضاء في هيئة الامم المتحدة . تم تحقيق كل هذا خلال فترة قصيرة نسبياً بينما لم يستطع اي قطر عربي ان ينال استقلالاً تاماً خلال مرحلة اقليمية النضال التي دامت اكثر من ربع قرن .

وبدأ كل شعب عربي يشعر انه ليس وحيداً في نضاله ضد الاستعمار ولم يعد هذا التأييد مجرد عواطف تعبر عنها هيئات شعبية بل غدا سياسة رسمية لكل دولة عربية بعد ان ادخلت اكثر هذه الدول في دساتيرها مادة تنص على ان شعبها جزء من الامة العربية . وظهرت وحدة النضال واضحة في تأييد العرب الرسمي والشعبي لاماني شعبي مراکش وتونس وفي يوم الجزائر التي تحميه الدول والشعوب لنصرة عرب الجزائر . وظهر هذا التعاون قوياً رائعاً في أزمة قناة السويس

وعندما تعرضت سورية لضغط ومؤامرات الدول الاستعمارية بادرت مصر الى ارسال قوة عسكرية لتجديتها .

وتبلورت وحدة النال بين شعبي سورية ومصر بوحدة سياسية فنشأت الجمهورية العربية المتحدة كنتيجة منطقية لذلك . ولم تعد الوحدة السياسية بين قطرين عربيين اذ اكثر مجرد مشاريع واحلام بل اصبحت حقيقة واقعة وثبت انها فكرة عملية سهلة التحقيق اذا توفرت الارادة الشعبية الحرة . هذا ما اثبتته شعبا سورية ومصر حينما دفعا حكومتيهما الى السير في طريق وحدة عربية ليست من صنع المستعمر ولا اعوانه . وكانت هذه الوحدة اولى نتائج مفهوم النضال الجديد ، المفهوم الذي نادى به رئيس مصر عام ١٩٥٥ وطبقه وتبنته عدد من الدول العربية والدول الشقيقة في آسيا وافريقيا .

ثالثاً - الدور العربي ومفهوم النضال الجديد

بقي العرب ثلث قرن رهن المحسنين : محبس التقاليد ومحبس الغرب . ولم يسيطر الغرب على البلاد والموارد فيحسب بل سيطر على الفكر السياسي العربي وحدد له المفاهيم التي تخدم اغراضه وبدأ النضال العربي يدور ضمن حلقة رسمها الغرب له . اراده الغرب ان يكون اقليمياً فتم ذلك ، وخطط له نوع الحياة السياسية التي يريد لها فبدأ العرب يناضلون لتحقيق الاهداف التي رسمها لهم الاستعمار الغربي .

ولا ينكر ان دعوات عديدة صدرت هنا وهناك لالترام الحياد في الصراع بين المعسكرات وعدم السير في فلك الدول المستعمرة . فقد درست مصر في شباط ١٩٣٩ امكانية الوقوف على الحياد في الحرب العالمية الثانية التي كان نشوبها متوقفاً ، ولكنها بادرت فور اعلان الحرب الى اعلان تمسكها بنصوص المعاهدة واخلاصها لخليفها بريطانيا كما قطعت علاقاتها مع المانيا . وقرر مجلس النواب

المصري في ١٢/٦/١٩٤٠ الوقوف على الحياد والتعاون مع الحليفة ! وطالب نواب وشيوخ مصريون في حزيران ١٩٤١ اعلان صفة اللاتحارب . ووقف الدكتور حسين هيكل في مجلس الشيوخ المصري في ١٤/١١/١٩٤٣ ليطالب بحياد كجihad سويسرا . كذلك رفض الجيش المصري التخلي عن اسلحته الثقيلة للجيش البريطاني رغم الضغط الشديد الذي وجه لضباطه . وزادت الحكومة المصرية على هذه المواقف موقفاً اشد جرأة عام ١٩٥٠ حينما قررت حكومة مصر الوفدية الوقوف على الحياد ابان الازمة الكورية فاوعزت الى مندوبيها في مجلس الامن بعدم تأييد الدول الغربية .

وفي تاريخ البلاد العربية في آسيا مواقف حيادية مشابهة لمواقف مصر . فقد حارل جيش العراق عام ١٩٤٠ التزام الحياد ومنع الحكومة من قطع العلاقات مع ايطاليا واصر قاداته على مساومة بريطانيا مطالبين بتحقيق امان شعبي سورية وفلسطين كضمن للتعاون . ورفضت سورية ولبنان كل ضغط لعقد معاهدة مع فرنسا عام ١٩٤٥ وتمكنتا من نيل استقلال تام غير مقيد بالمعاهدات ونادى احد الاحزاب السورية عام ١٩٤٦ بالوقوف على الحياد بين المعسكرين . كذلك دعا مجلس النواب الاردني الى مصادقة الدول الشرقية وقرر شكر مندوب الاتحاد السوفيتي في مجلس الامن على موقفه من قضايا العرب ولم يبال نواب الاردن بارهاب كلوب ولا بالتهديد بالحل .

ولكن جميع هذه الدعوات استهدفت مساومة الغرب لا مجافاته واعتقد الغرب ان العرب غير جادين في تهديداتهم . ولكن الغرب ذهل عندما قرأ في شباط نشرات سرية في مصر تحمل على مؤامرات الاستعمار الانجلو امريكي للقضاء على الحركة الوطنية في مصر . وتطور موقف هذه النشرات فنادت في ٢٢ آذار بسقوط التحالف مع الاستعمار وبسقوط الدفاع المشترك والضمان الجماعي في ظل الاستعمار ودعت في ١١ تموز ١٩٥٢ الى الحياد الصريح والكفاح المسلح .

وقامت الثورة في مصر بعد اثني عشر يوماً لتفسر مفهوم الحياد الصحيح بانه الاستقلال في السياسة الخارجية .

واعلن قادة الثورة في مصر في بلاغ مصري سوري مشترك صدر في ١٤/١٢/١٩٥٢ عزيمتهم ، بالاشتراك مع سورية ، على ان يثبتوا للعالم بان العالم العربي هو ملك لاهله لا يقبلون حماية ولا وصاية ولا ارتباطاً دائماً مع اية كتلة من الكتل الدولية .

ولكن هذه التصريحات والاقوال لم تتوحد الى افعال الا عام ١٩٥٥ . ولاول مرة في تاريخ العرب الحديث تحرر العربي من القيود التي ربطته طويلاً بالمستعمر وابقته في فلكه . فقد اعلن الرئيس عبد الناصر ذلك العام تحطيم القيود . ولم يكتف الرئيس بالخروج على تعليمات الدول الغربية بل ذهب الى الكتلة المعادية لها يفاوض ويحصل منها على ما امتنع الغرب من اعطائه اياه . وشعر الغرب لأول مرة ان ساسة العرب جادون وان العرب قد تحرروا لينطلقوا في فلك خاص بهم ، في فلك عربي . هذا هو مغزى صفقة الاسلحة التشيكية .

هكذا هدم جمال عبد الناصر ذلك السور الفولاذي الذي احاط زمنياً طويلاً بمفاهيم النضال العربية وحرر الفكر السياسي العربي من قيوده وغدا العربي يعمل لما فيه صالح العرب . وتوالت الضربات على السور . واحنى الساسة التقليديون رؤوسهم للعاصفة الجديدة امام ثورة العرب الجارفة تأييداً لسياسة جمال عبد الناصر التحررية . وما ان اعلن عبد الناصر تحطيم هذا السور حتى انطلق الشعب العربي في الاردن محطماً انصار حلف بغداد مجبراً الملك على تعريب جيشه واخراج كلوب وانهاء المعاهدة . وحتى نوري السعيد اضطر الى مقاطعة اجتماعات حلف بغداد التي تحضرها بريطانيا اثر الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

وعندما يذكر التاريخ جمال عبد الناصر فسيذكره وجلاء عظيماً . ولكن سر

عظمته لا يكمن في بناء السد العالي ولا في توحيد القطرين ولا في تأمين قناة السويس ولا في القضاء على الاقطاعية وكلها امور عظيمة تؤهل له لمكان مرموق في تاريخ العرب والعالم . ولكن التاريخ سيدكره رجلا عظيما لانه حرر الفكر السياسي العربي من عبوديته للغرب وللتقاليد وهدم السور الذي كان يمنع العرب من الانطلاق في آفاق التحرر والعزة والكرامة .

وتحدد مفهوم النضال العربي في المستقبل . فالتحرر والوحدة آتيان في وقت قرب ام بعد ولن تستطيع قوة ان تحول درن تحرر العرب واتحادهم . ولكن رسالة العرب ستكون صعبة وشاقة بعد التحرر كما ابان الرئيس عبد الناصر في خطابه في لميد الجامعة المصرية حين قال :

« اننا لانملك ان نتخلف اطلاقا عن العالم الجديد . ولقد بذلنا الكثير من التضحيات ودفعنا الكثير من الآلام لاننا تخلفنا .. لذا يجب ان نلاثم ما بين انفسنا وبين العصر الذي دخلنا فيه .. ولم يعد يكفيننا ان نتعلق بالماضي وانما علينا ان نتحول الى قوة خلاقة تأخذ وتعطي وتساهم في صنع المستقبل بطريقة ايجابية بناءة . »

وستحكم الاجيال المقبلة علينا وعلى نضالنا بمقدار ما قدم جيلنا من تراث علمي مجرد وبمقدرتنا على معرفة ما هو خير لامتنا وبمقدرتنا على توجيه نعم العلم والفن وضبط قوى الطبيعة وتسخيرها لخير امتنا .

١٩٥٩/١/٢١

القرآن عرني الخطاب إنساني الرسالة

للاستاذ محمد مبارك

عميد كلية الشريعة

مناسبات عديدة تجعل هذا الموضوع من موضوعات الساعة ، على ان القرآن هو القديم الذي لا تبلى جدته ولا تزول على الايام نضارته . واولى هذه المناسبات أن شهر رمضان يعيد ذكرى تنزل الكتاب الكريم حين كانت تنزل آياته غضة على قلب الرسول العظيم صلوات الله عليه وتنقل الى نفوس اصحابه فتفعل فيها فعل السحر الى ان انتهت الى ثورة كبرى في العقائد والمفاهيم والقيم والنظم .

وثاني هذه المناسبات ان العرب في هذا العصر بعد أن مروا بمرحلة اليقظة والوعي لارضهم ثم لقوميتهم وصلوا الى المرحلة التي يتحررون فيها كذلك من نفوذ المبادئ الاجنبية من ديمقراطية الرأسماليين المزعومة الى مادية الشيوعيين ، وبذلك بلغوا مرحلة الوعي لمبادئهم واصبحوا بحاجة ملء الفراغ الحادث بطرد الافكار والفلسفات الاجنبية . وانهم اليوم على مفترق الطرق يخشى عليهم العثار اذا لم يستقوا من النبع الاصيل الذي التقت فيه فطرتهم الانسانية ووحى السماء او فيض القدرة الإلهية التي تجلت في الكتاب العربي المعجز . ولكن بيننا وبين الكتاب العربي المبين حجبا كثيرة بنتها العصور والعادات والافهام الغربية حتى اصبح الكتاب الذي اقام في العالم ثورة شاملة لجميع نواحي الحياة اورادا تتلى والفاظا تلمس نتائجها بمجرد التلاوة .

ولنستطيع فهم القرآن فهماً عميقاً يتجاوب مع نفوسنا يجب ان نبعث الجو
العربي الذي نزل فيه ونتقص نفسية العربي القديم ونقف حيث وقف ونعيد
التجربة حية في نفوسنا ، لا أقصد تجربة الوحي فقد انقطع الوحي بانتقال الرسول
الكريم ﷺ ، ولكن تجربة التلقي والتجاوب النفسي لتكون تجربة حية .
ان هذه التجربة يجب ان تبدأ مناشئ تنقل الى غيرنا لان القرآن نزل بلغتنا .

ان تميز الامم بالارض او العرق لم يعد مميّزاً يتناسب مع ارتقاء الامم
وتقدمها وسيورها نحو الانسانية ولم يعد مقبولاً من الوجهة الاخلاقية وهو تميز
اقرب الى الابتدائية . اما المميز الحقيقي فهو الروح المعنوية والصيغة الانسانية
والمبدأ والعقيدة ؛ ويقاس وقي الامم بمقدار ما تحقق في نهضتها من مبادئ انسانية
وبمقدار اتساع مداها الحيوي في المجال الانساني وبمقدار تقدمها نحو الهدف
الانساني . فاذا اردت ان تقارن بين الروس والامريكيين والانكليز والعرب
فقدان بين الفهم المادي الجاف للروابط الانسانية في المادية الماركسية والسلوك
النفعي العملي للديمقراطية الامريكية والاستعلاء العنصري المستخفي وراء
الديمقراطية البريطانية والمثالية الانسانية المتجلية في الاسلام كما فهمه
العرب ودانوا به .

ان العرب يرون في القرآن المنبع الاصيل والمنهل الصافي وجمع القوى
المختزنة الكامنة التي تفجر في انفسهم انسانياتهم وتبعث روح الجهاد في سبيل
تحقيقها ولذلك كان دوماً هدف الشعوبيين اعداء العرب والمبادئ الانسانية ،
وكانت خطتهم في العصور القديمة وفي عهود الاستعمار الحديث اقصاء العرب عن
القرآن ومفاهيمه وتغطية ذلك بستار العلمانية او التقدمية او التحرر ، ولكنه
التحرر من الذات والانسلاخ من الجلد وانتجار الانسان بيده . ذلك ان القرآن
بالنسبة الى العرب معدن الاصاله ومصدر التجديد المتصل بالماضي والمستند الى
الانسانية الصحيحة والمستمد من مصدر الوجود .

لقد كان للقرآن ولا يزال اثر عالمي ولذلك فان العودة الى فهمه فهماً صحيحاً واعداده تجربته النفسية سيكون لها من جديد تأثير عالمي وسيكون لذلك اثر حاسم في تاريخ الحضارة ونتيجة هامة في صراع المبادئ والمذاهب وهذا الدور الحاسم انما يقوم به العرب انفسهم وهم اقوى من غيرهم على القيام به كما كانوا بالامس . وان منعهم عن القيام بهذا الدور الحاسم وفصلهم عن تجربتهم القرآنية الحية ، ان كان من الداخل فهو خيانة قومية ، وان كان من الخارج فخيانة للانسانية وتقدمها .

ان دور العرب في فهم القرآن وتفهمه ومسؤوليتهم في ذلك تأتي من كون القرآن عربي اللغة والخطاب . واثر القرآن العالمي ودوره في توجيه الحضارة وربط الامم بعضها ببعض يأتي من كونه انساني المبادئ والتعاليم ، ولذلك كانت من الضروري ليعود القرآن الى القيام بدوره في حياة العرب اولا وفي العالم ثانياً فهم هاتين المسألتين :

١ — القرآن عربي الخطاب

ونقصد بذلك انه عربي في لغته وطريقة خطابه ، لا انه توجه في خطابه الى العرب وحدهم . فقد وصف القرآن بكونه عربياً في عدد كثير من الآيات : (وكذلك انزلناه قرآناً عربياً) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) (انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً) .

ومعنى ذلك ان القرآن من حيث الفاظه وتراكيبه ، ومن حيث اساليبه

البيانة وطرائقه في التعبير عن المعاني يسلك مسلك العرب . ولذلك كان الاعتماد في فهمه على لغة العرب وعلى طريقته في اداء المعاني في كنيائهم ومجازاتهم واسرارهم وقصصهم وامثالهم والاعتماد في تفسيره انما يكون على الفهم العربي .

قال الامام الشاطبي في كتاب الموافقات : « ان القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه انما يكون من هذا الطريق خاصة لان الله تعالى يقول : (انا انزلناه قرآنا عربيا) وقال (بلسان عربي مبين) وقال (لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) . فمن اراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل الى تطلب فهمه من غير هذه الجهة) . وقال ايضا : « انه انزل على معهود العرب في الفاظها الخاصة واساليب معانيها » . وقال « انه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الاميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فان كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة »^(١).

ويتضمن عنصر اللغة هذا الفاظ اللغة ومفرداتها، وللافاظ في كل لغة مدلول ومفهوم يتصل بحياة أهلها، ويعجبني قول أحد علماء الهند في تحديد مفهوم (الحق) و (الصبر) عند العرب في تفسيره لسورة العصر حيث قال :

« واعلم ان الصبر عند العرب ليس من التذلل في شيء كما يصبر المضطهد العاجز بل هو أصل القوة والعزم وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى قال حاتم الطائي :

وغمرة موت ليس فيها هوادة يكون صدور المشر في جسورها
صبر ناله في نهجها ومصابها باسياقنا حتى يبوخ سعيها

وقال الاصبغ :

يا ابن الجحاجة المداره والصابرين على المكاره

وهذا كثير وفي القرآن بيّن معنى الصبر حيث قال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » فذكر من مواطن الصبر الفقر والمرض والحرب وذلك أصول الشدائد وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس كما مر بك في قوله تعالى ولمن صبر وغفر ^(١).

وتشمل اللغة التراكيب وأنواع التعابير والصور وهذه يجب أن تفهم كذلك فهما عربياً فلكل لغة تراكيبها الخاصة ولكل أمة تشابيهها وصورها ومجازاتها ومقاصدها في كلامها؛ وكثيراً ما أدى سوء فهم التعابير العربية والتشابه والمجازات في عصور الفهم الاعجمي للقرآن الى مذاهب منحرفة وتأويلات باطلة أخرجت القرآن عن نهجه القويم وفهمه العربي الصحيح . ذلك ان اللغة تخفي وراءها عادات أهلها والصور التي الفوها والمفاهيم التي تصوروها ولذلك كان من وسائل فهم القرآن الضرورية كما قال الشاطبي « معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل » ويقول الشاطبي موضحاً ذلك ببعض الأمثلة : « قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم وقوله أأمنتم من في السماء واشباه ذلك انما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الارض وان كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ما ادعوه في الارض فلا يكون فيه دليل على اثبات جهة البتة. ^(٢) » ويستنتج من ذلك ان « كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم

(١) كتاب امعان في اقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي

(٢) ج ٣ ص ٣٥١ .

القرآن في شيء»^(١) وحينما يناقش التفسير بالرأي ينتهي الى القول بجوازه بشرط ان يكون جاريا على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة ويعقب الشاطبي ذلك بذكر أمثلة من التفسيرات الباطنية التي خرجت عن الفهم العربي للقرآن . ولذلك يجعل مصادر تفسير القرآن السنة وتفسير السلف الصالح ان لم توجد السنة « فانهم اعرف به من غيرهم والا فمطلق الفهم العربي لمن حصله يكفي فيما اعوز من ذلك »^(٢).

وليست اللغة العربية من حيث مفرداتها وتراكيبها وحدها هي مصدر تفسير القرآن بل ان معرفة عادات العرب وبيئتهم التي كانوا يعيشون فيها ضرورة لفهم الكثير من آيات القرآن ، فعاداتهم واحكامهم قبل الاسلام منها ما أقره القرآن ومنها ما أبطله ونهى عنه .

قال الشاطبي : « ان العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس وكان لعقلائهم اعتناء بكارم الاخلاق واتصاف بمحاسن شيم فصحت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه وابطلت ما هو باطل » « وكان للعرب أحكام عندهم في الجاهلية أقرها الاسلام »^(٣).

هذا وقد تضمن القرآن أمثلة توضح مبادئه العامة وشواهد تبين قواعده السكينة وبراهين تؤيد عقائده وقد روعي في هذه الامثلة والشواهد والبراهين ان تكون مما يألفه العربي ويفهمه .

قال الشاطبي « لم يكتف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون

(١) ج ٣ ص ٣٩١ .

(٢) ج ٣ ص ٣٦٩ .

(٣) ج ٢ ص ٧١ و ٧٨ .

من سماء وارض وجبال وسحاب ونبات وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك...

« واخبروا بما انعم الله عليهم مما هو لديهم وبين ايديهم واخبروا عن نعيم الجنة واصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا... وبين من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم كالماء واللبن والحمر والعسل والنخيل والاعناب وسائر ما هو عندهم مألوف دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الارياض وبلاد العجم بل اجمل ذلك في لفظ الفاكهة .

« وقد كانوا عارفين بالحكمة وكان بينهم حكماء فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله ولم يجادهم الا على طريقة ما يعرفون من الجدل » (١) .

ويرى الشاطبي ان كون القرآن معجزاً لا يخرج عنه كونه عربياً جارياً على اساليب كلام العرب ميسراً للفهم (٢) .

ان كل ما ذكرناه من الامثال والشواهد والتشابه والقصص واساليب الكلام ليست الا وسائل لمقاصد القرآن الاساسية واهدافه كالايان بالله والحياة الآخرة ومسؤولية الانسان وحسابه ، وقد روعي في هذه الوسائل حال مخاطبين وكانوا عرباً ، واما مقاصد القرآن واهدافه الكبرى فهي عامة غير خاصة نعم جميع الامم وتصلح لكل الناس .

ولكن هذه الاهداف لا بد من افهامها للمخاطبين لينقلوها الى غيرهم ولهذا كان البدء بهم قال الله تعالى : (وانذر عشيرتک الاقربين) وقال (لتذراهم القرى ومن حولها) وقد من الله عليهم بان اختار منهم رسوله الى الناس كافة في قوله : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم

(١) ج ٢ ص ٧٨ و ٧٩

(٢) ج ٣ ص ٤٦ .

آياته . (آل عمران) وقوله « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم » . (الجمعة)

والاميون هم العرب كما عليه أكثر المفسرين في مقابل أهل الكتاب ولذلك جعل العرب حين خاطبهم القرآن الكريم مسؤولين عن حمل رسالته الى الناس فقد جاء في القرآن الكريم : « انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » (الزخرف)

ولا يستقيم المعنى الا بان يكون الخطاب موجهاً لهم وقد ورد في آية اخرى في السورة نفسها قوله تعالى (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقد بين ابن كثير في تفسيره ان المراد بقومه في الآية هم العرب ومن مجموع الآيتين تبدو مسؤولية العرب في التبليغ والتبليغ والتذكير وهذا التخصيص لا ينافي التعميم كما قال الشاطبي فان المبادئ والقواعد التي جاء بها القرآن عامة تصلح للبشر جميعاً ويستطيع كل من فهمها وتبلغها ان ينقلها الى غيره ويبلغها وينشرها وان كان العرب في ذلك اثقل حملاً واكثر مسؤولية وكذلك هم في تقصيرهم اشد وزراً .

٢ - القرآن انساني الرسالة

واما ما تضمنته رسالة القرآن من اهداف وغايات فهي انسانية عامة فالعقائد التي يدعو اليها والمبادئ الاخلاقية التي ينادي بها والنظم التشريعية التي يعلنها كلها انسانية عامة ، فالإله ليس إله قوم او قبيلة او شعب وانما هو رب العالمين ، خالق السموات والارض ، والرسول هو رسول الله الى الناس جميعاً لا الى جماعة أو قوم (قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً)

(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)؛ والناس كلهم عباد الله، خلقهم ذكرا وانثى وجعلهم شعوبا وقبائل؛ والانسان كما صورہ القرآن ليس هو الانسان العربي او الاعجمي والقرشي أو اليمني وانما هو الانسان في خلقته الاولى، الذي خلقه الله من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، الذي يخرج طفلا ثم يكبر حتى يرد الى ارض العمر هو الانسان الذي انشأ له السمع والابصار والافتدة والذي حببت له شهوات الدنيا « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والانعام والحراث » هو الانسان الذي اياه التكاثر واحب المال حبا جمعا؛ وحياته الواقعية هي التي وصفها القرآن بقوله : (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد)؛ والمجتمع الانساني الذي وصفه القرآن في صورته الواقعية ليس هو المجتمع العربي في زمن معين وانما هو المجتمع الانساني بوجه عام واليك بعض هذه الصور الاجتماعية الواقعية :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » .
 « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

« كم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » .

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قومآ آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين » .

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا لم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم

وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلا .

« فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة
وقصر مشيد افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان
يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا متوفينا ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرنا تدميرا . »

وكذلك صورة المجتمع المثالي الذي يرسمه القرآن انسانية عامة :
« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
واولئك هم المفلحون » .

« الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف
ونهاوا عن المنكر والله عاقبة الامور » .

وان النظام الاخلاقي والتشريعي الذي اقامه على اساس عقيدته ونظرته
العامة الى الله والوجود قد احتوى المبادئ العامة التي لا تختلف من شعب الى شعب
كالشورى في الحكم (وامرهم شورى بينهم) واداء الامانة واقامة العدل (ان
الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا
بالعدل) ومبدأ التعايش والتعارف والتعاون :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكروا نثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

ومبدأ تعايش الاديان وعدم الاكراه في العقيدة :

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبوءوهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وقد عرض القرآن المبادئ العامة للسلوك في شتى نواحي الحياة وهي كثيرة جداً كقوله :

« ولا تنازعوا فتفشلوا » .

« ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »

« ولا كنم في القصاص حياة » .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » .

« ولا تمش في الارض مرحاً »

« ولا تثر وازرة وزر اخرى » « وان ليس للانسان الا ما سعى »

« وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »

وان مبادئ إقامة العدل ومنع الظلم واتباع الحق وفعل الخير والتعاون والاحسان وغيرها منثورة في القرآن ، معروضة في صورتها العامة ومفهومها الانساني الشامل .

وتعرض القرآن لجميع قيم الحياة وحدد موقفه منها وهي القيم التي يواجهها الناس في كل العصور وجميع المجتمعات البشرية ، وتقيم عليها المذاهب الفلسفية والخلقية بناءها ؛ ومن امثلة ذلك ماورد في هذه الآية التي جمعت اهم القيم ذات التأثير في الحياة وهي القرابة والنسب والمال والتجارة والمسكن والارض مع بيان موقعها من المثل الاعلى المتجلي في حب الله والجهاد في سبيله « قل ان كان

آبائكم وابنائكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة
تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله
فتربصوا حتى يأتي الله بامرہ .

لقد اثار القرآن اهم مشكلات الانسان بل قضاياہ الكبرى وفي مقدمتها
المسؤولية ومصير الحياة (يحسب الانسان ان يترك سدى) (افلا يعلم اذا
بعثر مافي القبور وحصل مافي الصدور) (يحسب الانسان ان لن نجتمع عظامه
بلى قادرين على ان نسوي بنانه بل يريد الانسان ليفجر امامه يسأل ايان يوم القيامة » .

انها قضية الانسان الكبرى ، انه قلق المصير والتفكير في نهاية الحياة اللذين
اثارهما القرآن في النفس ومن وراءهما المسؤولية العظمى ؛ لقد تجاوز القرآن حدود
الامور المحلية والزمنية ، حدود البيئة التي نزل فيها والعصر الذي ظهر فيه وحلق
فوقها حتى كشف آفاق حياة الانسان بل آفاق الوجود وفلما تجد في القرآن اسماء
اعلام لاناس او لبلاد اللهم الا مايكون في القصص التاريخي حتى ان الصورة التي
اعطاها عن **الكون والطبيعة** واجزائها وان كانت صورة ليست غريبة عن
العرب ولكنها عامة غير خاصة فلا ترى في القرآن كما في الادب الجاهلي الصحراء
والناقة حيثما توجهت بل قلما تجد فيه هاتين الصورتين بل انك لترى صورة البحر
والفلك مواخر فيه اكثر منها :

« وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم
بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » « وهو
الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك
مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

« ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد
على ظهر » « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب
ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .

ثم استمع وتخيّل هذه الصورة الكثيفة الجامعة :

« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

هذه هي الطبيعة العامة التي نجدتها في كل مكان في شمسها وقمرها ، وليلها ونهارها ، وبرها وبحرها ، ونباتها وثمارها ، وانسانها وحيوانها .

ان غاية القرآن ، الذي يمثل آخر الرسالات ، يقاظ ضمير الانسان وربطه بخالقه واشعاره بمسؤوليته وتحريره من الجزئيات ليسير في مبادئ واتجاهات ، واقامة نظام حياته وسلوكه يستقيم عليه امره تستقر فيه العدالة وتتأمن الحرية ويتعاون البشر على اختلاف اجناسهم واقوامهم .

لقد اشعر القرآن العرب بانسانيتهم ، ليشعروا هم غيرهم بها وجعل الرابطة بينهم اولاً ثم بين الناس جميعاً هي الرابطة الانسانية لارابطة النسب والعصية والدم ولارابطة المال .

ونقلهم من اطار الصحراء والقبيلة الى اطار الكون والانسانية ومن مظاهر حياتهم الى اغوار انسانيتهم والى آفاق الوجود الرحبة الواسعة وبذلك استطاعوا ان يطلوا على الانسانية جميعاً من هذه الذرى العالية .

وان هذا القرآن الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والوجود مبنية على الاتصال بخالق ابدى منه البداية واليه المرجع والمآل وعلى مسؤولية الانسان عن عمله

واشتمل على مبادئ اخلاقية ونظام تشريعي مبني على المساواة والعدالة ان هذا القرآن الذي تضمن هذه الدعوة الانسانية لم يبدأ بالعرب لينتهي عندهم أو ليقيم تشريعاً على اساس التمييز العنصري وهو الذي دعا الى المساواة بين البشر قبائل وشعوبا ولكنه ابتداء بهم ليحملهم امانة ثقيلة واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر وليجعل منهم امة معلمة مرشدة تقود الناس الى الحق وتهديهم الى الخير وتدعوهم الى هذا الصعيد الانساني المشترك . لقد كان الشرف العظيم الذي اناله الله العرب ان يكون الرسول الانساني العظيم منهم وان يحملوا الرسالة التي انتهت عندها الرسالات وان يجعل الله لغتهم العربية لغة هذه الرسالة الانسانية حتي اصبح بين القرآن والامة العربية ولغتها صلة لا تنفصم ورابطة لا تنحل هي الصلة بين رسالة انسانية وامة مبلغة ولغة معبرة وان اهمال ما للعرب من موضع خاص في بناء الاسلام ، في فهم كتابه وتنفيذ مبادئه ، وما للغتهم من منزلة في فهم القرآن ، جهل بالاسلام وتاريخه واضاع للقاعدة التي يرتكز عليها كما ان فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه هو فصلهم عن تاريخهم وعن روحهم المتأصلة وينبوعهم الاصيل وتشويه وبتو لشخصيتهم ورجوع بهم عن مرحلة الرسالة الانسانية ، رجوع الى مراحل خلفوها وراءهم ولا تزال كثير من الامم الراقية واقفة عندها ، ولا يفعل هذا الا جاهل معرق في الجهل او شعوبي حاقد .

وخلاصة القول ان القرآن في مبادئه ومثله يخاطب الناس جميعاً ويتوجه الى البشرية على مر العصور فهو كتاب الانسانية المعجز وهو في الوقت نفسه كتاب العرب الخالد الذي يصلهم من جهة بالانسانية ومبادئها ويصلهم من جهة اخرى بالله الخالق الحكيم الذي « انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » فالقرآن الهى في مصدره انساني في مبادئه ورسالته عربي في خطابه وتعبيره .

إشتراكية الإسلام

للدكتور مصطفى السباعي

استاذ في كلية الشريعة

بما يتميز به عصرنا الذي نعيش فيه ، أنه عصر الاشتراكية ، فكثير من الدول تدعيها ، والاحزاب المنتمية اليها منتشرة في اكثر بلاد العالم ، وجماهير الشعوب تحلم بها وتحمس لها ، واكثر مفكري العالم يرونها الطريق الوحيد للخلاص مما يعانیه الجنس البشري من اضطراب اقتصادي وشقاء اجتماعي ، ولكن ما هي الاشتراكية ؟

إنها — كما تعلمون — متعددة المذاهب من متطرفة الى أقصى اليسار كالشيوعية ، ومن معتدلة ، ومن قريبة الى اليمين ، وأجمل ما قيل في تصوير هذا التعدد ، أنها تشبه مخلوقاً له عشرون رأساً ، ولست الآن في صدد التحدث عن مذاهبها والفروق بينها ، فذلك ما لا يتسع له وقت كوقت حديثنا هذا ، ويكفي أن نقول : إنها جميعاً تشترك في الايمان بوجود اشراف الدولة على استثمار المال في المجتمع ، وتحقيق التكافل الاجتماعي لجميع أبنائه ، حتى يتسنى لهم الاشتراك في حياة تضمن فيها كرامة الانسان ، واطمئنانه الى حاضره ومستقبله .

ونحن كأمة لها تشريع عالمي انساني ، وحضارة أضاءت للعالم طريقه عشرة قرون أو تزيد ، وهي الآن تتأهب للقيام بدورها الحضاري من جديد ، من

حقناً أن نتساءل : ما هو موقف الاسلام من الاشتراكية الحديثة ؟ إن بعض الناس يزعمون أن الاسلام بعيد عن « التفكير » الاشتراكي ، لانه أقر « الملكية الشخصية » وسمح « بالارث والملكيات الزراعية الكبيرة » بل قد زعم بعض الناس أن الاسلام « رأسمالي » يسمح للغني أن يتصرف بماله كما يشاء ، وقد التقى على هذا الزعم أعداء الاسلام من دعاة الشيوعية ، مع بعض أتباع الاسلام تلقاً للاقطاعية والرأسمالية .

فما هو الحق في هذه المسألة ؟ إن الجواب عنه هو موضوع هذا البحث ، وسنرى أن دينك الفريقين من أعداء الاسلام وأبنائه قد ظلماه ظمماً كبيراً ، وأن له « اشتراكية » واضحة المعالم ، ثابتة الدعائم ، تتميز عن كل المذاهب الاشتراكية الحديثة في جملة مبادئها ، وأكثر قوانينها وتشريعاتها .

إن « اشتراكية » الاسلام تتألف من :

١ - حقوق طبيعية لكل مواطن .

٢ - قوانين لضمان هذه الحقوق وتنظيم طرقها .

٣ - قوانين للتكافل الاجتماعي .

٤ - المؤيدات .

وسنبحث في عناصر هذه « الاشتراكية » بحثاً موجزاً نلّم فيه بخطوطها الكبرى ، تاركين تفصيلها وشرحها الى كتابنا الكبير الذي وضعناه لشرح هذه النظرية ، ونرجو أن يتم طبعه قريباً إن شاء الله .

١ - الحقوق الطبيعية

١ - حق الحياة

الحياة منحة الله للإنسان ، لا يملك أحد انتزاعها إلا بحق ، وهو حق المجتمع « انا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ^(١) » ولذلك فالعدوان على حياة انسان هو عدوان على المجتمع كله « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ^(٢) » وعدوان الانسان على نفسه بالانتحار جريمة اجتماعية ، وفيها من تحدى الله في قضائه وسلطانه ما يستوجب العذاب الاليم في الحياة الأخرى « ولا تقتلوا أنفسكم .. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً ^(٣) » .

ويتقرر على تقرير حق الحياة أحكام كثيرة منها :

١ - كل ما يتصل بالحياة ويؤدي الى بقائها ففعله واجب ، فصيانه الصحة العامة ودفع الأمراض ومكافحة الأوبئة واجب لصيانة الحياة .

٢ - كل ما يتلف الجسم ويفوت الحياة أو يضعفها فهو محرم ، كالسكر وتناول ما يضر الجسم ، حتى العبادة لا يجوز الاغراق فيها بحيث يضعف الجسم عن القيام بواجباته « ان لنفسك عليك حقاً وإن لجسمك عليك حقاً ^(٤) » « نفسك

(١) الحجر : ٢٣

(٢) المائدة : ٣٢

(٣) النساء : ٢٩ ، ٣٠

(٤) رواه البخاري وغيره

مطيتك فارفق بها ^(١) .

٣ - كل ما يحفظ الحياة فتناوله واجب كالطعام والشراب واللباس « كلوا واشربوا ولا تسرفوا ^(٢) » .

٤ - كل ما يدفع الموت عن الانسان ففعله مباح ، بل هو واجب اذا توقف دفع الموت على فعله ، فمن غصّ حتى خشي على نفسه الموت ولم يجد ماءً ، جاز له أن يشرب الخمر ، بل يجب عليه ذلك . ومن وجد الطعام في نافذة وليس له ما يوصله إليه إلا كتب العلم أو الحديث أو المصاحف كان له أن يصعد عليها ليتناول الطعام اذا خشي على نفسه الموت ^(٣) .

٢ - حق الحرية

يقرر الاسلام حق الحرية لكل انسان منذ ولادته ، وكل انسان تلازمه الحرية بفطرته ، ومن هنا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » ولا تنتزع من الانسان حريته إلا في ظروف طارئة تقتضيها حالة الدفاع المشروع عن حرية الأمة وكيانها ، حين يكون الاعداء ينتزعون من الامة حريتها عند انتصارهم عليها ، وبهذا كان الرق في الاسلام « جائزاً » لا واجباً في حال انتصار الامة على الاعداء في العصور القديمة معاملة لها بالمثل ، وحين يفرض الرق على الاعداء المغلوبين يكون ذلك انتزاعاً « حكماً » مؤقتاً للحرية ، ومن هنا يعرف الفقهاء الرق بأنه عجز « حكيم » أي لا حقيقي

(١) ذكره السرخسي في شرح كتاب الكسب للإمام محمد بلفظ « نفس المؤمن بطلته » وهو

خطأ مطبعي وصوابه « مطيته » انظر المبسوط : ٣٠ / ٢٥٠

(٢) الاعراف : ٣١

(٣) ابن عابدين : ٥ / ٢١٥

وحرية الانسان تعني نفي عبوديته لأحد أو لشيء في الدنيا إلا الله وحده ، وبذلك كان شعار الاسلام « لا إله إلا الله » وكان شعار المسلم « إياك نعبد وإياك نستعين » يقولها في اليوم ثلاثين مرة في صلاته ، وبذلك يتحرر الانسان من كل طغيان ومن كل قيم الحياة وأهواء النفس الباطلة ، وعبودية الانسان لأهوائه شر أنواع العبودية ، وفي ذلك ينكر القرآن على مثل هؤلاء عبوديتهم فيقول : « رأيت من اتخذ دونه هواه ؟ (١) »

وأساس الحرية حرية الفكر ، وعنوانها حرية العقيدة « لا اكراه في الدين (٢) » وحرية الانسان في وطنه « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين (٣) » ولا قيمة لوطن يستعبد فيه أهله ويستذلون . « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيهم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ (٤) » وحرية المواطن في النقد الاجتماعي « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر (٥) » وحرية في نقد الآراء واختيار أحسنها « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (٦) » .

وهذه الحرية مقيدة بمصلحة الجماعة كشأن كل حق طبيعي ، يخضعه الاسلام لمصلحة الجماعة .

(١) الفرقان : ٤٣

(٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) القصص : ٥

(٤) النحل : ٢٨

(٥) الحج : ٤١

(٦) الزمر : ١٨

٣ -- حق العلم

يوجب الاسلام على الناس ان يطلبوا العلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ^(١) » وعلى الجاهل أن يسأل العالم عن كل ما لا يعلمه « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ^(٢) » وليس في المجتمع - الذي يريده الاسلام - الا عالم أو متعلم ، أما الجاهل فلا مكان له في ذلك المجتمع « الناس اثنان عالم أو متعلم ولاخير فيمن عداهما ^(٣) » بل القرآن ينفي عن الجاهل العقل « تلك الآيات نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ^(٤) » ولا يقر الاسلام وجود الجاهلين بجانب العلماء ، بل عليهم ان يتعلموا منهم ، وعلى العلماء ان يعلموهم . خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن أقوام جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة ، ثم نزل ، فعلم صحابته انه انما أراد بذلك الاشعريين وهم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والاعراب ، فبلغ ذلك الاشعريين فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا يا رسول الله ، ذكرت أقواماً بخير وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ فقال عليه السلام : ليعلمن قوم جيرانهم .. وليتعلمن قوم من جيرانهم .. أو لأعاجلنهم العقوبة ! أعاد نفس الكلام السابق ، ثم سألوه ليعلموا هل هم المرادون من هذا الانذار ؟ فأعاد عليهم نفس الانذار السابق على عمومهم ، اشعاراً منه بأنه يضع مبدءاً لا يتقيد بجماعة معينة

(١) رواه البيهقي والطبراني

(٢) النحل : ٣ :

(٣) رواه الطبراني

(٤) العنكبوت : ٤٣ :

ولازمن معين ، بل هو عام لكل جماعة في كل زمن ، فلما أيقنوا ذلك قالوا :
 أمهلنا سنة ، فأمهلهم ثم قرأ عليه السلام : « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل
 على لسان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ، كانوا
 لا يتناهون عن منكر فعلوه ^(١) » وهذا صريح في أن الاسلام يعتبر الجهل
 منكراً لا يحق للدولة ان تقره ، وان على الدولة أن تحمل العلماء على التعليم
 والجهال على التعلم ، فاذا تخلف العلماء عن واجبهم في التعليم ، والجهال عن واجبهم
 في التعلم ، تفرض الدولة من العقوبات عليهم ما تزيل به آثار الجهل من المجتمع ،
 وهذا فيما نعلم أول حرب في التاريخ تعلن لمكافحة الامية ويحمل لواءها نبي أمي ،
 ان ذلك لعجيب !..

وبهذا تعلن اشتراكية الاسلام حق كل انسان في التعلم ، ووجوب ذلك
 عليه ، ويجمع الفقهاء على ان من العلم ماهو فرض عين على كل انسان ، وهو كل علم
 يحتاج اليه في شؤون دينه ودنياه ، ومنه ماهو فرض كفاية ، والقاعدة فيه أن
 كل ما يحتاج اليه المجتمع من علوم نظرية أو عملية ، يجب أن يكون في المجتمع
 من يعلمها حتى تندفع حاجة المجتمع اليها .

وقد تفرع على اعتبار العلم حقاً من الحقوق الطبيعية ، أن قرر الفقهاء أن
 نفقة طالب العلم الفقير واجبة على ابيه أو قريبه الموسر كنفقة الطعام واللباس
 والسكنى ^(٢) . وقرروا أيضاً أن كتب العلم من الحوائج الاصلية للانسان
 فلا زكاة عليها مهما بلغت قيمتها - ما لم تكن للتجارة - قال ابن عابدين رحمه الله

(١) الآية في سورة المائدة : ٧٨ والحديث رواه الطبراني وانظره مطولاً في مجمع

الزوائد : ١ / ١٦٤

(٢) انظر ذلك في بحث النفقات من شرح قانون الاحوال الشخصية للمؤلف :

١ / ٢٢٧

في تعليل ذلك: لان الجهل عندهم — عند العلماء — كالهلاك^(١) .

ونحب ان نلفت الانظار الى ان الاسلام لا يعتبر العلم الا ما كان يقينياً عن طريق من الطرق الثلاثة: طريق الخبر الصادق ، وطريق التجربة المشاهدة ، وطريق العقل والمنطق ، وبهذا صرحت الآية : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً^(٢) » .

وهذا فيما نعلم أول تحرير لحقائق العلم من الاوهام والظنون ، وأول بناء للعلم على قواعد التجربة والعقل واليقين .

٤ — هو الكرامة

يقول الله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً^(٣) » وهذا نص صريح في ان الانسان من اكرم المخلوقات ، وان كرامته ثابتة له بوصفه انساناً « بني آدم » أي بقطع النظر عن دينه او أصله أو لغته أو بيئته ، قال الآلوسي في تفسير هذه الآية : « أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن^(٤) » ونرى ان لفظ « كرمنا » من الكرامة لا من الكرم .

وهذه الكرامة لبني آدم تستلزم تساويهم في كل مظاهر الكرامة الانسانية

(١) رد المحتار : ٦/٢

(٢) الاسراء : ٣٦

(٣) الاسراء : ٧٠

(٤) روح المعاني : ١١٧/١٥

من صيانة العرض ، وحفظ المكنة ، وتيسير العيش ، وحق الاحترام ، فلايزري
 انسان بانسان ولايسخر قوم من قوم : «ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم
 عسى ان يكونوا خيراً منهم ، ولانساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن
 ولا تلمزوا انفسكم ولا تباذروا بالالقاب (١) » فالناس جميعاً من أب واحد وأم
 واحدة « يا أيها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلکم لآدم وآدم من
 تراب (٢) » فادا تعددت لغاتهم وتباينت أصولهم بعد ذلك ، فسبيل هذا التباين هو
 التعاون لا النزاع ، وهم أمام الحق والقانون سواء « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر
 وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمکم عند الله أتقاکم (٣) » وليست
 التقوى هنا صلاة وصياماً فحسب ، وانما هي فعل الخير للنفس وللناس جميعاً ،
 فمن كان أكثر خيراً لنفسه وللمجتمع كان أكثر — عند الله — فضلاً « الخلق کلهم
 عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله (٤) » .

والناس قد يتميز بعضهم عن بعض بالذكاء أو العمل أو النفع العام ، وهذا هو معنى
 قوله تعالى : « وهو الذي جعلکم خلائف الارض ورفع بعضکم فوق بعض درجات
 لیبلوکم فيما آتاکم (٥) » ولكن هذا سبيل للتفاضل عند الله وفي تقدير المجتمع
 تقديراً أدبياً كريماً ، وفي مطالبة أصحاب المواهب بأن يستعملوها في خدمة
 أمتهن ومصلحتها ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية السابقة « لیبلوکم فيما آتاکم »

(١) الحجرات : ١١

(٢) من خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع ، رواه البزار

(٣) الحجرات : ١٣

(٤) رواه البزار وأبو يعنى .

(٥) الانعام : ١٦٥

أما بالنسبة الى القانون فهم سواء، فالعالم اذا قتل جاهلاً يقتل به ولا عبرة بامتيازهِ عليه بالعلم ، والجاهل اذا قتل عالماً يقتل به وحده ولا يؤخذ معه غيره « النفس بالنفس »^(١) فلا نظر هنا حين تنفيذ القانون الا الى نفس قتلت نفساً ، وان كانت النفسان متفاوتتين في نفع المجتمع وافادة الناس .

وهذا التفاوت في المواهب والكفاءات والطباع والامكانيات هو سنة من سنن الحياة في عمران الكون ، به يخدم الناس بعضهم بعضاً ، كلٌ فيما يستطيعه ويحسنه ، فابن المدينة مسخر لابن القرية في جلب ما يحتاج اليه من سلع وحاجيات ، وابن القرية مسخر لابن المدينة في انتاج ما يحتاج اليه من مواد غذائية ، والأب مسخر لأولاده يطعمهم ويربهم ، والآباء مسخرون لأبائهم يعينونهم ويخدمونهم ، وهكذا شأن الناس بعضهم مع بعض ، وبذلك نطق الآية الكريمة « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً »^(٢) اي ليستخدم بعضهم بعضاً .

وبهذا يضمن تعاون المجتمع مع تعدد فئاته ، وتفاوت أحوال ابنائه ، ويتساوون جميعاً في الواجبات الاجتماعية والكرامة الانسانية من غير استثناء ، فليس في الاسلام رجال دين لا يخضعون للقانون ، وليس فيه أشراف لا يؤدّون عملاً ، وليس فيه أمراء لا تطولهم سلطة الدولة ، وليس فيه أغنياء ، لا يدفعون ضريبة ولا يبذلون جهداً ، بل الكل شعب واحد وقانون واحد ، ورئيس يخدم الشعب ، وشعب يؤازر رئيسه ويطيعه ، وشعار الحكم فيه ما أعلنه أبو بكر يوم ولي الخلافة « وليت عليكم ولست بخيركم .. القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق » .

(١) المائدة : ٤٥

(٢) الزخرف : ٣٢

٥ - حق التملك

حين يقرر الاسلام لكل انسان حق الحياة وحق الحرية وحق العلم وحق الكرامة ، وحين يقرر مع هذا أن ما في الكون مسخر للناس جميعاً « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه »^(١) حين يقرر الاسلام هذا كله انما يقرر حقاً خامساً لكل انسان وهو حق التملك ، ففي جو الحياة الحرة العاملة الكريمة يندفع الناس الى العمل ليكسبوا ما به قوام حياتهم ومعيشتهم ، لا يوصد باب العمل دون واحد منهم ، ولا تستأثر بخيرات الدنيا فئة منهم ، لكل انسان منها بحسب طاقته وجهده وكفاءته « وان ليس للانسان الا ما سعى »^(٢) فاذا حاز شيئاً منها كانت هذه الحيازة حقاً لا ينازع فيه ولا يغلب عليه .

القوانين المنظمة لهذه الحقوق

وحين تقرر اشتراكية الاسلام هذه الحقوق الطبيعية الخمسة لكل انسان ، تشرع له القوانين التي تنظم كل حق من هذه الحقوق وتضمن تأمينها لكل انسان على أكمل وجه وأتمه ، ومن هنا جاء في الاسلام القانون الجنائي والقانون الصحي لتنظيم حق الحياة ، وقوانين الحكم والتوجيه الاجتماعي والقانون الدولي لتنظيم حق الحرية ، وقوانين التعليم والتربية لتنظيم حق العلم ، وقوانين متعددة لتنظيم حق الكرامة ، وقوانين المعاملات من بيع ورهن وإيجار وغير ذلك لتنظيم حق التملك ، كما شرعت العقوبات المتنوعة لكل من يعتدي على حق من هذه الحقوق ، والمراد بالقانون مجموعة الأحكام المتعلقة بموضوع واحد^(٣) .

(١) الجاثية : ١٢ ، ١٣ (٢) النجم : ٣٩

(٣) وقد استعمله فقهاؤنا الاقدمون بهذا المعنى ، فابن جزّي ألف كتاباً في الاحكام الفقهية على مذهب مالك باسم « القوانين الفقهية » وكذلك استعمله القاضي أبو يعلى في كتابه « الاحكام السلطانية » انظر ص : ٢٢٠ ، ٢٢١

وسأكتفي الآن بالإشارة إلى المبادئ التي تقوم عليها قوانين التملك في اشتراكية الاسلام لأن ذلك أمس بالموضوع الذي نتحدث عنه .

٢ — مبادئ التملك

١ — الكون كله لله

قال تعالى : « الله ملك السموات والأرض (١) » « الله ما في السموات والأرض (٢) » . وهكذا تتوارد نصوص القرآن على أن كل ما في الكون من أموال ومنافع وأرض وبحار وشمس وأقمار ، ملك لله لا ينازعه فيه أحد ، وليست لهذه الملكية نتائج حقوقية ، وإنما هي لتحقيق غرضين ضروريين في هذا الصدد :

أولهما : نفي الغرور عن قلوب الناس حين يجوزون الأموال ، ويسعون وراء الثروة ، والغرور مبدأ شرور الحياة في المجتمع ، فاذا تذكر المؤمن دائماً أن مالك الملك هو الله وحده ، تطامنت نفسه وقل غروره .

ثانيهما : أن يلزم الناس بالتقيد بقوانين الشريعة في التملك طبقاً لما يريد صاحب الملك وهو الله عز وجل .

٢ — الكون مسخر للإنسان

قال تعالى : « وسخر لكم الفلك ليجري البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار

(١) الشورى : ٤٩

(٢) البقرة : ٢٨٤

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار» (١) «سخر لكم ما في الأرض» (٢) «سخر لكم ما في السموات» (٣) قال علماء اللغة: «السخرة ما سخرت من خادم أو دابة بلا أجر ولا ثمن، وسخرته في العمل استعملته مجاناً، وسخر الله الأبل ذلها وسهلها» هذا المبدأ - مبدأ تسخير الكون للناس - يؤدي غرضين مهمين أيضاً:

أولهما: أنه ليس في الكون شيء لا يصعب على الإنسان تناوله، إذا أعمل عقله وعلمه، ووجه لذلك همه وإرادته، فما على الإنسان بعد أن ذلل الله له الكون إلا أن يجتهد في الانتفاع منه واستثمار خيراته.

ثانيهما: أن الناس متساوون جميعاً في الاستفادة من خيرات الأرض والسماء، مادام الخطاب للناس جميعاً، والله قد بذلها لهم من غير ثمن، وذللها لهم من غير تمييز بين فئة وفئة أو أمة وأمة.

٣ - المال وسيلة للخير

ليس المال غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج، فمن استعمله في هذا السبيل كان المال في يده خيراً له والمجتمع، ومن استعمله على أنه غاية ولذة، انقلب إلى شهوة تورث صاحبه المهالك، وتفتح على الناس أبواباً من الفساد. وللإشارة إلى هذا المبدأ الخطير من مبادئ التملك، عبر القرآن عن المال بالخير في مثل قوله تعالى: «كتب عليكم - إذا حضر أحدكم الموت - إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف» (٤) قال المفسرون:

(١) إبراهيم: ٣٢ - ٣٣

(٢) الحج: ٦٥

(٣) الجاثية: ١٣

(٤) البقرة: ١٨٠

المراد بالخير هنا المال ، وهذا بلا شك تنبيه الى وجوب الحصول على المال من طريق الخير ، واستعماله في طريق الخير ، وبوصفه خيراً رغب الاسلام في تملكه « نعم المال الصالح للرجل الصالح »^(١) والمال الصالح هو الذي لم يجمع من طريق فيه ظلم ولا خداع ، والرجل الصالح هو الذي ينفق ماله في سبيل الخير والصالح . ويشير القرآن الى أن الناس — في الأكثر الأغلب — ينظرون الى المال على أنه شهوة « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة »^(٢) وبهذا الوصف يكرهه الاسلام . وهو بهذا سبب شقاء الأمم والشعوب .

٤ — الفقر مرض اجتماعي

إذا كانت خيرات الارض في متناول الناس جميعاً ، وكان كل انسان قد قدر الله له من خيرات الكون رزقاً ونصيباً « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها »^(٣) وكان المال وسيلة الى الخير وتيسيراً لمنافع الناس ، كان من واجب الانسان أن يسعى ليكتسب ويحصل على المال ، ولا عذر لاحد في ترك العمل بحجة ان الله قد كتب عليه الفقر ، أو أنه غير محظوظ ، أو أن ظروف الحياة القاسية تقف عقبة كأداء في وجهه دون السعي والعمل ، فالفقر مرض اجتماعي وليس قدراً مقدوراً لا حيلة في دفعه بسعي أو كسب ، لقد أمر القرآن بالسعي في الارض « وهو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »^(٤) فلا يكون الفقر بعد ذلك إلا لاحد أمرين : إما كسل وخمول وهذا لا يقره الاسلام ، واما لعجز عن العمل أو فقدان وسائل العمل ، وهذا

(١) رواه البخاري في الادب المفرد : ٨٤

(٢) آل عمران : ١٤

(٣) هود : ٦

(٤) الملك : ١٥

قد وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعي ما يدفع بؤسه ويحفظ له كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر قوله عليه الصلاة والسلام : « كاد الفقر ان يكون كفراً ^(١) » وكان من دعائه عليه السلام : « اللهم اني اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل ، واعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق ، واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون وسيء الاسقام ^(٢) » وفي دعاء آخر للرسول عليه السلام : « اللهم اني اسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ^(٣) » وهذا انتقال من موقف السلبية تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه وهو الغنى . وان في طلب الرسول للغنى وهو قدوة الزهاد في الدنيا ، لدلالة بعيدة الاثر في هذا المقام .

٥ - العمل أهم وسائل التملك

لتملك المال وسائل من أهمها في نظر الاسلام العمل « إن أفضل الكسب كسب الرجل من يده ^(٤) » ولا يجوز لاحد أن يسأل الناس وهو قادر على الكسب ، وبذلك كان العمل في الاسلام شرفاً وواجباً .

٦ - تأميم الموارد الضرورية

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار ^(٥) » وفي حديث آخر « والملح » ويلاحظ أن هذه الاشياء مواد

(١) رواه ابو نعيم في الحلية

(٢) رواه الحاكم والبيهقي

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه

(٤) رواه البخاري

(٥) رواه احمد وابو داوود

ضرورية لحياة الناس وخاصة سكان الصحراء في تلك العهود ، وليس النص على هذه الاشياء للخصر ، بل قواعد الشريعة تقضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضرورياً للمجتمع لا يصح أن يتروك لفرد أو أفراد تملكه اذا كان ينشأ عن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور اليه ، بل يجب ان تشرف الدولة على استثماره وتوزيعه على الجمهور .

٧ - - طرق التملك

يسمح الاسلام بكل طريق يسلكه الانسان للتملك إلا ما كان عن الطرق التالية :

١ - الظلم ، ولذلك حرم الاسلام الربا والقمار والاحتكار والغصب والسرقة وما أشبه ذلك .

٢ - الغش ، ولذلك حرم الاسلام التغرير عند البيع كما حرم اخفاء العيب في السلعة والكذب في رأس المال وغير ذلك من البيوع والعقود المحرمة التي التي يقع فيها الغش والخداع

٣ - الاضرار ، سواء كان اضراراً بالفرد ، أو اضراراً بالمجتمع ، أو اضراراً بكيان الدولة العام ، ولذلك حرم الاسلام أجر البغي ، والاتجار بالخنزير ، والاتجار مع العدو ، وهكذا ..

٨ - - التملك وظيفة اجتماعية

كما يفرض الاسلام رعاية مصلحة المجتمع عند تملك المال ، يفرض رعاية مصلحة المجتمع أيضاً بعد التملك ، لان المال لله ، والانسان مؤتمن عليه « وأنفقوا بما

جعلكم مستخلفين فيه ^(١) » فإد المال يد استخلاف ، والله جعل المال وسيلة للخير ، فلا يصح أن يستعمل إلا في الخير أي مصلحة المجتمع ، وبذلك تكون الملكية الشخصية - في نظر الاسلام - وظيفة اجتماعية .

٩ - الحجر على السفهاء

يحتم الاسلام أن ينفق الانسان من ماله على نفسه في حدود الاعتدال لا سرف ولا تقتير « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ^(٢) » فان بذر وأخذ في تبديد ثروته على أهوائه وملذاته وجب الحجر عليه لانه سفيه ، والحجر هو منع الدولة لهذا السفيه أن يتصرف في ماله كالعقلاء الراشدين ، واقامة قيم عليه يمنعه من التصرف حتى يفيء الى رشده ، وأصل هذا قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ^(٣) » ويلاحظ في هذه الآية اضافة أموال السفهاء الى المجتمع (أموالكم) ثم وصفها بأن المجتمع قيم عليها (التي جعل الله لكم قياماً) وهذا دليل واضح على ما قلناه في المبدأ السابق من أن التملك وظيفة اجتماعية .

١٠ - كراهية تكديس الثروات

يكره الاسلام تكديس الثروات في أيدي قليلة في المجتمع لما يؤدي اليه ذلك من ترف وفساد واستغلال ، يقول الله تعالى في وجوب اعطاء الفقراء نصيباً من الغنائم « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم ^(٤) » ولما جرى الخلاف بين

(١) الحديد : ٧

(٢) الأعراف : ٣١

(٣) النساء : ٥

(٤) الحشر : ٧

الصحابة في تقسيم أراضي العراق والشام على الفاتحين في عهد عمر، كان رأيه عدم تقسيمها وابقاءها في أيدي المغلوبين على أن يكون عليهم خراجها، ووافق على ذلك بعض الصحابة ومنهم معاذ بن جبل الذي قال لعمر « انك ان قسمتها صار الريع العظيم في أيدي هؤلاء القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد أو المرأة^(١) » أي وبذلك يقع ماكرهه الاسلام من تكديس الثروات في أيدي قليلة كما تدل عليه الآية المذكورة.

١١ - الملكية المشروعة مصونة

فإذا جمع المال من الطريق المشروع، وأنفق منه صاحبه بالاعتدال، كان ما بقي منه في يد صاحبه مصوناً تحميه الدولة وقوانينها، وعلى المجتمع أن يحترم ملكيته لذلك المال « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل^(٢) » ولا تمسه الدولة إلا لحق الشعب وضرورات المجتمع كما سيأتي.

١٢ - وجائب التفاضل الاجتماعي

ومع احترام الاسلام للملكية الشخصية، فقد جعل في الثروات الخاصة حقوقاً للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات، لتحقيق التكافل الاجتماعي وغيره مما تحتاجه الدولة، ولذلك جاءت فريضة الزكاة وغيرها مما سنعه بعد عند بحث قوانين التكافل الاجتماعي.

١٣ - مشروعية الإرث

إذا بقي لدى صاحب المال شيء فائض عن حاجة صاحبه وحاجة المجتمع، ثم

(١) الاحوال لابي عبيد : ص ٥٩

(٢) البقرة : ١٨٨

أدركه الموت فقد انتقلت ملكية ذلك المال الى ورثته ، وهنا يجيء قانون الارث مبيناً كيفية تقسيم هذا المال بين الورثة ، ويلاحظ على قانون الارث في الاسلام أنه يشرك عدداً كبيراً من أقرباء الميت في التركة ، ولا يحصره في طبقة معينة منها كما هو شأن أنظمة الارث في اكثر شرائع العالم ، وهذا مما يؤدي حتماً الى تفتيت الثروات مهما كانت كبيرة وتقسيمها الى ملكيات صغيرة .

١٤ -- مق الحزاة العامة

إذا مات المالك عن غير وارث انتقلت ملكية المال الى الدولة وكان من موارد بيت المال التي تنفق لتحقيق التكافل الاجتماعي .

يتضح مما ذكرناه من تقرير الحقوق الطبيعية ، ومن مبادئ التملك أن الاسلام قرر من الحقوق ما تتحقق به تكافؤ الفرص لدى كل انسان ، كما جعل من اشراف الدولة على تملك المال وجوده انفاقه ما يجعل هذا التكافؤ حقيقة واقعة في المجتمع ، وقد قلنا ان هذا هو هدف الاشتراكية في جميع مذاهبها ، وبهذا يثبت أن في الاسلام « اشتراكية » ولكنها من نوع متميز عن جميع المذاهب الاشتراكية المعروفة ، فلنتابع التعرف على ملامح هذه « الاشتراكية » واضحة جليلة في قوانين التكافل الاجتماعي .

٢ - النافل الاجتماعي

يعتبر الاسلام المجتمع وحدة متماسكة ، ما يصيب بعضه يصيب كله ، ولا تكون قوته بقوة أفراد ، وقد جاء في ذلك قوله تعالى : « انما المؤمنون إخوة » (١)

وقوله عليه الصلاة والسلام « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر »^(١) وشعار المجتمع الذي يريده الاسلام « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »^(٢) ولتحقيق هذا التعاون والتكافل تقضى الاسلام كل الفئات التي تحتاج الى عون المجتمع وعنايته فشرع لها من القوانين ما يحقق لها حياة كريمة لا ينقصها حق من الحقوق الخمسة التي تقوم عليها اشتراكية الاسلام . وهنا يأتي الحديث عن قوانين التكافل الاجتماعي في الاشتراكية الاسلامية .

تنقسم هذه القوانين الى نوعين :

أ - قوانين التكافل الاجتماعي

وهي التي تنص على الرعاية الواجبة وتحقيق التكافل الاجتماعي لكل فئة من الفئات التالية :

- ١ - الفقراء ، ٢ - المرضى ، ٣ - العميان ، ٤ - المقعدين ، ٥ - العجزة
- ٦ - المشردين ، ٧ - اللقطاء ، ٨ - اليتامى ، ٩ - الاسرى

وقد وضع الاسلام لكل فئة من هذه الفئات قانوناً يضمن كرامتها ويضمن حقها في التكافل الاجتماعي . وسنشرح هذه القوانين واحكامها في كتابنا الشامل عن هذه النظرية ان شاء الله ، ومن هذا النوع قوانين لاعانة فئات قد لا تتصف بالفقر ، ولكنها تحتاج الى بعض المساعدات الاجتماعية ، من ذلك :

(١) رواه مسلم وأحمد

(٢) المائدة : ٢

١٠ - قانون النكاح الفردي

وهو يشمل :

- ١ - المدين اذا لزمته الديون بسبب التجارة ، أو بسبب بعض الاعمال الاجتماعية ، كما اذا تحمل زعيم في منطقة ما ، ديات القتلى من المتخاصمين لصيانة الدماء وإحلال الوئام محل النزاع ، أو تحمل الاموال لعمل المبرات والخيرات الاجتماعية ، فإن ديونه تسدد حق بيت المال وهو داخل في قوله تعالى « والغارمين »
- ٢ - القاتل اذا قتل خطأ ، فان دية القتل لا يتحملها وحده ، بل تتحملها عاقلته وهم عصبته من أقربائه أو أهل ديوانه أو أهل نقابته ، على تفصيل يعرف في موضعه من كتب الفقه .

- ٣ - المنقطع في بلد غير بلده ، ويسمى « ابن السبيل » فيعان حتى يصل الى بلده ولو كان فيها غنياً .

١١ - قانون الضيافة

وحكم الضيافة في الاسلام أنها واجبة - عند بعض العلماء - أو سنة عند أكثرهم ، لليلة واحدة بإكرام زائد ، ثم لثلاثة أيام بالحالة المعتادة ، وما زاد على ذلك فهي متوقفة على ارادة من ينزل عليه الضيف ، وأصل ذلك قوله عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام وما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده (يقيم) حتى يحرجه » ^(١) قال مالك في قوله عليه السلام : « جائزته يوم وليلة » يتحفه ويكرمه ويخصه يوماً وليلة ، وثلاثة أيام ضيافة .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما

وقال ابن حزم : الضيافة فرض على البدوي والحضري يوم وليلة مبرة واتحاف ثم ثلاثة أيام ضيافة (١) .

وقد كانت الضيافة في العصور الماضية ضرورة من الضرورات الاجتماعية وخاصة في القرى والصحارى تأميناً لهذا الحق الاجتماعي وهو الاكل والمبيت للمسافرين ، وقد كانت تفرض في معاهدات الصلح ولهذا دلالاته الكبيرة .

ولا تزال كذلك في عصرنا الحاضر في بعض الحالات كالقرى النائية او الصغيرة التي ليس فيها فنادق أو مطاعم ينام فيها المسافرون ويأكلون .

١٢ - قانون المصاركة

وذلك حين يحين وقت المواسم الزراعية وخاصة الثمار والفواكه . فان من حق المواطنين الذين لا يجدون ما يشترون به الثمار إبان قطعها لغلاء ثمنها أن يأكلوا منها من غير ثمن . وأصل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده » وقد نقل القرطبي عن بعض الصحابة والتابعين القول بذلك ، ورواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، وقال مجاهد : اذا حصدت فحضرك المصاكين فاطرح لهم من السنبل واذا جذدت فآلق لهم من الشماريخ ، واذا درسته وذريته فاطرح لهم منه (٢) وكان الصحابة في عهد الرسول ﷺ يأتي كل واحد من اصحاب النخيل ، بقنو (العذق كالعنقود من العنب) عند جذاده ثم يعلقه على باب المسجد يأكل منه من يشاء (٣) .

(١) المحلى : ١٧٤/٩ (٢) انظر تفسير القرطبي : ٩٩/٧ و١٠٠٠ وانظر الخراج

ليحيى بن آدم القرشي : ١٢٤ والآية في الانعام : ١٤١

(٣) معالم السنن : ٧٥/٢

وكذلك حين تقسم التركة بين الوارثين ويحضرها من لا يرث ولو كان غير قريب اذا كان فقيراً، فيجب على الوارثين ان يعطوا هؤلاء منها شيئاً عملاً بقوله تعالى « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » قال القرطبي : بين الله تعالى - في هذه الآية - أن من لم يستحق ارثاً وحضر القسمة ، وكان من الاقارب أو اليتامى والفقراء الذين لا يرثون أن يكرموا ولا يجرموا ان كان المال كثيراً ، والاعتذار اليهم إن كان عقاراً أو قليلاً لا يقبل الرضخ (العطاء) وان كان عطاء من القليل ففيه أجر عظيم ، وقد نقل عن عدد من الصحابة والتابعين والفقهاء القول بهذا ، قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين عند قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتامهم ومساكينهم من الوصية ، فان لم تكن وصية وصل لهم من الميراث . ثم ذكر الخلاف في أن ذلك واجب أو مندوب ^(١) .

١٣ - قانون الماعون

يقول الله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم براءون ويمنعون الماعون ^(٢) » الماعون كل ما ينتفع به من شؤون البيت وغيره ويستعيده الناس فيما بينهم كالفأس والقدور والدلو وأمثالها ^(٣) . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : اي لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا الى خلقه حتى ولا باعارة ما ينتفع ويستعان به مع بقاء عينه وجوعه اليهم . وعن مجاهد قال : على الماعون الزكاة وكذا روي عن علي وابن عمر وبه يقول كثير من التابعين ، وبعد أن ذكر ما جاء من اقوال كثيرة في تفسير الماعون قال : وقال عكرمة

(١) انظر تفسير القرطبي : ٨/٥ ، ٩ ، والآية في سورة النساء : ٨

(٢) سورة الماعون : ٥ - ٧

(٣) تفسير ابن كثير : ٤/٥٥٥

رأس الماعون زكاة المال وادفاه المنخل والدلو والابرة وهذا الذي قاله عكرمة حسن فانه يشمل الاقوال كلها وترجع كلها الى شيء واحد وهو اي - منع الماعون - ترك المعاونة بمال او منفعة (١) .

وقال الخطابي : يقال في تفسير الماعون انه الشيء الذي لا يجوز منعه من الارفاق (المنافع) التي للناس فيها متاع . ثم ذكر حديثاً عن النبي ﷺ « وما من صاحب إبل ولا غنم لا يؤدي حقها الخ » فسئل رسول الله ﷺ : فما حق الابل ؟ قال : تعطى الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتطرق الفحل ، وتسقى اللبن (٢) .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب والحسن وقتادة وغيرهم من فقهاء التابعين أن زكاة الحلي اعارته (الاموال : ٤٣٣)

١٤ — قانون ارفعاف

يقول تعالى : « وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم » (٣) وقد قرر الفقهاء أن الزواج واجب على من كان في حاجة اليه ويخاف على نفسه الوقوع في الحرام ، ثم ان كان فقيراً لا يجد نفقات الزواج وجب على قريبه الموسر تزويجه كما تجب عليه نفقة طعامه ولباسه وسكنائه - وهذا هو رأي جمهور العلماء - حتى لو كان له رقيق وجب عليه تزويجهم رجالاً كانوا أم نساء ، اذا طلبوا ذلك لحاجتهم الى الزواج ، أما الاب فعلى الابن تزويجه اذا احتاج الى ذلك ،

(١) المرجع السابق : ٥٥٦/٤

(٢) معالم السنن شرح ابي داود ٧٥/٢١ والغزيرة الكثيرة اللبن والمنيحة الشاة اللبون أو الناقة ذات الدر تعار لدرها فاذا حلبت ردت الى رها ، واقفار الظهر اعارته للركوب حتى يبلغ الراكب حاجته ، واطراق الفحل اعارته للضراب لا يتمه اذا طلبه ولا يأخذ عليه عسبا

(٣) النور : ٣٢

وعلى الابن نفقة زوجته ايضاً ، وأما الابن فعلى الاب تزويجه في رأي جمهور الفقهاء (انظر احكام ذلك في نظام النفقات من كتابنا شرح قانون الاحوال الشخصية : ٢١٩/١ - ٢٥١) وسيأتي معنا في فصل الواقع التاريخي بيان ما كان يوقف خاصة لتزويج الفتيان والفتيات الفقراء .

وهناك قوانين للتكافل الاجتماعي في الحالات النادرة والطارئة ، ولنتكلم عنها بكلمة موجزة .

١٥ - قانونه الوصافي

إذا جاع انسان أو عطش أو مرض بحيث أشرف على الهلاك ، وجب على من يعلم بحاله أن يبادر الى انقاذه ، فإن كان عنده فضل من طعام أو شراب أو دواء أو مال يشتري به ما يدفع الهلاك عن ذلك الانسان وجب ان يدفعه اليه ، فإن امتنع كان لذلك المضطر أن يأخذه منه عنوة ويقاتله عليه ، فإن قتل كان على المانع القصاص ، وإن قتل المانع لم يكن على قاتله المضطر شيء .. وعلى هذا اتفاق العلماء ، قال ابن حزم : « من عطش فخاف الموت ففرض عليه ان يأخذ الماء حيث وجدته وأن يقاتل عليه ، ولا يحل لمسلم اضطر ان يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه ، لأن فرضاً على صاحب الطعام اطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل (الجائع) فعلى قاتله القود (القصاص) وإن قتل المانع فالى لعنة الله ، لأنه منع حقاً وهو طائفة باغية ، قال تعالى « فإن بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفى الى أمر الله »^(١) وما منع الحق باغ على أخيه الذي له الحق^(٢) »

(١) الحجرات : ٩

(٢) المحلى : ١٥٦/٦

وهذا انما يتصور في مكان كالصحراء أو حيث لا يجد طعاماً ، أو حيث لا يقوم بيت المال بواجبه في التكافل الاجتماعي ، أو يتخلى المجتمع عن القيام بهذا الواجب .. وهذا حق لامراء فيه .

ومما يؤيده — عدا عن النصوص والقواعد العامة في الشريعة — ما حدث في عهد عمر بن الخطاب إذ ورد جماعة على ماءٍ وكانوا في حالة من العطش أشرفوا فيها على الهلاك هم ودوابهم ، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا لهم بالشرب منه ، فلما وفدوا على عمر أخبروه بالامر ، فقال لهم : « هلا وضعت فيهم السلاح ؟ »^(١).

« ومن اشتد جوعه حتى عجز عن طلب القوت ففرض على كل من علم به أن يطعمه أو يدل عليه من يطعمه ، فان امتنعوا من ذلك حتى مات اشتركوا في الاثم قال عليه الصلاة والسلام « ما آمن بي من بات شبعان وجاره الى جانبه طاوٍ (جائع) وقال : اي رجل مات ضياعاً بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » وكذا اذا رأى لقيطاً أشرف على الهلاك أو أعمى كاد أن يتردى في البئر ، وصار هذا كإنجاء الغريق » (الاختيار شرح المختار : ١٢٩/٣)

١٦ — قانون الطوارئ

إذا أصبح العدو يهدد سلامة البلاد ، ولم يكن في خزانة الدولة ما يكفي للانفاق على الجيش وتجهيز المقاتلين وشراء السلاح ، وجب أن تأخذ الدولة من أموال الناس بقدر ما يندفع به الخطر ، وتأمين الامة على أرواحها وأموالها واستقلالها ، لان الجهاد — في تلك الحالة — واجب بالمال والنفس على كل مستطيع ، وحق الانسان في استبقاء ماله ، بيده ، دون حق المجتمع في الحفاظ على حريته

(١) الخراج لابن يوسف ص : ٩٧

واستقلاله ، وفي دفع المواطن قسماً من ماله للجهاد استبقاء لماله كله من أن يأخذه
الاعداء اذا تغلبوا ، ومن قواعد الشريعة « يجب دفع الضرر الاعلى
بتحمل الادنى » .

وهذا حكم متفق عليه ، قال الغزالي :

« اذا خلت الايدي (أيدي الجنود) من الأموال ، ولم يكن من مال
المصالح (أي خزينة الدولة) ما يفي بخراجات العسكر (أي نفقات الجيش)
وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر
(أي حدوث الفتن الداخلية) جاز للامام أن يوظف على الاغنياء (أي يفرض)
مقدار كفاية الجند ، لأننا نعلم أنه اذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع
دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم (الأغنياء)
قليل بالاضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام (أي
البلاد) من ذي شوكة (أي الجيش) يحفظ نظام الامور ويقطع مادة الشرور ،
ومما يشهد لهذا أن لولي الطفل عمارة القنوات (قنوات الارض الخاصة بالطفل)
واخراج أجرة الطيب وثن الادوية (أي العائدة للطفل) وكل ذلك تنجيز
خسران لتوقع ما هو أكثر منه ^(١) » .

وقال الشاطبي :

« انا اذا قررنا إماماً مطاعاً مقتراً الى تكثير الجنود لسد حاجة الثغور
وحماية الملك المتسع الاقطار ، وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند (أي
نفقات الجيش) الى ما لا يكفيهم ، فللامام اذا كان عدلاً أن يوظف على الاغنياء

ما يراه كافيًا لهم (الجيش) في الحال، إلى أن يظهر (يوجد) مال بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والنهار وغير ذلك، وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين (في العصور الإسلامية الأولى) لاتساع بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا فان القضية فيه أخرى، ووجه المصلحة هنا ظاهر، فانه لو لم يفعل الامام ذلك بطلت شوكة الامام، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار، وإنما نظام ذلك كله شوكة الامام، فالذين يحذرون من الدواهي لو تنقطع عنهم الشوكة (أي لو يضعف الجيش عن الدفاع) يستحقرون بالاضافة اليها أموالهم كلها، فضلاً عن السير منها، فاذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق بهم بأخذ البعض من أموالهم فلا يتأري في ترجيح الثاني عن الاول، وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر من الشواهد النخ» (١).

وقد وقع في التاريخ الإسلامي تنفيذ هذا القانون أكثر من مرة، ففي غزو التتار لبلاد الشام، تاهب الظاهر بيبرس لقتالهم، ولكنه كان محتاجاً إلى الأموال لتجهيز الجيش والانفاق على المقاتلين، ولم يكن في بيت المال ما يقوم بذلك، فاستفتى علماء الشام في جواز أخذ شيء من أموال الشعب لتسديد نفقات الجيش فأفتوه جميعاً بذلك، وكان الامام النووي غائباً فأرسلت إليه الفتوى ليوقعها فوافق على فتوى العلماء بشرط أن يرد السلطان بيبرس كل ما عند جواريه وأعوانه من حلي وأموال إلى بيت المال (٢).

وكذلك أراد ملك مصر (قطر) التجهيز لقتال التتار استجابة لطلب الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب والشام يومئذ « فجمع القضاة

(١) الاعتصام : ١٠٤/٢

(٢) من اخلاق العلماء : ١٧٩

والفقهاء والاعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضرُوا وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي قضاة الديار المصرية وغيرهما من العلماء ، وتناقشوا في الأمر فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام ، وخلاصة ما قاله : انه اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم (أى جميع أبناء الشعب) قتالهم ، وجاز لكم (الخطاب للملك قطز) أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء ، وتديعوا مالكم من الخواص^(١) المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مراكوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة^(٢) :

وكذلك الحكم في الكوارث العامة كالفيضانات والزلازل والمجاعة وأمثالها ، فان من واجب الدولة أن تسعف المنكوبين « لا بالخيام والدقيق فحسب » بل بتمكينهم من الحياة الكريمة التي يحياها سائر الناس ، ولما كانت خزينة الدولة تعجز في الغالب عن القيام بهذا الواجب الاجتماعي نحو المنكوبين ، فانها تستطيع أن تفرض ضرائب خاصة لهذه النكبات تستوفيها من الاغنياء كل على حسب ثروته ، وهذا واجب التعاون على البر والتقوى الذي أمر به القرآن ، وهو من مستلزمات الاخوة والتماسك الذي يفرضه الاسلام شعاراً للمجتمع ، وتؤيده قواعد الشريعة ونصوصها التشريعية التي سنذكر بعضها فيما يلي :

صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه مدح الأشعرين بقوله : « إن الأشعرين اذا أرموا في الغزو وفني زادهم ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا

(١) جمع حياصة وهي كساء موشى بالذهب يخلمه السلطان على أمرائه وأعوانه في مناسبات

خاصة (انظر صبح الاعشى : ٥٥/٢)

(٢) النجوم الزاهرة : ٧٢/٧

ما كان عندهم في في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اثناء واحد بالسوية فهم منى وانا منهم (١) والاشعريون قبيلة من العرب ينسب اليهم أبو موسى الاشعري.

وفي الحديث الصحيح : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس او سادس » (٢).

وقد حدث في عهد الرسول ﷺ أن كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب الرسول ﷺ ففني زادهم فأمرهم ان يجمعوا أزوادهم في مزددين وجعل يقوتهم اباها على السواء (٣).

ولما كان عام المجاعة في عهد عمر أرسل الى ولاية الامصار ليمدوه بالطعام والاموال ، فأرسل له كل وال ما استطاع إرساله ، وكان يوزع الطعام على الناس بالسواء ، وبما أثر عنه في تلك المحنة قوله : لو امتدت المجاعة لوزعت كل جائع على بيت من بيوت المسلمين فان الناس لا يهلكون على انصاف بطونهم ، ولكن الله كشف المحنة وعاد الرخاء بعد ذلك الى البلاد .

هذا وأمثاله هو السند التشريعي لقانون الطوارئ وأحكامه .

ومن قوانين التكافل الاجتماعي القانون التالي :

١٧ — قانون التعويض العائلي

كان رسول الله ﷺ اذا أتاه فيء قسمه من يومه ، فأعطى الأهل حظين ،

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) رواه البخاري

(٣) ابن خزم : ١٥٨/٦

وأعطى العزب حظاً واحداً^(١). فهذا هو مبدأ التعويض للزوجة .

وكان الرجل اذا أراد أن يتزوج وليس عنده ما يدفعه مهراً جاء الى الرسول ﷺ يطلب منه المهر الذي يدفعه لزوجته : « جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله اني تزوجت امرأة من الانصار ، فقال عليه الصلاة والسلام : على كم تزوجتها ؟ قال على أربع اواق ! فقال النبي عليه السلام : على أربع اواق ؟ ! كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ! ما عندنا مانعطيك ولكن عسى أن نبعثك بعثاً نصيب منه^(٢) » .

وروى ابو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصماً وأنفق عليه شهراً من مال الله^(٣). وكان عمر يفرض لكل مولود عطاء يزداد الى عطاء أبيه (مائة درهم) وكلمة لما الولد زاد العطاء ، وقد جرى عليه من بعد ، عثمان وعلي والحلفاء من بعدهم^(٣) . فهذا هو التعويض للأولاد .

هذا عدا عما هو مقرر في الفقه الاسلامي من أن نصيب الفارس المجاهد في غنائم الحرب أكثر من نصيب الراجل (الماشي) فبعض المذاهب تعطي للرجل سهماً ولل فارس سهمين ، وبعضها تعطيه ثلاثة أسهم ، وما ذلك إلا لما يتحمله الفارس من نفقات الفرس ، ولما دون عمر الدواوين كان يعطي الرجل على قدر حاجته كما كان يعطيه على قدر بلائه وخدمته للاسلام .

ومن ذلك يتقرر مبدأ التعويض العائلي على قدر حاجة الرجل وما يلزمه من نفقات .

(١) الاموال لأبي عبيد : ٢٣٢

(٢) رواه مسلم

(٣) الاموال لأبي عبيد : ٢٣٧

ب — تمويل قوانين النفاول الاجتماعي

تلك القوانين التي وضعها الاسلام لتحقيق التكافل الاجتماعي بين المواطنين جميعاً ، لا بد لها من موارد مالية لضمان تنفيذها وإلا ظلت نظرية مجتة ، وهذا ما عني به الاسلام اتم عناية ، ولذلك جاءت القوانين المالية التالية جزءاً من قوانين التكافل الاجتماعي .

١ — قانون الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث للاسلام . وقد جاء الامر بها مقرونة بالصلاة في نحو من ثلاثين موضعاً ، وتجب في الاموال النقدية وفي عروض التجارة بنسبة ٢,٥٪ وفي المواشي بنسبة كتلك النسبة تقريباً ، وفي الزروع والثمار بنسبة العشر في الاراضي المروية من غير كلفة كالتي تروى بمياه الامطار والينابيع ، ونصف العشر في الاراضي التي تروى بآلة ونحوها ، وهي تؤخذ من كل مال بلغ النصاب الشرعي لوجوبها وهو ٢٠ مثقالاً من الذهب (ما يعادل ١٢,٥ ليرة ذهبية عثمانية) أو ٢٠٠ درهماً من الفضة (ما يعادل ٧٠ ليرة سورية) على أن يكون ذلك قد حال عليه الحول وهو زائد عن حاجات الانسان الاصلية التي يحتاج اليها لمعيشته ، فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن ، والثياب الخاصة للاستعمال ، والقوت المدخر لطعام العائلة ، والسلاح الخاص ، ودابة الركوب ، وكتب العلم — غير المتخذة للتجارة — وآلة العمل اليدوية التي يحتاج اليها المتكسب بيده كالمنشار والقدوم ومقياس الذراع والمتر وأمثال ذلك .

ويلاحظ في الزكاة مايلي :

١ - ان الزكاة يجب أن تصرف لفئات معينة نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل (١) » .

ولا يجوز صرفها لغير هذه الفئات اجمعاً .

٢ - أنها ليست احساناً ولا منة ، بل هي حق اجتماعي تشرف الدولة على استيفائها وتوزيعها كشأن الضرائب التي تأخذها الدولة من المواطنين ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ، « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (٢) » ونص الشافعي على أن للفقير أحقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشتوك بين صاحبه وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفي هذا اخراج للزكاة عن أن تكون مظنة للذلة والمهانة للفقير كما يتوهم بعض الناس .

٣ - ان نصاب الزكاة هو من القلة بحيث يشترك جمهور الشعب في الاسهام بنفقات التكافل الاجتماعي ، ولم تحصر بالاغنياء ذوي الثروات الكبيرة ، وفي ذلك فوائد عظيمة ، أهمها أن تكثير حصيلة الزكاة عن هذا الطريق يؤدي الى توسيع نطاق التكافل الاجتماعي ، ومنها أن اشتراك جمهرة الشعب في تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي يبعث في كل من اشترك بذلك اعتزازاً باسهامه في هذا العمل الاجتماعي ، وشعوراً بالمسؤولية وبأنه عضو عامل في المجتمع يقوم بواجبه نحو اخوانه العجزة والفقراء .

٤ - ان نسبة الزكاة من المال - وهي اثنان ونصف بالمائة - نسبة مقبولة

(١) التوبة : ٦٠

(٢) الذاريات : ١٩

تسخونها النفس طوعية واختياراً ، وهي مع ذلك تجمع حصيداً كبيرة جداً لأنها نسبة من رأس المال والربح الناشئ عنه خلال السنة كلها .

٥ - ان الزكاة عامل من أهم عوامل توزيع الثروة وانتقالها بين أيدي الشعب خلال سنوات محدودة ، بحيث يكون ما يملكه الانسان بعدها ثروة جديدة أنشأها بجهده وعمله .

٦ - ان الزكاة عامل كبير من عوامل نشر الالفه والمحبة بين الناس وهو ما يحرص عليه الاسلام الذي يقيم وزناً للقيم الاخلاقية الانسانية .

٧ - ان زكاة كل بلد توزع فيها نفسها ، فاذا فاضت عن حاجة أهلها أرسل الفائض الى بيت المال المركزي لينفق على من يستحقونها في البلاد الاخرى ، وهذا عامل من عوامل رفع مستوى الشعب وتحقيق التكافل الاجتماعي في جميع مناطق الدولة في وقت واحد .

٨ - ان للزكاة ميزانية خاصة في بيت المال بحيث لا تطغى على التكافل الاجتماعي النفقات الاخرى للدولة كما يقع الآن في ميزانية الدولة في عصرنا الحاضر .

٢ - قانون النفقات

وأكثره يتعلق بنفقات الاقرباء المعسرین من أبوين وأبناء وأخوة وأعمام وغيرهم - على تفصيل في المذاهب الاجتهادية - اذ تجب نفقتهم على اقربائهم الموسرين كما يتعلق بنفقة الزوجة ، والنفقة تشمل : ١ - الطعام ، ٢ - اللباس ، ٣ - السكن ، ٤ - الاخدام للعاجز والمريض ، ٥ - التعليم ، ٦ - التزويج ، ٧ - نفقات زوجة الفقير وأولاده إن كانوا .

وقانون النفقات يشمل ما يملكه الانسان من رقيق وحيوان وزرع ونبات^(١)

٣ - قانون الوقف

الوقف نوعان : ذري (أهلي) وخيري ، أما الذري فالمقصود منه تأمين التكافل الاجتماعي لأقرباء الواقف وذريته ، ويجب أن يكون آخره الى جهة خير لا تنقطع كالفقراء والمؤسسات الاجتماعية ، وأما الخيري فهو لتمويل التكافل الاجتماعي لجميع الجهات التي ذكرناها في بحث التكافل . وقد كان للوقف - خلال العصور الماضية - دور رئيسي في قيام المؤسسات الاجتماعية في الوطن الاسلامي كما ستطلع عليه عند الكلام على الواقع التاريخي لاشتراكية الاسلام . ومن الواجب أن يستفاد من الوقف الآن في تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعي على وجه يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية في بلادنا لمختلف الفئات .

٤ - قانون الوصية

أجاز الاسلام أن يوصي الانسان بثلث ماله لجهات البر والخير ، ويجوز أن يوصي بأكثر من ذلك اذا أجازت الورثة ، وفي بعض المذاهب الاجتهادية أن الوصية للأقرباء غير الوارثين واجبة بمقدار الثلث ، ومنه استمد قانون الاحوال الشخصية المعمول به في الاقليم الشمالي ، وقانون الوصية المعمول به في الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة ، مبدأ الوصية الواجبة للحملة المحرومين من الارث ، وهم الذين مات أبوهم في حياة جدهم^(٢) .

(١) انظر تفاصيل احكام النفقات في كتابنا « شرح قانون الاحوال الشخصية » الطبعة الثانية ١/ ٢١٩ - ٢٥١ وايضا : ١/ ١٤٠ - ١٥١ .

(٢) تنظر احكام الوصية ومنها الواجبة في كتابنا (شرح قانون الاحوال الشخصية) .

٥ - قانون الغنائم

قال تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ^(١) وقال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين » ^(٢) وللعلماء آراء في التفريق بين الغنيمة والفيء ، وفي المراد من « لله وللرسول » وأيضاً ما كان فان الاسلام قد جعل من الغنائم الحربية التي يغنمها الجيش في معاركه مع الاعداء نصيباً معيناً للتكافل الاجتماعي ، وهذا لا نعلم له مثيلاً عند الامم الاخرى في القديم والحديث .

٦ - قانون الركاك

ما يوجد في بطن الارض من معادن وتقود قد جعل الاسلام فيه نصيباً معيناً ينفق منه على التكافل الاجتماعي ، وللعلماء آراء واجتهادات حول التفريق بين الكنز والركاز وحكم ما يستخرج من باطن الارض أو من أعماق البحار من معادن وغيرها تعرف من المراجع الفقهية ^(٣) .

٧ - قانون المنزور

قال تعالى : « وليوفوا نذورهم » ^(٤) فاذا نذر الانسان نذراً أن يتبرع

(١) سورة الانفال : ٤١ .

(٢) الحشر : ٧ .

(٣) انظر مثلاً : البدائع : ٦٥/٢ .

(٤) الحج : ١٩ .

لله بمبلغ معين وجب عليه الوفاء بنذره وكان سبيله الفئات المحتاجة للتكافل الاجتماعي . وأحكام النذور تعرف في كتب الفقه .

٨ - قانون الكفارات

قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة (١) » .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاءه مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين » (٢) .

ويقول تعالى في الصيام : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » (٣) . وقال تعالى في الاحرام بالحج : « ولا تخلقوا وؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » (٤) .

وقال تعالى في كفارة الظهار : « فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » (٥) . وفي الحديث الصحيح في إيفطار رمضان عمداً بالجماع في النهار ، التكفير عن ذلك بصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، وكذلك الحكم عند فقهاء الحنفية فيمن أفطر بالاك من غير عذر .

وهكذا جعل الاسلام كفارة كثير من الذنوب اطعام الفقراء والمساكين أو كسوتهم .. وهذا مورد كبير لتمويل مشاريع التكافل الاجتماعي .

(١) المائدة : ٨٩ (٢) المائدة : ٩٥ (٣) البقرة : ١٨٤ (٤) البقرة : ١٩٦

(٥) المجادلة : ٤

٩ — قانون الأضاحي

قال تعالى : « فصل لربك وانحر » ^(١) نزلت في صلاة عيد الاضحى ونحر الاضحي في العيد .

وفي الحديث : « يا أيها الناس على كل أهل بيت في كل عام أضحية » ^(٢) . وللعلماء آراء في كونها واجبة أو سنة مؤكدة .

١٠ — قانون صدقة الفطر

في الحديث الصحيح : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والانثى والصغير والكبير من المسلمين » ^(٣) .

والاجماع على وجوبها ، والجمهور على وجوبها على الرجل وكل من تلزمه نفقته من زوجة وولد وخادم . كما ان الجمهور على جواز اخراج قيمة الصاع من التمر أو الشعير نقداً وهذا هو الراجح في البلاد التي لا تنتج تلك المزروعات ، وهو الانفع للفقراء ، ولزكاة الفطر أحكام مفصلة في كتب الفقه .

١١ — قانون الخزينة العامة

كانت واردات بيت المال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصرة على اموال الزكاة والعشور (زكاة الزروع) والغنائم ، وكانت تنفق كلها على المستحقين

(١) الكوثر ٢ .

(٢) رواه احمد وأبو داود والنسائي .

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

في قوانين التكافل الاجتماعي ، فلما اتسعت الدولة واتسع دخلها المالي في عهد عمر ، دوّن الدواوين فقيدت كل واردات الدولة كما سجل كل ذوى الاعمال وأصحاب الاعطيات والمستحقين ، وقال عمر قولته المشهورة : « ما من أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال » ثم نظم الديوان بعد ذلك تنظيماً أدق ، ورتبت أبواب ميزانية الدولة بحسب وارداتها ، وقسم بيت المال الى أقسام ، لكل نوع من الواردات بيت مال خاص به ينفق منه على فئات معينة ، ونذكر لك هذه الاقسام كما ذكرها الكاساني من علماء القرن السادس الهجري .

ما يوضع في بيت المال من الاموال أربعة أنواع :

الاول : الزكاة بمختلف أنواعها وتصرف في الوجوه التي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء الخ .. » .

الثاني : خمس الغنائم والمعادن والركاز ويصرف الى الفقراء والمساكين واليتامى ومن كان في معنائهم .

الثالث : خراج الاراضي وجزية الرؤوس وما كان بمعناها ، وهذه تصرف الى عمارة الدين والمصالح العامة ومنها رواتب الولاة والقضاة وأهل الفتوى من العلماء والجنود واصلاح الطرق وعمارة المساجد والرباطات (للجهاد) والقناطر والجسور وسد الثغور واصلاح الانهار العامة .

الرابع : ما أخذ من تركة الميت الذي مات ولم يترك وارثاً أصلاً أو ترك زوجاً أو زوجة فقط . (ويلحق به الضوائع التي لم يعرف أصحابها) . وتصرف هذه الاموال الى دواء الفقراء المرضى وعلاجهم وأكفان الموتى الذين لا مال لهم والى اللقيط وعقل جنائته والى نفقة من هو عاجز عن الكسب وليس له من تجب عليه نفقته ونحو ذلك (١) .

ومن ذلك يتبين أن تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي ليست قاصرة على

(١) البدائع : ٦٨/٢ و ١٢٤/٧ مع تلخيص وترتيب

القوانين العشرة السابقة ، بل ان مهمة بيت المال الاساسية هي تحقيق التكافل الاجتماعي ، ولكن تلك القوانين لا تعطي حقاً في المال المجموع بحسب أحكامها لغير المحتاجين للتكافل الاجتماعي ، بينما موارد بيت المال الاخرى تتسع لرواتب الموظفين ونفقات الدفاع والمشاريع العمرانية والمواصلات وغيرها ، ويؤكد هذا ما ذكرناه من قول عمر رضي الله عنه « ما من أحد من المسلمين الا وله حق في هذا المال » .

١٢ - قانون الكفاية

يقول الله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »^(١) فهذه الآية دلت على وجوب الاحسان الى هذه الفئات .

وقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة الخ الآية »^(٢) وهذه الآية دلت على أن لهذه الفئات حقاً في المال سوى الزكاة بدليل أن الزكاة عطفت عليها ، والعطف يقتضي المعايرة .

وروى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس^(٣) وهذا يقتضي وجوب اطعام الفقير على من كان يستطيع إطعامه ، ولا يجوز تركه عرضة للجوع .

(١) الاسراء : ٢٣ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) رواه البخاري .

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد
فليعد به على من لا زاد له ، قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من اصناف المال
ما ذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل ^(١) .

وعن عمر بن الخطاب : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول
أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين ^(٢) » .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله فرض
على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم (أي ما يحتاج اليه الفقراء)
ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا وعزوا الا بما يصنع أغنيائهم ، ألا وان الله يحاسبهم
حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً ^(٣) » .

من هذا كله يتبين لنا انه اذا لم تكف الزكاة والقوانين المالية الاخرى لسد
حاجات التكافل الاجتماعي ، ولم يكن في بيت المال ما يقوم بتلك الحاجات فقد
انتقل واجب القيام بها الى أموال الناس بحيث يؤخذ منها ما يسد تلك الحاجة
مهما استنفدت من تلك الثروات .

قال ابن حزم : وفرض على الاغنياء من اهل كل بلد أن يقوموا بفقراءهم ،
ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، ولا فئء سائر أموال المسلمين
بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء
والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكتفون من المطر والصيف والشمس وعيون

(١) رواه مسلم

(٢) رواه ابن حزم وقال : هذا إسناد في غاية الصحة والجلالة

(٣) رواه الطبراني ورواه ابن حزم موقوفاً على علي رضي الله عنه .

المارة . ثم استدل لذلك بما ذكرناه من الآيات والآثار وغيرها عن الصحابة والتابعين ، وادعى اجماع الصحابة على ذلك بما ذكرناه في قانون الاسعاف من صنيع ابي عبيدة حين نفذ زاد اكثر ما معه من الصحابة وكانوا ثلاثمائة ، فخلط أزوادهم بعضها ببعض وقاتهم اياها على السواء (٤) .

وهذا الذي ذكره ابن حزم هو ما تؤيده قواعد المذاهب الاجتهادية ، وقواعد الشريعة العامة ، ومبادئ الحقوق الخمسة التي ذكرناها .

وبعد فهذه هي تسعة وعشرون قانوناً لتحقيق التكافل الاجتماعي ، لم تترك إنساناً في المجتمع دون أن يتمتع بحق التكافل الاجتماعي ، ودون أن ينال من عناية المجتمع ما يطمئن به الى حاضره ومستقبله ومستقبل عائلته وأولاده ، وقد رأينا أنه وضع من هذه القوانين اثنا عشر قانوناً لتمويل التكافل الاجتماعي بحيث تضمن تنفيذ قوانينه تنفيذاً دقيقاً شاملاً لا نعهد له مثيلاً في الشرائع والقوانين لدى أمة من أمم الارض قاطبة .

ولم يكتف الاسلام بكل هذا ، بل شرع من القوانين ، ووضع من المبادئ ما هي كفيلة بصيانة هذا النظام ، وحمل الناس على تطبيقه ، حملاً أدبياً ومادياً ، ومنعهم من مخالفته والتلاعب بأحكامه ، وهنا يأتي بحث « المؤيدات » في هذه النظرية .

{ — المؤيدات

تنقسم المؤيدات الى أربعة أنواع : إعتقادية ، أي هي جزء من عقيدة المسلم لا يتم اسلام المسلم الا بها ، وأخلاقية ، أي هي جزء من النظام الأخلاقي في

الاسلام فلا يكمل خلق المسلم إلا بها ، ومادية ، أي منع الناس من مخالفة تلك الاحكام والقوانين إما بالعقوبة الزاجرة ، واما بالسلاح والحرب ، وتشريعية ، اي وضع مبادئ عامة لسن القوانين التي يحتاج اليها المجتمع في مختلف العصور تحقيقاً للتكافل الاجتماعي بحسب تطور الاوضاع والظروف الاجتماعية ، ولنتحدث عن كل نوع من هذه الانواع حديثاً موجزاً تبيننا للفكرة وضرباً للأمثال .

أ - المؤيدات او عقابية

١ - يقرر الاسلام أن الله خالق الكون ومدير الأمر ، وهو الرقيب على أعمال الانسان ، العليم بسلوكه ونيته ، وسيرجع اليه ليحاسبه على ما فعل من خير أو شر « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ^(١) » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ^(٢) » ، ومن الخير تطبيق هذا النظام ، ومن الشر اهماله او الاعراض عنه ، فأين يذهب المؤمن اذا أراد أن يقر منه او يتلاعب بأحكامه ؟

٢ - ويقرر ان الله عادل لا يظلم المحسن ولا يثيب المسيء « ولا يظلم ربك أحداً ^(٣) » ، « ان الله لا يضيع أجر المحسنين ^(٤) » ، « ان الله لا يصلح عمل

(١) المجادلة : ٧

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٣) الكهف : ٤٩

(٤) التوبة : ١٢٠

المفسدين^(١)»، ومن عدالته أن الأمم التي تتمسك بشرعه فتتواحم فيما بينها ويعطف بعضها على بعض، يحياها حياة طيبة، والأمم التي تنحرف فيظلم بعضها بعضاً ويأكل بعضها حق بعض، يبتليها بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون^(٢)» وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً^(٣)».

٣ - ان الرزق بيد الله قد قسمه بين عباده منذ الازل وكتب لكل انسان نصيبه منه، وهو لا ينال الا بسعي وعمل، فلا يقعد الانسان عن طلبه، ولا يسلك السبل الظالمة للاستكثار منه «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا^(٤)» ان نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب^(٥)» وهذا من ابلغ ما يحمل المؤمن المتدين على تنفيذ نظام الشريعة في التملك والانفاق وتأدية ما أمر الله أن يؤدي من المال لحق المجتمع والدولة.

٤ - ان الله يمحى المال المجموع من الظلم والغش والمال الذي يمنع منه حق الفقراء والمساكين، ويبارك في المال الذي يجمع من الحلال وينفق في وجوه الخير «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون بها وجه الله فأولئك هم المضعفون^(٦)» «يمحق الله الربا ويربي

(١) يونس : ٨١

(٢) هود : ١١٧

(٣) الاسراء : ١٦

(٤) الزخرف : ٣٢

(٥) رواه الحاكم والطبراني

(٦) الروم : ٣٩

الصدقات ^(١) » فما أروع هذه المقارنة في آية واحدة !

٥ - ليس للانسان من ماله الا ما استفاد منه لنفسه في حياته الدنيا ، او انفق منعه في الخير فثوابه له في الآخرة ، وما عدا ذلك فليس في الحقيقة مالكا له ، انما هو حارس يحرسه لورثته ، يحاسب عليه ويجني غيره فائدته « يقول العبد مالي مالي ، وانما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس ^(٢) » .

ب -- المؤبرات الاخلاقية

١ - رغب في العدل والاحسان وحذر من الظلم والبغي والفحشاء « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ^(٣) » .

٢ - حث على الانفاق والسخاء ومدح الكرم والكرماء ، ونقر من الشح وذم البخلاء « السخي قريب من الله قريب من الناس والبخل بعيد من الله بعيد من الناس ^(٤) » « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ^(٥) » .

واليك هذا النموذج الرائع من الترغيب في الانفاق يسلك فيه القرآن كل سبيل الى النفس الانسانية ليحملها على الانفاق ويبعدها عن البخل ، ويحلل البخل

(١) البقرة : ٢٧٦

(٢) رواه مسلم

(٣) النحل : ٩٠

(٤) رواه الترمذي

(٥) الخضر : ٥

والكرم وعواملها في النفس الانسانية وآثارهما تحليلاً رائعاً في آيات قليلة متتاليات ، تملك على المؤمن لبه وقلبه فلا ينتهي من قراءتها حتى تنفتح نفسه للوجود بكل ما يملك ابتغاء مرضات الله وطمعاً في جنته وثوابه :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم ، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ، أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الحثيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغيضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ، يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب . وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار . ان تبدوا الصدقات فنعماً هي وان تحفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير . ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء

وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون « (١) .

هذا عدا عن القصص التي وردت في القرآن كقصة أصحاب الجنة (٢) وقصة موسى والخضر في بناء جدار اليتيم (٣) .

٣ - رغب في التعاون وحذر من التخاذل « وتعاونوا على البر والتقوى » (٤) وأوجب أن يهتم الانسان بشؤون اخوانه « من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » (٥) « ورغب في تقريج كربة البائسين ومد يد العون للمحتاجين » من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » (٦) .

٤ - اعتبر كل انسان مسؤولاً عمن تحت يده ، ومسؤولاً عن شؤون المجتمع واستقامة امره « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الامام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن

(١) سورة البقرة : ٢٦١ - ٢٧٤

(٢) سورة القلم : ١٧ - ٣٣

(٣) سورة الكهف : ٨٢

(٤) سورة المائدة : ٢

(٥) رواه الطبراني

(٦) رواه البخاري ومسلم

وعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (١) .

• - أوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو كل ما جاءت به الشريعة واستحسنته المروءات ، والمنكر هو كل ما انكرته الشريعة من ظلم وبغي وتحل عن الواجب ومنع للحقوق ، وهو ما تنكره المروءات من قسوة وبخل وظلم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٢) « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » (٣) وأعظم أنواع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ما كان تجاه الطغاة والحكام الذين لا ينفذون شرائع الله ، فيأكلون أموال الشعب ، ولا يعدلون بين الرعية « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (٤) واعتبر عدم القيام بهذا الواجب نذيراً بانحدار المجتمع وسوء العاقبة وغضب الله وشمول العذاب لمن كان منحرفاً ولمن كان ساكتاً عن الانحراف « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (٥) « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٦) .

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) آل عمران : ١٠٤

(٣) رواه مسلم واحد

(٤) رواه ابو داود والترمذي

(٥) الانفال : ٢٥

(٦) المائدة : ٧٨

ج - المؤيدات المادية:

من سنن الحياة ان لا تؤثر المواعظ والمرغبات في كثير من النفوس الشريرة بل لا يردعها عن الشر الا خوفها من العقوبة ، وجزعها من الألم ، ولذلك لم يكتف الاسلام بما سبق من مؤيدات اعتقادية وأخلاقية ، بل شرع مؤيدات مادية ترهب المعتدين ، وتكف من غلوائهم ، وهذه المؤيدات أربعة أقسام :

١ - الخسبة وهي « أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله » (١) وقد كان يقوم بها رجال أمناء موثقون أشداء في الحق لا يخافون في الله لومة لائم ، ويعينون من قبل الحكومة في غالب الاحيان ، وقد قسم القاضي ابو يعلى في كتابه « الاحكام السلطانية » عمل المحتسب في الامر بالمعروف الى أقسام ثلاثة : ما يتعلق بحقوق الله تعالى ، وما يتعلق بحقوق الآدميين ، وما كان مشتركاً بينهما ، وقال فيما يتعلق بحقوق الآدميين انه ضربان : عام وخاص ، أما العام فكالبلد اذا تعطل شربه أو استهدم سورده ، فان كان في بيت المال مال لم يلزم أهل البلد اصلاح شربهم وبناء سورهم ، لانها حقوق تلزم بيت المال وكذلك لو استهدمت جوامعهم ، وان لم يكن في بيت المال مال ، كان الامر ببناء السور واصلاح الشرب وعمارة المساجد ومراعاة بني السبيل (المسافرين) متوجهاً إلى كافة ذوي المكنة (اليسار) منهم ، فان شرعوا في اقامة ذلك سقط عن المحتسب حق الامر به ، والا أعلم المحتسب السلطان ورغب أهل المكنة في عمله اذا كان يضرم تركه . وأما الخاص كالحقوق اذا مطلت والديون اذا أخذت فلمحتسب أن يأمر بدفعها اذا استعداه أصحاب الحقوق ، وكذلك له أن يأمر بنفقات الاقارب اذا حكم بها حاكم ، وكذلك كفالة من تجب كفالته

(١) الاحكام السلطانية للقاضي ابى يعلى : ٢٦٨

من الصغار ، وأما ما كان مشتركاً بين حقوق الله والعباد فمن ذلك أن يأخذ السادة بحقوق العبيد والاماء ، وأن لا يكلفوهم من الاعمال ما لا يطيقون ، وكذلك أرباب البهائم يأخذهم بعلوفتها اذا قصروا وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق ، ومن أخذ لقيطاً وقصر في كفالاته أمره أن يقوم بحقوق التقاطه من التزام الكفالة او تسليمه الى من يلتزمها ويقوم بها .

ثم قسم المنكر أيضاً الى ثلاثة أقسام : ما كان في حقوق الله ، وما كان في حقوق الآدميين ، وما كان مشتركاً بين الحقين . فاما يتعلق بالمنكر في حق من حقوق الله ، الامتناع عن اخراج الزكاة ، فان كان من الاموال الظاهرة أخذها العامل (الموظف لقبض الزكاة) منه قهراً ، وان كان من الاموال الباطنة احتمل ان يكون المحتسب أولى بالانكار عليه من عامل الصدقة ، وان رأى رجلاً يتعرض لسؤال الناس وهو ذو جلد وقوة على العمل أمره أن يتعرض للاحتراف بعمل ، فان أصر على السؤال عزره حتى يقطع ، وان وجد من يتصدى للعلم وليس من أهله أنكر عليه ومنعه وأظهر للناس أمره كيلا يغتروا به ، وكل مامنع الشرع من العقود الفاسدة فعلى الى الحسبة انكاره والمنع منه ، ومن ذلك غش المبيعات وتدليس الاثان (تزييف النقود) فينكره ويمنع منه ويؤدب عليه بحسب الحال فيه . ومما يتأكد على المحتسب فعله ، المنع من التطفيف والبخس في المكايل والموازين ، واذا استواب بموازين السوق ومكاييلهم اختبرها وعابرها وختمها بطابع خاص بحيث لا يزنون أو يكيلون الا بها ، فان فعلوا انكر عليهم وادبهم ، ومما يتعلق بالمنكر في حقوق الآدميين ، منع الرجل من التعدي على جاره أو حريم داره ، ومن ذلك منع المستأجرين من التعدي على حقوق الاجراء (العمال) فاذا تعدى مستأجر على اجير في نقصان أجر او استزادة عمل كفته عن تعديه وانكر عليه بحسب حالة العدوان ، ولو قصر الاجير في حق المستأجر فنقصه من العمل او استزاده في الاجر منعه منه ، واذا

قصر الطبيب فأدى تقصيره الى تلف أو سقم منعه من ذلك ، ويراعى حال الصاعة والحاكة (النساجين) والقصارين والصباغين وأمثالهم في الامانة والحيانة لانهم ربما هربوا باموال الناس ، ويراعى المحتسب على العموم فساد العمل وردائه وان لم يتقدم أحد بالشكوى ، وبما يتعلق بما ينكر من الحقوق المشتركة بين الله والناس منع التعدي على أهل الذمة ، ومنع السادة من اساءة معاملة عبيدهم أو تكليفهم مالا يطيقون ، وقد نص أحمد علي أن حق المملوك هو أن يشبع ويكتسي ولا يكلف مالا يطيق ولا يسهر ولا يشق عليه العمل وأن يزوجه حين البلوغ ، ويمنع أرباب المواشي من استعمالها فيما لا تطيق^(١).

وذكر الشيرازي في « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » أموراً أخرى كلها ترجع الى منع الاضرار بالناس في اسواقهم وصنائعهم ، كمنع التجار من الاحتكار والزامهم ببيع البضائع المحتكرة بأسعارها المعتدلة جبراً عنهم ، ومنع التفرير بالمنتجين من أهل الارياف كيلا يبيعوا بأسعاراً وخص مما هي في الاسواق ، ومنع أحمال الحطب والتبن والشوك وكل ذي رائحة كريهة من الدخول الى الاسواق كيلا يضر بلباس الناس ، ومراقبة الحبازين والطاءعين وأرباب الصناعات كالصيدالة والعطارين والنساجين من غش الناس في أطعمتهم وحوادثهم^(٢).

وقد نص ابن الاخوة في « معالم القربية » على مايجب على المحتسب عمله من مراقبة الصناعات والتجارات مما يعتبر غاية في الطرافة والدفاع عن حقوق المواطنين وضمان أموالهم .

هذا هو نظام الحسبة ، وهو كما ترى ضمان مادي لنظم التكافل الاجتماعي

(١) من كتاب الاحكام السلطانية لاني يعلى مع اختصار وتلخيص : ٢٦٨ - ٢٩٢

(٢) نهاية الرتبة : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٧٤

التي اقرها الاسلام ، وهو نظام فريد لم يسبق المسلمين اليه أمة من الامم ، وقد كان مما أخذه الصليبيون عن المسلمين أثناء حكمهم في فلسطين كما ثبت ذلك من كتاب « النظم القضائية ببيت المقدس » وهو مطبوع بالفرنسية في باريس في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ^(١) ثم نقلوا هذا النظام الى بلادهم في الغرب ، فلما تطورت الحياة السياسية والاجتماعية منذ عصر النهضة وزعت مهام الحسبة على وزارات الصحة والاسعاف والمعارف والعدل والشؤون الاجتماعية ودوائر البلدية ، وقد أخذناها عن الغربيين في نهضتنا الحديثة وهي بضاعتنا ردت إلينا .

٢- **الحدود والقصاص** ، فمن حُرِّم انساناً حق الحياة حُرِّم الحياة ، ومن حُرِّم انساناً حق الكرامة بأن اعتدى على عرض غيره عوقب عقوبة الزنى ، ومن اتهم انساناً في شرفه وعرضه عوقب عقوبة القذف ، ومن اعتدى على حق انسان في التملك عوقب عقوبة السرقة ، ومن اعتدى على عقله وهو وسيلة العلم عوقب عقوبة السكر ، ومن اعتدى على حق الناس في حريتهم في أوطانهم وطمانينتهم وكرامتهم أموالهم فقطع الطرقات وأخاف السابلة عوقب عقوبة المحاربين الخارجين على النظام « انما جزاء الذي يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ^(٢) .

٣ - **التعزير** ، وهو العقوبة على ارتكاب كل منكر أو ايداء للغير بفعل أو قول أو اشارة ، وقد ترك الاسلام تقدير هذه العقوبات للدولة تشرع من الاحكام القضائية بشأنها ما يكون أصلح للزجر وأبلغ في ردع الناس عن العدوان

(١) انظر الملحق الثالث لكتاب نهاية الرتبة ص ١٢٧

(٢) سورة المائدة : ٣٣

وللتعزيز أحكام مفصلة في كتب الفقه (١).

٤ - **الجهاد**، وهو في الاسلام مشروع لغرضين : دفع العدوان على حرية الامة في وطنها ودينها « وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (٢) « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٣). واستنقاذ الضعفاء المضطهدين من سلطة الظالمين « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ٤ » « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ٥ » .

والجهاد لهذين الغرضين جهاد في سبيل الله ، لأن سبيل الله أي طريقه هو الحق أذ هو لا يأمر الا بالحق والخير، وهو جهاد لاعلاء كلمة الله ، لان كلمة الله هي شريعته وهي أحكامه التي أمر بها أو نهى عنها ، وبما أمر به ايتاء الحقوق الى أصحابها ، وبما نهى عنه ظلم الناس بعضهم لبعض ، ذلك اذاً هو سبيل الله وتلك هي كلمته ، وهذا هو الجهاد في الاسلام : اعلان لكلمة الحق ورفع منار العدل « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ٦ » أي في سبيل الاستعلاء والطغيان والظلم . وقد نص القرآن على

(١) من اجمع ما ألف في هذا البحث كتاب « التعزير في الشريعة الاسلامية » للدكتور عبد العزيز عامر القاضي بالحاكم الوطنية .

(٢) البقرة : ١٩٣

(٣) البقرة : ١٩٠

(٤) الحج : ٣٩ - ٤٠

(٥) النساء : ٧٥

(٦) النساء : ٧٦

ثمة الجهاد في الاسلام بقوله «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة» وهذا رمز لنشر السمو الروحي في العالم (وآتوا الزكاة) وهذا إقامة للتكافل الاجتماعي في المجتمع (وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ^١ » . (وهذا دعم للحقوق الطبيعية الخمسة التي قررها الاسلام لكل انسان ^(٢)) .

د - المؤيدرات التشريعية

وهي نوعان : ١ - مصادر تشريعية ٢ - قواعد تشريعية

١ - المصادر التشريعية

وأهمها في هذا الباب ثلاثة .

أ - الاستحسان ، وهو ترك العمل بالقياس الظاهر لدليل آخر أقوى منه وهذا الدليل الاخر اما القياس ، أي أن يترك القياس الظاهر لقياس آخر أدق مسلماً وأقوى شهاً ، وإما الضرورة أي ان يترك القياس لضرورة عامة يترتب على ترك اعتبارها مفسدة ، وهذا القسم الثاني هو الذي يفيدنا في هذا البحث ، فان ابا حنيفة وهو أشهر القائلين بالاستحسان ، ترك العمل بمقتضى القياس في كثير من الحالات لما يترتب على القياس من ضرر ومفسدة ، ومن هنا عرف ابن رشد الاستحسان بقوله : «انه الالتفات الى المصلحة والعدل» ^(٣) ومادامت الشريعة تقوم على رعاية المصلحة وتحقيق العدالة، فان الاستحسان باب

(١) الحج : ١

(٢) انظر : نظام السلم والحرب في الاسلام للؤلف .

(٣) انظر بحث الاستحسان في المدخل الفقهي العام للاستاذ مصطفى الزرقا ٨ : ١٠٥

(الطبعة الخامسة) .

عظيم من الابواب التي تسمح بوضع النظم الكفيلة بتحقيق « التكافل الاجتماعي » وفق المبادئ التي ذكرناها وتحقيقاً للحقوق الطبيعية الخمسة التي هي أساس نظرية « الاشتراكية الاسلامية ».

ب - الاستصلاح ، وهو العمل بالمصالح المرسله ، وذلك أن مصالح الناس تنقسم الى ثلاثة اقسام :

١ - مصالح اعتبرتها الشريعة واقرتها ، واصدرت التشريع اللازم لصيانتها ، كمصلحة الناس في حفظ عقائدهم وديانهم وعقولهم وأموالهم واعراضهم ، ومصالحهم في ضمان حقوقهم الطبيعية الخمسة التي ذكرناها .

٢ - مصالح لم تعترف بها الشريعة ، كمصلحة بائع الخمر في الربح ، ومصلحة المتجسس للعدو في قبض المال لذلك ، ومصلحة المرابي في التعامل بالربا أو غير ذلك من المصالح التي يلزم من اعتبارها مفسدة عامة واضرار بالمجتمع ، وعدوان على حقوق الآخرين .

٣ - مصالح جديدة لم تكن في عهد النبوة ، فلم ينص عليها بذاتها كتاب ولا سنة ، ولكن الشريعة راعتها واعتبرتها ضمن المبادئ العامة التي وضعتها في التشريع .

فاما القسم الاول من المصالح فيجب العمل بها باجماع العلماء ، وأما القسم الثاني فلا يجوز العمل بها قولاً واحداً ، وأما القسم الثالث فقد ذهب جمهور العلماء الى اعتبارها ووجوب العمل بها ، ومن اشهر من قال بها علماء المالكية ، وغيرهم من الفقهاء يدخلون العمل بها تحت اصل تشريعي من الاصول المتفق عليها ، وهي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وأياً ما كان فالكل متفقون على اعتبارها في التشريع ، وعمل بها الصحابة والتابعون ، وضرب الشاطبي^(١) لذلك كثيراً من الامثلة . كجمع القرآن في مصحف واحد ، وتدوين

(١) انظر « الاعتصام » للإمام الشاطبي : ٩٩/٢ - ١٠٧

الدواوين وتنظيم دوائر الدولة في عهد عمر وما بعده ، وبذلك منع عمر كبار الصحابة من مغادرة المدينة في عهد خلافته لحاجته اليهم في التشريع واستشارتهم في قضايا الدولة ، وما فعله من مقاسمة الولاة نصف اموالهم كما هو معروف .

يقول الغزالي : « ان مقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الاصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الاصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة » (١) .

ويقول الشاطبي : « انا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد ، والاحكام العادية (أي التشريع المدني والجنائي والدولي وغيره) تدور معه حيثما دار ، فتروى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فاذا كان فيه مصلحة جاز » (٢) .

ويقول ابن القيم : « ان الله ارسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والارض ، فاذا ظهرت امارات الحق وأدلت به بأي طريق فذلك من شرع الله ودينه ورضاه وأمره » (٣) .

ويقول الآمدي : إن الاحكام انما شرعت لمقاصد العباد (أي مصالحهم) لأن الاجماع قائم على أن أحكام الله لا تخلو عن حكمة ومقصود ، وليس ذلك لمنفعة عائدة الى الله تعالى ، بل لمنفعة الناس ، وقد قال الله تعالى « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) وقال : « ورحمتي وسعت كل شيء » (٥) « فلو خلت الاحكام عن حكمة عائدة الى الناس لكانت نقمة لا رحمة ، وقال عليه الصلاة والسلام :

(١) المستصفى : ١/٢٨٧

(٢) الموافقات : ٢/٣٠٦

(٣) اعلام الموقعين : ٣/٥٤٣

(٤) الانبياء : ١٠٧

(٥) الاعراف : ١٤٦

« لا ضرر ولا ضرار »^(١) فلو لم يكن التكليف قائماً على مصالح تعود الى العباد لكان ضرراً محضاً»^(٢).

وهكذا يكون العمل بالمصالح المرسل (الاستصلاح) مصدراً تشريعياً عظيماً لوضع النظم والقوانين الكفيلة بتحقيق مقاصد الشريعة في تحقيق العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي .

ج - العرف وهو ايضاً ثلاثة أنواع : ١ - ما قرره الشارع فهذا يجب العمل به قولاً واحداً . ٢ - ما الغاه الشارع كالاعراف السيئة التي كانت في الجاهلية والغاها الاسلام ، فهذه باطلة لا يجوز اعتبارها قولاً واحداً ، ٣ - ما جدد للناس بعد عصر النبوة وكانت لهم فيه مصلحة ولا يتنافى مع نص من نصوص الشريعة أو مقصد من مقاصدها ، فهذا معتبر وخاصة في المعاملات ، وقد بنيت عليه احكام كثيرة في الفقه الاسلامي ، واعتبر مصدراً من مصادر التشريع ، وقد نصوا على أن « المعروف كالمشروط » وأن « تعامل الناس حجة يجب العمل بها » وغير ذلك من القواعد التي تعتبر العرف مصدراً للتشريع^(٣) .

ولاشك أن الناس لا يتفقون على عرف يتراضون العمل به إلا لما فيه من وفق بهم وتيسير لمعاملاتهم وضمان لحقوقهم ومصالحهم المشروعة . وبذلك يكون مصدراً عظيماً لسن القوانين المحققة للتكافل الاجتماعي .

٢ - القواعد التشريعية

وهناك قواعد تشريعية عامة يمكن أن يستند اليها في وضع التشريعات

(١) رواه احمد وابن ماجه

(٢) الاحكام : ٣ / ٥ باختصار وتلخيص

(٣) جاء في مقدمة مجلة الاحكام العدلية كثير من المواد المتعلقة بالعرف ، وانظر بحث

العرف في المدخل الفقهي العام للاستاذ الز. قا : ٨٠٣ - ٩٣٠ (الطبعة الخامسة) .

اللازمة لتحقيق التكافل الاجتماعي وضمان الحقوق الطبيعية الخمسة ، وهي اما مأخوذة من القرآن أو السنة أو مستنبطة من مجموع الاحكام الشرعية نذكر منها على سبيل المثال القواعد التالية :

- ١ - لقد كرنا بني آدم (آية)
- ٢ - ليس للانسان إلا ماسعى (آية)
- ٣ - ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى (آية)
- ٤ - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى (آية)
- ٥ - لا يكلف الله نفساً إلا وسعها (آية)
- ٦ - لا تبخسوا الناس أشياءهم (آية)
- ٧ - لا ضرر ولا ضرار (حديث)
- ٨ - إن جسيمك عليك حقاً (حديث)
- ٩ - إن لزوجك عليك حقاً (حديث)
- ١٠ - ليس لعرق ظالم حق (حديث)
- ١١ - ما لا يثم الواجب إلا به فهو واجب (قاعدة)
- ١٢ - ما يؤدي الى الحرام فهو حرام (قاعدة)
- ١٣ - درء المفاسد مقدم على جلب المصالح (قاعدة)
- ١٤ - الضرورات تبيح المحظورات (قاعدة)
- ١٥ - يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام (قاعدة)^(١)
- ١٦ - يتحمل الضرر الادنى لدفع الاعلى (قاعدة)

(١) ومنها قال أبو حنيفة : يجب الحجر على المفتي الماخن والطبيب الجاهل والمكاري المفلس لان الاول يفسد على الناس اديانهم والثاني يفسد عايهم ابدانهم والثالث يفسد عليهم اموالهم (انظر : المبسوط للرخسي : ١٧٥/٢٤)

- ١٧ - المشقة تجلب التيسير (قاعدة)
 ١٨ - التصرف على الرعية منوط بالمصلحة (قاعدة)
 ١٩ - لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان ^(١) (قاعدة)
 ٢٠ - الامور بمقاصدها (قاعدة)
 ٢١ - الغرم بالغرم او الخراج بالضمان (قاعدة)
 ٢٢ - الضرورة تقدر بقدرها ^(٢).

أبحاث حول هذه النظرية

سنحاول الآن أن نتحدث عن بعض المبادئ التي تنادي بها الاشتراكية الحديثة وبيان موقف الاسلام منها ، ونقتصر على أهمها وهي : التأميم ، تحديد الملكية الزراعية ، حقوق العمال .

١ - التأميم

ما هو موقف الاسلام من التأميم ؟ تأميم الصناعات ، تأميم المرافق العامة ، تأميم الارض وما أشبهها ؟
 سنستعرض بعض النصوص والمبادئ المقررة في الشريعة ليتضح موقف الاسلام من هذا الموضوع .

١ - لقد ذكرنا في مبادئ التملك قول الرسول ﷺ : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلاء والنار » وهذا يفيد ان كل انسان له حق الاستفادة من هذه

(١) هي الاحكام التي شرعت في الاصل لتحقيق مصلحة او بناء على عرف مشروع ، ثم زالت المصلحة أو تغير العرف .

(٢) انظر شرح هذه القواعد وغيرها في المدخل الفقهي العام للاستاذ الزرقا ٩٣٢ - ١٠٧٥ (الطبعة الخامسة) .

المواد الطبيعية لحاجة الناس جميعاً إليها ، وقد قرر الفقهاء أنه لا يجوز أن يستأثر بها انسان دون بقية الناس الا بعد احرازها في الآنية أو مآشبهها ، فاذا أدت الملكية الشخصية لهذه الاشياء الى أن تحبس عن الناس أو يتحكم مالكها في ثمنها أو توزيعها بحيث يتضررون من ذلك وهم في حاجة اليها ، كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار ، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لاشراك الناس جميعاً في الاستفادة منها تحقيقاً لمعنى « الشركة » الواردة في الحديث ، وذلك يعني « التأميم » أو تدخل الدولة في « تحديد » الاسعار . ولا شك في أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر ، بل يلحق بها كل ما كان مثلها في حاجة الناس جميعاً إليها . بدليل اضافة « الملح » إليها في بعض الروايات ، وهذا يعني أن كل ما كان ضرورياً للناس من طعام أو غيره يأخذ ذلك الحكم : وهو « جواز التأميم » من الناحية التشريعية .

٢ - ومن المعلوم أن الوقف جائز في الاسلام ، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية التي تحدثنا عنها في قوانين التكافل الاجتماعي ، والوقف كما عرفه الفقهاء هو « إخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها الى أن تكون غير مملوكة لاحد بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم » وهذا هو « التأميم ».

٣ - ومن المتفق عليه أن رسول الله ﷺ حرم أرضاً بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيل المسلمين ^(١) ، وحرم عمر أيضاً أرضاً بالزينة وجعلها مرعى لجميع المسلمين ، فجاء أهلها يقولون : يا أمير المؤمنين ! اننا بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية واسلمنا عليها في الاسلام ، على م تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله ،

(١) رواه احمد واخرجه ابو عبيد في « الاموال » ص ٢٩٨ وانظر بحث الحمى في

الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٦٤ وللغازي ابى يعلى ص ٢٠٦

والعباد عباد الله ، والله لولا ما حمل عليه في سبيل الله ما حيت من الارض
شبراً في شبر^(١) .

وظاهر ان « الحمى » هو اقتطاع جزء من الارض لتكون مرعى عاماً
لا يملكه احد ، بل ينتفع به سواد الشعب ، وقد اوضح ذلك عمر حين قال لهثني
ما استعمله على حمى الربذة : يا هثني ! اضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة
المظلوم فانها مجابة ، وأدخل رب الصريمة والغنيمة - اي مكن صاحب الابل
القليلة والغنم القليلة من رعيها في تلك الارض - ودعني من نعم ابن عفان ونعم
ابن عوف - أي من أصحاب الاموال الكثيرة - فانها إن هلكت ماشيتها رجعا
الى نخل وزرع ، وإن هذا المسكين - أي صاحب الابل أو الغنم القليلة - إن
هلكت ماشيته جاءني بينه يصرخ : يا أمير المؤمنين ! - أي يطلب معونة الدولة
لان له حقاً في بيت المال حين يفتقر - أفتاركهم أنا لا أبالك ؟! فالكلأ أيسر
على من الذهب والورق - الفضة - وانها لارضهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا
عليها في الاسلام ، وانهم ليرون أني ظلمتهم ، ولولا النعم التي يحمل عليها في سبيل
الله ما حيت على الناس شيئاً من بلادهم^(٢) .

وهذا صريح في « تأميم » الارض لضرورة الدولة والمجتمع ، وفيه من
المبادئ أن أصحاب الحاجات والثروات القليلة أولى بالانتفاع بالمصالح المؤتممة من
أصحاب الثروات الكبيرة ، وأنه لو لم يفعل ذلك لهلكت رؤوس الاموال
الصغيرة ، ولزم الدولة أن تكفيهم وعوائلهم ، وأن المصلحة التي تصيب هؤلاء
وهم سواد الشعب ، تتحقق بتحمل ضرر بسيط يلحق أصحاب الحق في المال

(٢) الاموال : ٢٩٩ : (٢) الظاهر في البشارة : (١)

(١) رواه البخاري وذكره ابو عبيد في الاموال : ٢٩٩ : (٢)

« المؤمم » وهو أفضل من تحمل ضرر أكبر بالزام خزانة الدولة و إعالة تلك العائلات ! .. وهذا تطبيق لقاعدة « يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى ».

٤ - ومن المقرر في الفقه الاسلامي ايضاً أن الاحتكار غير جائز ، وأن المحتكر الذي يمتنع عن بيع الناس ما احتكره ، يجبره القاضي على بيع ما زاد عن قوته وقوت عياله ، وكذلك إذا أبى أن يبيعه للناس إلا بسعر فاحش يشق عليهم ، يأمره القاضي ببيعه بسعر معتدل الربح وفق تقدير الخبراء ، فإذا أبى في الحالين انتزع منه ماله ، وباعه عليه بسعر معتدل ^(١) . فإذا اقتضت مصلحة المجتمع اليوم انتزاع ملكية الأرض من أصحابها جاز ذلك كما جاز في الاحتكار .

٥ - كان لسمرة بن جندب نخل في حائط (بستان) رجل من الانصار ، فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الانصاري الى رسول الله ﷺ مايلقاه من سمرة ، فقال الرسول لسمرة : بعه ، فأبى ، قال : فاقلعه ، فأبى ، قال : هبه ولك مثلها في الجنة ، فأبى ، - وكان يظن أن الرسول يقول له ذلك على سبيل النصيحة لاعلى سبيل القضاء والالزام - فقال له رسول الله : أنت مضار ، وقال للانصاري : اذهب فاقلع نخله ^(٢) .

فهذا « انتزاع » الملك جبراً عن صاحبه ، حين أدت ملكيته الى ضرر جاره ، فكيف اذا أدت الى ضرر المجتمع ؟

٦ - وقد قاسم عمر ولاته نصف أموالهم وهم من كبار الصحابة كأبي هريرة وعمر بن العاص وابن عباس وسعد بن ابي وقاص ، وهذا « انتزاع » للمال حين اقتضته المصلحة .

(١) انظر : الاختيار شرح المختار : ١١٥/٣ والحسبة لابن تيمية . وابن عابدين : ٥/٢٥٥

(٢) رواه ابوداود وذكره القاضي ابو يعلى في الاحكام السلطانية : ٢٨٥

٧ - وقد تقدم لنا في قوانين التكافل الاجتماعي : في قانون الاسعاف ، وقانون الطوارئ ، وقانون الكفاية ، انتزاع جزء من أموال الاغنياء لمصلحة المجتمع ، وفي هذا ما يرشد الى « انتزاع » الملكية بطريق « التأميم » لمصلحة المجتمع أيضاً .

٨ - وتقدم لنا أن الشريعة تحارب الظلم وتسعى للعدل ، وأنها تراعي مصلحة المجتمع ، فإذا كانت ملكية الافراد تؤدي الى ظلم الشعب أو فئة منه ، كان من المصلحة انتزاع هذه الملكية أو تحديدها ، وكان الاخذ بذلك « استصلاحاً » تفعله الدولة من قبيل « السياسة الشرعية » وهي حق الدولة في فعل كل ما فيه مصلحة للناس .

وخلاصة القول أن « التأميم » وقع في الاسلام « تشريعاً » كما في « الوقف » ووقع في تاريخ الاسلام « عملاً » كما في « الحمى » وأن انتزاع الملكية وقع من الرسول « قضاءً » كما في قصة سمرة بن جندب ، فإذا كانت المصلحة العامة تحتم « التأميم » وفيه دفع الظلم والضرر عن الناس أو عن فئة كبيرة منهم ، كان التأميم « واجباً » في تلك الحالات .

ولما كان مبدأ « التأميم » كمنظريه اقتصادية محل نقاش بين علماء الاقتصاد وخاصة غير الاشتراكيين منهم ، فنحن نرى أن لاتباع الدولة الى تأميم صناعة أو مرفق من المرافق العامة الا بعد اخذ رأي الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين عملاً بقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر »^(١)

إلا أننا نرى أن تأميم « الكهرباء » و « المياه » و « بعض المواد الغذائية » مما

يحتّمه الحديث « الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلا والنار » و « الملح » ، والماء هو مصلحة المياه اليوم ، والنار هو مؤسسة الكهرباء في عصرنا الحاضر ، والكلا والملح أمثلة للمواد الضرورية التي لا يستغني عنها انسان ما .

بقي ان يقال : ان نصوص الشريعة قاضية باحترام الملكية الشخصية ، وانه لا يجوز أخذ المال إلا برضى من صاحبه ، والتأميم انتزاع للملكية بغير رضا صاحبها ، وجوابنا على ذلك أن تلك النصوص ليست على اطلاقها باجماع الفقهاء ، فما فعله الرسول ﷺ ثم عمر والخلفاء من بعده من « حمى » بعض الاراضي هو انتزاع للحق من اصحابه بغير رضاهم ، وجواز أخذ الطعام عند الحاجة ممن ليس محتاجاً اليه ، هو اخذ للمال من غير رضا صاحبه ، واجبار الحاكم للمحتكر على بيع ما احتكره وبيعه عليه اذا أبى ، هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، وبيع القاضي مال المدين سداداً لديون الغرماء — على رأي جمهور الفقهاء — هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، واخذ الشريك ما باعه شريكه من عقار مشترك بينهما بحق الشفعة هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، والاستملاك للمنفعة العامة كما تفعل « البلديات » اليوم وهو جائز في الشريعة ، انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، وامثال هذا كثير في الفقه الاسلامي .

نعم اذا لجأت الدولة الى « التأميم » لضرورة اجتماعية ، وجب عليها أن تعوض على من انتزعت منهم ملكيتهم تعويضاً عادلاً ، اذا كانت ملكيتهم لذلك المال عن طريق مشروع ، وخاصة إذا كان ما أمته ستبيعة للناس أو تأخذ على انتفاعهم منه نصيباً مقدراً ، وذلك قياساً على الاحتسار ، وعملاً بالقاعدة « الضرورة تقدر بقدرها » .

(١) انظر : الاختيار شرح القطار ١٦٥/٣٠ والحاشية لانتقبة وان ما يندرج ٢٥٠/٢٥٠
(٢) رواه ابوداود وذكره القاضي ابو يعل في الاحكام السلطانية ٢٠٠/١٢١ (٢)

٢ — تحرير الملكية الزراعية

لما فتحت العراق والشام والجزيرة على المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ، اختلف الصحابة في الاراضي الزراعية في تلك البلاد : أيقسمونها على الفاتحين ، أم يتركونها بأيدي اصحابها ؟ واستقر الامر على الرأي الثاني ، فبقيت الاراضي في ايدي الفلاحين ، ومسحت من جديد ، وقدرت عليها ضريبة الخراج ، وكان أساس التقدير أن تقدر غلتها المعتادة ثم يترك للفلاحين ما يحتاجون اليه من نفقة لهم ولعياهم ولمن تلزمهم نفقتهم للسنة كلها ، مع زيادة يدخرونها للنوائب ، ثم تأخذ الدولة منهم ما بقي .

أخرج أبو يوسف وأبو عبيد أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة وبعث عثمان بن حنيف على مادونه ، فأتياه فسألهما : كيف وضعتما على الارض ؟ لعلكما كلفتما أهل عملكما (اي الفلاحين) ما لا يطيقون ؟ فقال حذيفة : لقد تركت فضلا ، وقال عثمان : لقد تركت الضعف ولو شئت لآخذته ، فقال عمر : أما والله لئن بقيت لأرا من أهل العراق لادعهم لا يفتقرون لأمير بعدي ^(١) .

وبذلك يكون عمر والصحابة قد اعتبروا أراضي العراق والشام والجزيرة (وكذلك أراضي مصر) رقبته للدولة ، وفلاحوها أجراء عليها ، يأخذون من غلتها ما يحتاجون اليه من نفقة للعام كله مع فضل في التقدير ، وما بقي فهو للدولة ، وقد قال بعض علماء القانون المشهورين في بلادنا ان عمر قد سبق بهذا العمل «ستوارت ميل» العالم الاجتماعي الانجليزي وغيره من القائلين بعدم جواز تملك الارض من قبل الافراد ، بل الاحتفاظ بربقتها للدولة ، واستغلالها بأسلوب

(١) الخراج لأبي يوسف ٣٧ والاموال لأبي عبيد : ٥٠

الضرائب أو أبدال الايجار أو خراج المقاسمة المفروض على حاصلاتها ضمن حدود الربع ، وهو مازاد عن غلة الارض على أجرة العامل عليها^(١)

وسار المسلمون في فتح الاندلس على سنة تختلف عن سنة عمر ، وهي تقسيم الاراضي الزراعية بين فلاحها الذين كانوا محرومين من تملك الارض في عهد (الفيزيغوت) قال « دوزى » المستشرق المعروف في كتابه « تاريخ الاندلس » « لقد انقذ الاسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيد وأقنان الارض من العبودية والظلم ، وحررهم من سلطة الاقطاعيين الاقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لا عبيداً لهم فحسب بل عبيداً للأرض أيضاً ، لقد كان الفتح العربي حسنة بالنسبة لاسبانيا ، فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة ، وأزال قسماً كبيراً من الآلام التي كانت تزرع تحتها البلاد منذ قرون ، فان سلطة الطبقات ذات الامتيازات وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم العبيد وأقنان الارض ، ووزعت الاراضي المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة ، وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدراً للسعادة وسبباً لازدهار الزراعة في اسبانيا العربية » ثم يقول « لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية : خففت الضرائب تخفيفاً عظيماً بالنسبة لما كانت عليه ايام الحكام السابقين ، وصودرت الاراضي من اصحابها الاغنياء حيث كانت تشكل اقطاعات عظيمة جداً تزرع من قبل العبيد والاقتان ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها وكان المالكون الجدد (العبيد) يعملون بجحاس ويجنون افضل المحصول »

ويقول ليفي بروفانسال : « إن الازدهار الزراعي الذي أصاب اسبانيا بعد

(١) علم المالية للاستاذ فارس الخوري : ١٤٧ - ١٤٩

الفتح الاسلامي يعود ايضاً الى التقسيم الكبير للملكية الارض^(١) نستنتج من ذلك ان الدولة الاسلامية في اوائل قيامها كانت سياستها بالنسبة الى تملك الارض المفتوحة تتخذ أحد طريقين :

- ١ - اما نقل ملكيتها الى الدولة على ان يكون عمالها الزراعيون اجراء عليها
- ٢ - واما تقسيمها الى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحوا جميعاً مالكيين لها ، وتزول معالم الملكيات الكبيرة وآثارها المفجعة .

ولو استمر الاسلام في سيره الطبيعي ولم ينحرف ولاة السوء عن هدفه الاشتراكي العظيم ، لظلت أراضي الشام ومصر والعراق كما كانت ملكاً للدولة يشتغل الناس عليها بخراج المقاسمة ، وبذلك تكون بلادنا اول بلاد في العالم طبقت مبدأ ملكية الدولة لرقبة الارض ، هذا المبدأ الذي نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا في الربع الاول من هذا القرن .

واستمر الامر الى عهد عبد الملك بن مروان لا يجري في اراضي هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن لهم عبد الملك والوليد وسليمان في الشراء على أن يدفعوا ثمنها الى بيت المال ، وأراد عمر بن عبد العزيز أن يرد الامر الى نصابه فينتزع الاراضي من أيدي أصحابها الجدد ، ولكنه وجد من الصعوبة ما لم يجد معه حيلة ، فلقد تقسمت الاراضي في الموارث ومهور النساء والديون والمعاملات وغيرها ، فأقر ما كان قبل عهده ، ونهى عن شراء الاراضي وبيعها بعد ذلك وكذلك حاول المنصور في العصر العباسي فلم يستطع ، وهكذا طغت الاهواء على استقامة هذا التشريع العظيم .

(١) اسبانيا المسألة في القرن العاشر ص: ١٦١ من ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكواكبي .

قال الاوزاعي : أجمع رأي عمر وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ظهر على الشام (والعراق ...) على إقرار أهل القرى في قراهم على ما كان بأيديهم يعمرونها ويؤدون خراجها ، ويرون أنه لا يصح لأحد من المسلمين شراء هذه الاراضي طوعاً ولا كرهاً ، لما كان من اتفاقهم على أنها لا تباع ولا تورث^(١).

من هذا نعلم حكم أراضي مصر والشام والعراق في العهود الاسلامية الاولى ، وإذا أضفنا الى ذلك ، ما قدمناه من الأدلة على جواز التأميم ، تأكد لنا جواز « تحديد الملكية الزراعية » خاصة بعد أن رأينا باعيننا الآثار الاجتماعية السيئة للملكيات الزراعية الكبيرة : من إهمالها وعدم استفادة الدولة من إنتاجها كما ينبغي بالنسبة الى مساحاتها الواسعة ، ومن انحطاط المستوى المعاشي للفلاحين الذين يعمرونها بجهدهم ، ومن استبداد المالكين الكبار بشؤون معيشتهم وإهمالهم لصحتهم وازديادهم بكرامتهم . كل ذلك يجعل تحديد الملكية الزراعية بحيث يملك الفلاحون ما يزرعونه من الارض منذ مئات السنين عملاً اصلاحياً كبيراً ، وضرورة اجتماعية ملحة .

ومما يؤيد جواز التحديد اتفاق الفقهاء على مبدأ « سد الذرائع » وقولهم بوجوب تحديد ربح المحتكرين عندما يتأكد تحكمهم في فرض الاسعار كما يريدون مع اضرار ذلك بالشعب ، وتحديد ملك الانسان للمال كتحديد ربحه في المال ، فإذا جاز هذا جاز ذاك ، ويؤيده أن ملك الانسان لقدر معين من الارض مباح ، فإذا رأى الامام أنه لا يصح تملك أكثر من ذلك كان من الواجب اطاعته ، لأن ذلك حق من حقوقه في السياسة الشرعية ، وقد نص فقهاء المالكية على أن للامام أن يمنع أو يحد من زراعة العنب في قرية اعتاد أهلها أن يزرعوا العنب ليتخذ منه عصير للخمر ، وذلك من قبيل الاستصلاح . وقد حد عمر من حرية كبار الصحابة في الانتقال

(١) انظر هذا البحث في المفتي لابن قدامة : ٥٨٤/٢ - ٥٨٨

من المدينة الى غيرها من الامصار ، مع أن الانتقال حق من حقوق المواطنين لأنه ثمرة الحرية التي هي حق طبيعي للانسان ، فما الفرق بين « الحد » من حرية الانتقال و « الحد » من الربح و « الحد » من حرية الزراعة ، وبين « الحد » من التملك ؟

المهم عندنا أن « التحديد » اذا اقتضته مصلحة الامة كان جائزاً بل واجباً وله شواهد في الفقه الاسلامي ، وسوابق تشبهه في تاريخ الحكم الاسلامي ، ومن اعترض على ذلك بظواهر نصوص الشريعة القاضية بأن للانسان أن يملك ما يشاء من الارض ، فجوابنا عليه ما قدمناه في بحث التأمين ، من أن هذا الحق ليس مطلقاً ، بل هو مقيد بمصلحة الجماعة ، وليس في الاسلام « حق » لا يخضع لمصلحة الجماعة ، ومن أنكر هذا فقد أساء الفهم للإسلام ، وصد عنه من حيث لا يريد ...

ولهذا كله فنحن نرى أن تحديد الملكية الزراعية بقانون كقانون اصلاح الزراعي الذي صدر في مصر أولاً ، ثم في اقليمنا (الشمالي) ثانياً ، أمر تميزه مبادئ التشريع في الاسلام ، والواقع التاريخي للحكم الاسلامي ، بل ان واقعنا الحاضر ، ووجوب رفع الظلم ورد الكرامة الى الفلاحين في اراضي الملكيات الكبيرة ، يجعل هذا التحديد واجباً من أهم واجبات الدولة ، اننا نقر المبدأ الذي قام عليه قانون اصلاح الزراعي ونعتبره فاتحة خير في نهضتنا العتيدة ، بقطع النظر عن تفاصيله وبعض أحكامه .

ولسنا نقول هذا القول (تحديد الملكية الزراعية) الآن في عام ١٩٥٩ فحسب ، بل قلناه من قبل ، منذ عام ١٩٤٩ حين كنا في الجمعية التأسيسية (في سوريا) أثناء وضع الدستور ، لقد كان الصراع عنيفاً بيننا وبين المالكين الكبار ، اذ كنا ننادي بوجوب النص في الدستور على مبدأ تحديد الملكية

الزراعية ، على ان يكون هذا التحديد فور صدور الدستور لكل الملكيات الزراعية الموجودة ، وكانوا يعارضون في ذلك معارضة شديدة ، وأخيراً تغلبنا عليهم في اقرار الدستور الذي صدر عام ١٩٥٠ لمبدأ التحديد ، وتغلبوا علينا في جعل التحديد يسري على الملكيات الزراعية التي ستنشأ في المستقبل ، دون أن يكون لذلك مفعول رجعي ، بحيث لا يمس الملكيات القائمة ... وهكذا كنا نحن الذين ننادي بتحديد الملكية الزراعية « رجعيين » وكان الاقطاعيون الكبار « تقدميين » ! .

ثم استمررتنا بعد ذلك على المناداة بمبدأ تحديد الملكية الزراعية في محاضراتنا العامة في مدن لبنان — أثناء هجرتنا اليه بعد خروجنا من السجن في عهد الشيشكلي — ثم في مدن الاقليم الشمالي وقراه الى ان صدر قانون اصلاح الزراعي .

٢ - مفرق العمال

كان من الثورة الاجتماعية الكبرى التي أحدثها الاسلام في التاريخ رفعه من شأن العمل ، واحترامه للعامل وضمانه حياته حياة كريمة ول مستقبله عند الشيخوخة والعجز والرض وضمان أسرته بعد وفاته ، فقد كان العمل في العالم كله قبل الاسلام وحتى عهد قريب يعتبر أمراً مهيناً ، ويُعتبر العمال طبقة دنيئة ليست لها أية حقوق . ولما اخترعت الآلة في العصر الحديث بدأت مشاكل العمال مع أرباب العمل ، وبدأ العمال يطالبون بحقوقهم ويتكثرون ضد أرباب العمل ، وتذهبت الدول أخيراً الى وجوب رفع مستواهم ، وضمان حقوقهم ، لا بدافع من العاطفة الانسانية ، بل خوفاً من تفاقم مشكلاتهم وانتشار الثورة في صفوفهم ، ومن هنا جاءت تشريعات العمال في الدول الحديثة . فما هو موقف الاسلام من هذه التشريعات والحقوق التي لم تكن معطاة لهم من قبل ؟

الواقع أن كل ما قدمناه من مبادئ اشتراكية الاسلام وهي الاعتراف بالحقوق الطبيعية الخمسة لكل مواطن ، ووجوب تحقيق التكافل الاجتماعي ، بحسب قوانينه التي أسلفنا الحديث عنها ، تشمل العامل وتضمن له حقه في التكافل الاجتماعي ، ومع ذلك فقد جاء في النصوص التشريعية ما هو خاص بالعمال ، وما هو شامل لهم مما يمكن أن يستخرج منه مبادئ لسن تشريعات لحقوق العمال ترتفع عن مستوى التشريعات الحالية المعمول بها لدى الدول الحديثة وخاصة الاشتراكية الشيوعية منها .

وسترى فيما نذكره من المبادئ ما يكفل للعمال حياة كريمة مستقرة بحيث تستطيع الدولة أن تسن التشريعات اللازمة - على ضوءها - وفق ما يقتضيه التطور الصناعي والحضاري للأمة .

ونحب أن نشير إلى أن القرآن قد وردت فيه ٣٦٠ آية تحدث عن العمل و ١٠٩ آيات عن « الفعل » وهي تتضمن أحكاماً شاملة للعمل وتقديره ومسؤولية العامل وعقوبته ومثوبته . ونكتفي بسرد بعض المبادئ التي ضمن بها الاسلام حقوق العمل ، وترك تفصيل القول في العمل عموماً الى البحث الشامل الذي نضعه لهذه النظرية .

المبادئ العامة لصيانة حقوق العمال

١ - العمل سرف

يقول الله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً »^(١) والعمل هنا وفي آيات كثيرة جاء شاملاً للعمل الديني أي تنفيذ أحكام الشريعة ،

وهو في عمومه يشمل العمل الصناعي كما يعرف ذلك من قواعد الاجتهاد في الشريعة ، فان العبرة لشمول اللفظ وعمومه . وكذلك ما ذكره من الجزاء الطيب للعمل الحسن ، يشمل الجزاء المادي في الحياة ، وان كان وارداً في الجزاء الاخروي ، بل ربما كان دلالة على الجزاء المادي في الدنيا أقوى ، وكان وروده في الجزاء الاخروي مقصوداً منه الاشارة الى الجزاء المادي في الحياة الدنيا . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده »^(١) .

٢ — العمل نعمة

يقول تعالى : « لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون »^(٢) ، والشكر على النعمة يقتضي حفظها والمداومة عليها .

٣ — العامل مسؤول

يقول تعالى : « ولتسألن عما كنتم تعملون »^(٣) ويقول عليه السلام : « والخادم (العامل) راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته »^(٤) وعليه ان يتقن عمله « ان الله يحب من العامل اذا عمل ان يحسن »^(٥) .

٤ — رب العمل مسؤول

يقول عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »^(٦) ويقول عليه

(١) رواه الامام احمد

(٢) يس : ٣٥

(٣) النحل : ٩٣

(٤) رواه البخاري ومسلم

(٥) رواه البيهقي وفي حديث آخر ان الله يحب اذا عمل احدكم عملاً ان يتقنه (رواه البيهقي)

(٦) رواه البخاري ومسلم

السلام : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم »^(١) .

٥ - لا عمل من غير اجر

يقول تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »^(٢) .

٦ - الاجر على قدر العمل

يقول تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ولا يظلم ربك أحداً »^(٣) ويقول : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم »^(٤) فاذا رضي العامل مضطراً باجر دون ما يستحقه وجب أن يدفع له رب العمل ما يستحقه ولا عبوة برضاه في الاجر المخفض .

٧ - الاجر حق لا منة فيه

يقول تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم اجر غير ممنون »^(٥) .

٨ - الاجر في صحابة الدولة

يقول تعالى : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى »^(٦) ويقول

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) هود : ١٥

(٣) الاحقاف : ١٦

(٤) الاعراف : ٨٥

(٥) فصلت : ٨

(٦) يونس : ٨

عليه السلام : « أعطوا الاجير أجره قبل أن يجف عرقه ^(١) » ويقول « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. منهم .. ورجل استأجر أجيراً فلم يوفه أجره ^(٢) » ، وفي قصة الخضر في القرآن الكريم « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ^(٣) » وهذا صريح في حماية العامل من العدوان عليه في ماله ، وأجره المستحق أصبح مალأ له فتجب حمايته .

٩ — العمل على قدر الطاقة

يقول عليه السلام « ولا تكلفوهم ما لا يطيقون » ^(٤) ويقول تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ^(٥) » فإذا قررت الدولة — بناءً على ما ثبت علمياً — من أن العمل يجب أن يكون ثماني ساعات في اليوم ، وجب التقيد بذلك ، فإذا أراد رب العمل تشغيل العامل أكثر من ذلك وجب إعطاؤه الاجر الاضافي على ذلك . ويكون داخلاً تحت قوله عليه السلام في تمة الحديث السابق : « فإذا كلفتموهم فأعينوهم » وإعطاء الاجر على العمل الاضافي اعانة بلا ريب .

١٠ — من العامل في تأمين نفقاته

للعامل حق في تأمين نفقاته العائلية لان ذلك من كرامته « ولقد كرمنابني آدم ^(٥) » وكان رسول الله ﷺ يعطي الأهل حظين ويعطي العزب حظاً واحداً ^(٦) ، وهذا تقدير لحق الانسان في كفايته المعاشية ، ويقول عليه الصلاة

(١) رواه ابن ماجه

(٢) الكهف : ٧٩

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) البقرة : ٢٨٦

(٥) الاسراء : ٧٠

(٦) رواه البخاري وغيره وذكره ابو عبيد في الاموال ٢٤٢

والسلام « من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ^(١) » وهذا وإن كان وارداً في حق موظفي الدولة ، إلا أن العلة التي اقتضت حصول الموظف على ذلك ، وهي تحقيق كفايته للقيام بعمله بأمان واستقرار ، تقتضي شمول هذا الحكم للعامل ، وليس معنى ذلك أن رب العمل ملزم بإعطائه ما يحتاج إليه من نفقات ولو كان أكثر مما يستحقه من أجر عادل ، بل معنى ذلك أن على الدولة أن تضمن للعامل هذا الحق إذا كان أجره العادل لا يكفيه .

١١ - حق العامل في الراحة

يقول عليه السلام : « ان لنفسك عليك حقاً ، وان لجسدك عليك حقاً ، وان لزوجك عليك حقاً ، وان لعينك عليك حقاً ^(٢) » وهذا يعطي العامل حقاً في الراحة واداء العبادة والقيام بحق الزوجية والابوة .

١٢ - للمامل حماية المجتمع

لقد ضمنت قوانين التكافل الاجتماعي حق المواطن في تأمين معيشته وكرامته عند العجز والمرض والشيخوخة ، كما ضمنت له حق حماية أسرته بعد وفاته ان مات من غير ثروة : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعاً (أي ورثة) او كلاً (أي ذرية ضعفاء) فليأتي فانامولاه ^(٣) » وفي رواية فإلى الله ورسوله : قال أبو عبيد « الكَلَّ كل عَيْلٍ والذرية منهم ، فجعل صلى الله عليه وسلم للذرية في المال (مال الدولة) حقاً ضمنه لهم ^(٤) » .

(١) رواه الامام احمد

(٢) رواه البخاري وغيره

(٣) رواه البخاري

(٤) الاموال : ٢٣٧

هذه جملة من المبادئ التي ضمن بها الاسلام حقوق العمال وتوفير الحياة الكريمة لهم ولأسرهم في حياتهم وبعدها ، وبذلك نعلم أن أكثر ما تضمنته قوانين العمل في بلادنا مما يرفع الظلم عن العمال ويضمن لهم حقوقهم ، هي أحكام شرعية يجب التقيد بها وتنفيذها بحكم الشريعة عدا عن حكم القانون .

٦ - الملاحظات

نكتفي بابداء الملاحظات التالية على نظرية « الاشتراكية الاسلامية » وقوانينها ، نظراً لضيق المجال الآن .

١ - إن اشتراكية الاسلام ليست اشتراكية الدراويش والزهاد كالصوفية وفقراء الهنود الذين ينفرون من المال والتملك جنباً منهم عن تحمل اعباء الحياة ومسؤولياتها ، وانما هي اشتراكية حضارية ايجابية بناءة تقيم أكمل مجتمع حضاري متمدن .

٢ - ان اشتراكية الاسلام في تقريرها للحقوق الطبيعية الخمسة وما وضعتها من قوانين التكافل الاجتماعي تحارب الفقر والمرض والجهل والخوف والمهانة

٣ - ان مستوى المعيشة في اشتراكية الاسلام مرتفع ، فقد رأينا أن من الحاجات الأصلية التي لا يعتبر من يملكها غنياً تجب عليه الزكاة : دور السكنى ونفقات العائلة لسنة كاملة ، وأدوات الركوب والانتقال ، والسلاح ، وكتب العلم ، وآلات المهنة .

٤ - إن اشتراكية الاسلام تطبق على جميع المواطنين في الدولة مسلمين أو غير مسلمين ، لان مبادئها وحقوقها عامة لم تستثن أحداً ، وسنرى كيف تمتع أهل الذمة منذ عهد عمر بحقوق التكافل الاجتماعي كالمسلمين سواء بسواء .

٥ - ان اشتراكية الاسلام تشرك الشعب مع الدولة في تحقيق التكافل الاجتماعي كما في نظام نفقات الاقارب ، ولذلك فوائده الكثيرة ، منها تخفيف العبء عن ميزانية الدولة ، وابقاء عواطف المحبة والود وصلة القربى بين الناس

٦ - ان مبادئ اشتراكية الاسلام مرنة يمكن تطبيقها في كل عصر بما يتفق مع تطور المجتمع وتقدم الحضارة .

٧ - انها لم تكن نظرية فحسب ، كما كانت الديانات السابقة ، ولا عاطفية تعتمد على استدرار « شفقة » الاغنياء كما كانت المذاهب الاشتراكية في عصر النهضة الاوروبية قبل الماركسية ، بل هي عملية مقرونة بالتشريع الذي يطبق على الناس جميعاً كبقية قوانين الدولة .

٨ - ولم تكن كذلك فحسب ، بل كانت جزءاً أساسياً من أعمال الدولة الاسلامية منذ قيامها في القرن السابع .

ولكي تبين مدى خطورة هذه الناحية وأثرها في التاريخ ينبغي أن نلاحظ الحقائق التاريخية التالية :

- أ - ولد الرسول عليه السلام عام ٥٧١ م
- ب - بدأت الرسالة ونزول القرآن عام ٦١٠ م
- ج - في آخر العهد المكي فرضت الزكاة واعلن القرآن الكريم أنها حق للفقراء وذلك حوالي عام ٦٢٠ م
- د - وقعت الهجرة عام ٦٢٢ واستقر الرسول في المدينة وتأسست الدولة الاسلامية الاولى بقيادة الرسول في تلك السنة .
- هـ - وفي (٦٢٢) بدأ تنفيذ نظام الزكاة والتكافل الاجتماعي .

و - توفي الرسول عليه السلام ٦٣٢ بعد أن أصبحت الجزيرة العربية كلها تخضع للإسلام وأحكامه .

ز - بعد وفاة الرسول قامت حروب الردة داخل الجزيرة ، وخاضت الدولة الإسلامية المعارك ضد مانعي الزكاة وأصررت على تنفيذها لتحقيق نظم التكافل الاجتماعي .

مناقشة عن النظائر الاجتماعية عند الغربيين

١ - كان العالم كله وخاصة في الغرب يعتبر اسعاف الفقير يقتصر على الاحسان الاختياري الذي يترك لأريحية الاغنياء ، وكانت مهمة رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين أن يثيروا شفقة الاغنياء ليرحموا الفقراء ، واستمر هذا حتى القرن السابع عشر .

٢ - في القرن السابع عشر - أي بعد نزول القرآن بعشرة قرون - بدأ الغرب يفكر في أن للفقراء « حقاً » على المجتمع .

٣ - كانوا يرون أن هذا الحق من وظائف الجمعيات والهيئات المحلية التي كانت تقوم باطعام الفقراء ، واستمر هذا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

٤ - ثم تنبهوا الى أن عمل الجمعيات والهيئات لا يكفي بالحاجة ولا يتسع لكل الفقراء ، ولا يسعف الفقراء بكل ما يحتاجون ، فبدؤوا يفكرون في أنه يجب أن يكون من وظائف الدولة ، وكانت أول دولة في الغرب بدأت تعنى بتنظيم الضمان الاجتماعي هي المانيا إذ أصدرت أول قانون لذلك عام ١٨٨٣ أي بعد قيام الدولة الإسلامية الأولى بهذا الواجب بألف ومائتي سنة وإحدى وستين سنة !

٥ - ومع ذلك فالذي حصل أن الدولة الألمانية لم تنظم إعانة جميع الفئات المحرومة من الضمان الاجتماعي مرة واحدة ، بل تم ذلك على مراحل ، فأول قانون أصدرته عام ١٨٨٣ كان ضد الأضرار التي تطرأ للعمال الصناعيين أثناء العمل ، ثم أصدرت عام ١٨٨٩ قانونين للتأمين ضد المرض والشيخوخة لعمال الصناعة والتجارة والزراعة ، وفي عام ١٩١١ أصدرت قانوناً لتأمين المستخدمين ضد العجز والشيخوخة والوفاة ، وفي عام ١٩٢٣ أصدرت قانوناً لتأمين عمال المناجم ضد العجز والشيخوخة .

واقصرت هنا على تأريخ تطور التأمين الاجتماعي في ألمانيا وحدها ، لأنها كانت أسبق دول الغرب للقيام بهذا العمل ، ثم تبعها بعض الدول السكندنافية بينما عارضت الدول اللاتينية وبريطانيا في بادئ الأمر معارضة شديدة فكرة الضمان الاجباري ، ثم اقبلت به منذ عام ١٩٠٨ كثير من دول أوروبا وأمريكا .

٦ - لم يصبح مبدأ التكافل الاجتماعي حقاً لجميع فئات الشعب الا في هذا القرن حيث بلغ في عام ١٩٣٣ عدد الدول التي اعتنقت هذا المبدأ اثنين وستين دولة ، أي أن هذا المبدأ أصبح مسلماً به لدى أكثر دول العالم بعد وفاة مؤسس الدولة الاسلامية رسول الله ﷺ بألف وثلاثمائة سنة ، وسنة ! (١)

٧ - ونحب أن نشير أيضاً الى ان أكثر الدول التي تعتنق مبدأ التكافل الاجتماعي تشترط اشتراك الذين تشملهم قوانين التكافل بجزء معين من دخلهم الشهري او الاسبوعي قبل ان يستحقوا فوائد التكافل الاجتماعي . بينما الامر

(١) رجعنا في هذا البحث الى نشرة جامعة الدول العربية عام ١٩٥٢ عن وسائل تنظيم التكافل الاجتماعي في الدورة الثالثة لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية والى بحث للسيد دانييل س. جيرج من منظمة العمل الدولية الذي القاه في تلك الدورة والى مراجع أخرى .

في الاسلام وكما طبقته الدول الاسلامية في مختلف العصور لا يطلب من الفقير أو العاجز دفع مبلغ ما ، بل الدولة تقوم بهذا العمل دون مقابل ، وهذا أمر له دلالة في هذا المقام .

٨ - ونختم هذه الملاحظات بأن تفكير الدول العربية بالتكافل الاجتماعي ثم تفكير الشيوعية بعد ذلك بكل المشكلة من أساسها إنما كان تحت ضغط التطور الصناعي وانتشار موجات السخط في أوساط العمال وافراد الشعب ، ان أوروبا لم تفكر في تأمين العمال ضد البطالة الا بعد الازمة الاقتصادية التي عانتها أوروبا منذ عام ١٩٢٩ .

بينما اعلن الاسلام هذا النظام الكامل للتكافل الاجتماعي قبل ثلاثة عشر قرناً دون ان تكون هنالك في البيئة العربية - التي ظهر فيها الاسلام - عوامل اقتصادية اضطرت الاسلام لاعلان هذا النظام ، ودون ان يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة أو رغبة في انتزاع المال والسيطرة عليه انتقاماً من الاغنياء والاثرياء ، بل هي نزعة انسانية عميقة قبل ان ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدي الى قريب منه عبارة العالم بثلاثة عشر قرناً ، ولعل في هذا ما يقنع الذين لا يريدون ان يعترفوا بان محمداً رسول الله وان الاسلام دين الله !

٧ - المقارنات

أ - مع الرأسمالية

لأريد ان اقرن الان بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية ، اذ لالقاء بينها - كذهب اقتصادي - الا في اعطاء الفرد حق التملك ، وفسح المجال للتنافس في ميدان الانتاج . ولكن حق التملك في اشتراكية الاسلام يخضع لمصلحة الجماعة ، وحق التملك

في النظام الرأسمالي 'يخضع الجماعة لمصلحة رأس المال . والتنافس الذي تفسح الاشتراكية الاسلامية مجاله للافراد ، من شأنه أن يشيع الحب والتعاون والهناء في المجتمع ، بينما التنافس الذي تفسح الرأسمالية مجاله للافراد من شأنه أن يشيع العداة والحلاف والاضطراب في المجتمع .

ولا لقاء بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية - كواقع سياسي - لان الرأسمالية الغربية ملوثة بدماء الشعوب ، وهي الباعث الاول للاستعمار ، تفوح من ارداتها روائح الاستعباد واللصوصية والاستغلال .

فلا لقاء بين الاشتراكية الاسلامية وبين الرأسمالية في مجالٍ ما ، لاني مذهبا للاقتصادي ولا في واقعها السياسي !

ب - مع الشيوعية

ولا أريد أيضاً ان اتوسع الان فيما تتميز به اشتراكية الاسلام عن المذاهب الاشتراكية عامة ، والشيوعية خاصة ، ولكنني اكتفي بذكر بعض هذه المميزات التي اعطت اشتراكية الاسلام طابعها الخاص ، وجنبتها أسوء الشيوعية وغيرها من المذاهب الاشتراكية ، وبها كانت أقدر على اسعاد الناس ، وتقوية عوامل الخير والحب والتعاون فيما بينهم .

١- ان اشتراكية الاسلام تنسجم مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة في اباحتها للملكية الشخصية ، وهذا ما أنكرته الشيوعية - النظرية - كما وضعها ماركس وانجلز ، زاعمة ان التملك ليس أصيلا في النفس الانسانية ، وعدا عما تشعر به النفوس والعقول بداهة من بطلان هذا الزعم ، فان في اعتراف الشيوعية - التطبيقية - أخيراً بالملكية الشخصية ولو في حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها النظري .

جاء في الدستور السوفياتي ^(١) مايلي :

المادة ٧ - لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية بالاضافة الى دخلها الاساسي الذي يأتيها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشترك قطعة من الارض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها في الارض اقتصاد اضافي ومنزل للسكنى وماشية منتجة وطيور وادوات زراعية بسيطة كملكية خاصة ..

المادة ٩ - الى جانب النظام الاشتراكي الذي هو الشكل السائد في اقتصاد الاتحاد السوفياتي ، يسمح القانون بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة الخاصة بالفلاحين الفرديين والحرفيين ، على ان تقوم على عملهم الشخصي ، ويشترط ان لا يستثمروا فيها جهود الآخرين .

المادة ١٠ - ان حق الملكية الشخصية للمواطنين في دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم وفي مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية وفي الحاجيات والادوات المنزلية وفي الاشياء ذات الاستعمال الشخصي والراحة ، وكذلك حقهم في « إرث » الملكية الشخصية - حق مصون بموجب القانون .

هذا ماجاء في آخر تعديل للدستور السوفياتي - على ما نعلم - وهو مخالف مخالفة صريحة لمبادئ الشيوعية الماركسية . ورجوع الى الفطرة الانسانية « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » ^(٢)

٢ - ان اشتراكية الاسلام في اباحتها للملكية الشخصية ، انما تسمح للمواهب الانسانية ان تنطلق في ميدان التنافس البناء الذي هو بلا ريب أكبر سبب من أسباب تطور الحضارة ونمو الانتاج ، والشيوعية تزعم أن هذا التنافس هو

(١) نقلا عن النسخة العربية المطبوعة في موسكو عام ١٩٤٣ المترجمة عن النسخة الروسية

المطبوعة في موسكو عام ١٩٤١

(٢) الروم : ٣٠

الذي يجر البلاء على المجتمع ، اذ يؤدي الى استغلال ارباب الاموال للجهاير
أسوأ استغلال ، وهذا لما يصدق على التنافس الرأسمالي الذي رأته الشيوعية
النظرية قائماً في اوروبا ، ولكنه لا يصدق ابداً على التنافس الاشتراكي الاسلامي
لانه مقيد اولاً بمبادئ التملك التي ذكرناها في اوائل هذا البحث ، ومقيد ثانياً
باشراف الدولة وتوجيهها ويقيظتها كما رأينا في هذا النظام ، ومقيد اخيراً بالمثل
الاخلاقية العليا التي هي جزء من عقيدة الاسلام ، وبقضة الضمير الديني الذي
تعتمد اشتراكية الاسلام عليه أكبر اعتماد ، وفي واقع رأس المال الاسلامي في
الدولة الاسلامية الاولى وما بعدها اكبر دليل على هذا .

٣- إن اشتراكية الاسلام تؤدي حتماً الى تعاون فئات المجتمع المختلفة ، لا إلى
حرب الطبقات كما تفعل الشيوعية ، فحين تكفل اشتراكية الاسلام الحياة
الكرمية للضعفاء والعاجزين والفقراء وغيرهم ، وتمنع استغلال الاغنياء وتحكمهم ،
وتفجر ينابيع الخير في نفوس الناس كافة ، فتدعو الغني للبذل ، والفقير للعمل ،
والمحزون للصبر ، وتضمن للمريض دواءه ، وللعاري كساءه ، وللشيخ راحته ،
وللاطفال تربيتهم وتعليمهم ومعيشتهم ، لا يكون في المجتمع إلا إنسان راض ،
ومواطن متعاون ، وفتة تحب الاخرى ، وسترى في الواقع التاريخي امثلة
رائعة لهذا الحب والتعاون ، اما الشيوعية فأساس دعوتها إثارة الفئات بعضها
على بعض ، وملء قلوب بعضها بالحقد على بعض ، وشتان ما بين هذا وذاك .

٢- ان اشتراكية الاسلام تقوي اكبر صرح في بناء الحضارات منذ
عرف تاريخ الانسان ، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة ، رب العالمين ، العادل
الرحيم ، الحكيم العليم ، الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولا يشرع لعباده إلا
الخير ، فمن أطاع شرعه أحياء حياة طيبة ، وأدخله في الآخرة جنات تجري من
تحتها الانهار ، ومن عصى شرعه ابتلاه بالنكبات ثم رده في الآخرة الى نار تلظى
لا يصلاحها الا الاشقى الذي كذب وتولى ، يوم يحاسب الناس على اعمالهم ، فمن

يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، هذه العقيدة هي التي توقيظ الضمير ، وتهذب النفس ، وتكبح من جماح أهوائها وشهواتها ، وتجعل الانسان دائماً امام محكمة ضميره ومراقبة ربه ، في علاقته بجيرانه ، وعلاقته بأهله ، وعلاقته بمجتمعه ، ويوم تتخلى الامة عن هذه العقيدة كما تريد الشيوعية ، فقد سمحت للشر ان يستفحل في صفوفها ، لقد سمحت لنفسها ان تتحرر انتحاراً جماعياً ، وان تكون وباء عالمياً يهدم القيم العالية ، ويزيل الثقة والاستقرار . إن اشتراكية الاسلام حين تقوى في نفوس الناس الايمان بالله ومراقبته ، انما تحكم صمام الامان في النفس الانسانية ، بينما ترفع الشيوعية - بانكارها لله - هذا الصمام ، فلا يبقى في النفس الانسانية شر إلا انطلق ، ولا قوة إلا اندفعت للتدمير .

٥ - إن اشتراكية الاسلام تعتمد على الاخلاق الكريمة ، وتجعلها جزء من عقيدتها ، وتحمل الانسان على ان يتحلى بأكملها ، والشيوعية لاتؤمن بالقيم الاخلاقية العاطفية كالحب والرحمة ، والاجتماعية كالصدق والوفاء ، ولاتنظر إليها إلا في اطار المصلحة الشيوعية ، فلا ثقة لك بمجديث شيوعي ولابعده ، انك لاتدري متى يصدق ومتى يكذب ومتى يفي ومتى يغدر ، إلا اذا عرفت ان تكون مصلحته ! ومصلحة الشيوعي إن كان يعيش في مجتمع غير شيوعي فهي مصلحة حاقدة مخربة ، وان كان يعيش في مجتمع شيوعي فمصلحته مصلحة طاغية خادمة لمصلحة حزبه في التحكم والاستبداد وخنق كل معارضة ، والشيوعي يستخدم امثال العليا التي يؤمن بها الناس في الدعاية لمبدئه للتضليل والتفجير ، فهو يدعو الى الديمقراطية في مجتمع غير شيوعي - كمجتمعنا العربي مثلاً - ليتخذ من ذلك وسيلة الى الدعايات المضللة ، بينما هو يكفر بالديمقراطية في مجتمع شيوعي لأنها تعطي الجماهير حرية مناقشتها للقادة الشيوعيين وهذا ما يجاربه الحكم الشيوعي بكل قوة ، والشيوعي يدعو الى الحرية في مجتمع غير شيوعي ليتخذ منها وسيلة

لاثارة العمال والطلاب والجمهير ضد الحكم القائم ، ولكنه يكفر بالحرية في مجتمعه الشيوعي ، فلا اضراب ولا مظاهرات ولا انتقاد لحاكم ، ولا حرية في تفكير خارج إطار التفكير الشيوعي ، وفي موقف الاتحاد السوفياتي من الكاتب الروسي الذي نال جائزة نوبل للسلام أحدث برهان على هذا ...

ان الاخلاق التي تعارف عليها الناس ، ونادت بها الديانات ، وأيدها المصلحون في جميع الامم وفي جميع العصور ، هي محل سخرية لدى الشيوعي ، لانها في رأيه من صنع الذين ادعوا لانفسهم النبوة والحكمة خدمة لمصالح الاغنياء والاقطاعيين !.. إن المؤمن يمتنع عن الخداع أو الكذب خوفاً من الله وحسابه في اليوم الآخر ، اما الشيوعي فماذا يمنعه من ذلك ؟ انه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يبالي بسخط الناس ، ولا ضميره يؤنبه على ما فعل ، لانه لا يعتبر نفسه قد ارتكب جريمة ! فهم يقلقون ؟ وهم يخجلون ؟ ألا انها اكبر كارثة تصيب الانسانية وتود الانسان الى ما وراء صفوف الحيوان ! ..

٦ - إن اشتراكية الاسلام تعلن ثقتها بالانسان ، وبغرائز الخير والنبيل فيه ، وأنه الى الخير اقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطرة » (١) وفي قصة خلق آدم كما وردت في القرآن الكريم إشارة واضحة الى هذا « اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض « خليفة » قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال اني أعلم ما لا تعلمون ، وعلّم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم .. واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس اباى واستكبر وكان من الكافرين » (٢) فالانسان كما تدل عليه هذه القصة خلق ليكون « خليفة » عن

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما

(٢) البقرة : ٣٠ - ٣٤

الله في الارض يعمرها ويملؤها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه مافيه من غرائز الشر من أن يستحق هذه « الخلافة » ومن ان يسخر الله له جميع القوى ويخضع له جميع المخلوقات .

إن الانسان أهل لأن يعمل الخير اذا اتبع شرائع الله وامثل لامره « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) ولهذا يعمل الاسلام على أن يقوي في الانسان دينه ويهذب نفسه ويصفي روحه ، ثم هو يكله بعد ذلك الى ضميره في تنفيذ مبادئه اكثر مما يجبره على ذلك بقوة الدولة ورهبة السلطان .

ولكن الشيوعية لا تثق بالانسان ، لان تاريخه كله من اوله الى آخره تسلط وقتال من اجل الاكل والمال .. انها لا تثق بدينه لأنه يؤمن بخرافة ، ولا تثق بضميره لان القيم التي يؤمن بها الضمير قيم باطلة ! انها لا تثق بغرائز الخير فيه ، وانما تثق بغرائزه الجشعة ورغبته في الاستئثار والطغيان ، ولذلك فهي لا تسلمه المال لأنه يستعمله في استغلال الكادحين ، ولا تطلق له الارادة لانه ينزع الى التحكم والاستبداد ، ولا تعطيه الحرية لانه لا يحسن استعمالها ، وقد اثبت الحكم الشيوعي ان الشيوعية لا تثق بالمواطن الشيوعي ، فهي لا تعطيه حرية اختيار الحاكم وشكل الحكم لانه لا يهتدي الى ذلك سيلاً ، وانما تهتدي اليه القيادة الشيوعية العليا ، وأن الشيوعية لا تثق بالموظف الشيوعي لانه ثبت لها أن كبار موظفي الدولة والحزب الشيوعي في روسيا قد استغلوا فرصة انشغال دولتهم بالحرب الاخيرة (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فجمعوا الاموال واقتنوا الاراضي ، وقد أذاع ذلك ستالين في منشور له بعد انتهاء الحرب ، عممه على جميع أبناء الشعب ، يندد فيه بأولئك الذين انتهزوا فرصة الحرب فخانوا مبادئ الثورة الاشتراكية ! ..

وأثبت تاريخ الحكم الشيوعي أيضاً أن الشيوعية لا تثق بالرئيس الشيوعي لأنها جربته حين ينفرد بالحكم فرأته سفاكاً للدماء - أي دماء الشيوعيين طبعاً - غداً وبالاعوان والاصدقاء .. لقد قال ذلك السيد خروتشوف في حق زعيمه ستالين بعد موته !

إذا فالشيوعية لا تثق بالانسان المتدين لانه رجعي ! ولا بالغني لانه استغلالي ! ولا بغير الشيوعي ولو كان فقيراً لانه بروجوازي ! ولا بالمواطن الشيوعي لانه غني ! ولا بالموظف الشيوعي لانه انتهازي ! ولا بالرئيس الشيوعي لانه ارهاقي ! ويظهر ان « ابليس » أيضاً لا يثق بالانسان ولذلك لم يخضع له كما خضعت الملائكة ..

ان الشيوعية لا تثق بالانسان . فمن حق الانسان أن لا يثق بالشيوعية ! ..

٧ - ان اشتراكية الاسلام تقوى في الانسان كل جانب من جوانبه الانسانية : تقوي روحه وقلبه وعقله وخلقه وجسمه لانه هو كل ذلك . أما الشيوعية فهي تقوي فيه بطنه على الجوانب الاخرى فيه ، انها تجعل الانسان أشبه ما يكون بشخص له بطن كبير و صدر ضيق ورأس صغير كرأس العصفور وعينان مطموستان واذنان مسدودتان ويدان قصيرتان ورجلان هزيلتان ! هل تتصورون أقبح في مرأى العيون من هذا الشخص ؟ ان الانسان - كما تريده الشيوعية - أقبح منظرأ من داك في مرأى القلب والعقل .

والشيوعية تعتبر مأساة الانسانية كلها من أقدم التاريخ الى اليوم مأساة بطن جائع .. ومن ثمة فهي تنادي بأنه لا سبيل للسلام والسعادة الا بنظامها الذي يسلب من الناس أموالهم ويملأ بطونهم ، ومعنى ذلك انه ليس في الانسان رذيلة الا حب التسلط على مال الآخرين وانتزاع خبز الآخرين ، ومعنى ذلك أن الشيوعية تجزم بأنه لن ينشأ في العالم شر بعد القضاء على رأس المال ، وهذا تصوير

للمشكلة الانسانية يدعو الى الضحك والاشفاق على عقول الشيوعيين ..

لنتصور - ياسادة - أننا انتقلنا الآن بطرفة عين على بساط الريح الى الاتحاد السوفياتي ، وهو الدولة الشيوعية الاولى في العالم ، فهل نتصور أننا سنرى الشيوعيين هناك وقد انتزعت من أيديهم رؤوس الاموال وأصاب كل منهم نصيبه من الغذاء والكساء والدواء ، هل نتصور أنهم يعيشون ملائكة ليس فيهم من يحقد ولا يحسد ولا يعتدي شيوعي على آخر في نفسه أو كرامته أو سمعته ، أو ينفس على غيره مكانته الاجتماعية ومواهبه الفكرية ؟ ان هذا غير واقع ولا يدعيه الشيوعيون أنفسهم ، فهم بين أمرين : اما أن يزعموا أن الحقد والحسد والعدوان وأمثالها فضائل ، وعندئذ ينقطع ما بينهم وبين الناس من صلة الانسانية .. واما أن يعترفوا بأنها رذائل ، وهنا تتسأل : بماذا يعالجون هذه الرذائل ؟ بماذا يعالجون أمراض النفس الانسانية ، وأمراض المجتمع الاخلاقية وقد حاربوا الدين وهو أقوى ماتحارب به هذه الرذائل ؛ وأنكروا مبادئ الاخلاق التي تعارفت على احترامها جميع الشعوب ؟!

ان لهم العبرة في تاريخهم في روسيا ، فقد كان ستالين رأس الشيوعية ولم يكن يملك مالاً ، ولم يكن رأساً لياً ولا برجوازيّاً ، ومع ذلك فقد كانت حياته في الحكم مليئة بالشرور كما أذاع ذلك الحزب الشيوعي السوفياتي بعد وفاته ، وطبعاً لقد كانوا يعرفون فيه هذه الشرور وهو على قيد الحياة ؛ فماذا استطاعوا أن يفعلوه لتخليص المجتمع الشيوعي من شروره ؟ انهم لم يستطيعوا أن يفعلوا الا شيئاً واحداً .. هو أنهم انتظروه حتى يموت .. ثم شتموه

لقد تفادت الاشتراكية الاسلامية هذا الخطأ ، فعالجت شرور الانسان الداخلية في نفس الوقت الذي عالجت فيه شرور رأس المال وطفغائه ، وبهذا نجحت في تجنيب المجتمع جميع شرور الانسان لاشراً واحداً فيه .

٨ - واخيراً فان اشتراكية الاسلام تجد مأمناً وحماهاً في النفس المسلمة

المستمسكة باسلامها ، فيندفع المسلم الى تطبيقها بوازع من دينه واسلامه قبل أي وازع ، وفي ذلك من الفائدة للدولة أنها لا تضطر الى تنفيذها بقوة الحراب وجو الارهاب ، بل تجد من الشعب المسلم استجابة وتأييداً ، وفيه من الفائدة للمجتمع أن هذه الاشتراكية تظل تعمل عملها في التقريب بين الطبقات ، وفي انصاف المظلومين من الظالمين ، وفي تحقيق التكافل الاجتماعي لاربابه ، حين يضعف سلطان الدولة أو تهمل تطبيق تلك الاشتراكية ، ان اشتراكية الاسلام نابعة من ضمير الشعب مرتبطة بعقيدته ، فهي لا تزول من المجتمع ولو زالت الدولة وسنرى في الواقع التاريخي الادلة القاطعة على هذا .

أما الشيوعية فانها منبئة جذور من أعماق النفس الانسانية ، لا تستند الى دين ولا الى فطرة ولا الى اقتناع ، فهي لا تنفذ الا بقوة الدولة وجو الارهاب ، ولذلك كان من لوازم الحكم الشيوعي ، الديكتاتورية والارهاب والتطهير الدموي الدائم في جو الحزب الشيوعي نفسه وفي داخل المجتمع ، وليست في الدنيا قوة تستمر في ارهاب الناس أمداً طويلاً ، وليس في التاريخ دولة لم تضعف بعد قوة ، فحين تزول القوة التي تحمي الشيوعية وتكره الناس على تنفيذها ، فيسكون الشعب المحكوم لها أول الخارجين عليها والهادمين لبنانيها من القواعد ، وفيما فعله الموظفون الروس خلال الحرب العالمية الثانية - كما ذكرنا آنفاً - دليل لمن يشك في هذه الحقيقة ، وافحام لمن يجادل في مستقبل الشيوعية بعد انهار سلطانها ..

٨ - آراء في اشتراكية الاسلام

من العسير أن نذكر هنا كل ما قاله الباحثون الغربيون عن مبادئ الاسلام الاشتراكية ، وايضاً فإن ملامح هذه الاشتراكية كما كشفنا عنها في هذا البحث وبالشكل المنظم الذي أوردناه ليست معروفة لاولئك الباحثين كما نعتقد ، وانما

يعرفون من هذه الملامح جزءاً قليلاً منها كنظام الزكاة والمساواة . ومع ذلك فلنستمع الى مايقوله بعضهم عن ذلك .

يقول المستشرق « جيب » المعروف :

ما زال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتغاليين المتقابلين في دنيا الغرب ، فهو يساوي ويوائم بين الاشتراكية القومية الاوروبية وبين شيوعية روسيا ، فلم يهو بالجانب الاقتصادي من الحياة الى ذلك النطاق الضيق الذي اصبح من مميزات اوربا في الوقت الحالي ، والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضاً^(١)

ويقول المستشرق المعروف « ماسينيون »

« ان لدى الاسلام من الكفاية مايجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبیت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري ، وبذا يحل الاسلام مرة اخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية الى أن يقول : « وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمعات آخر له مثل ما للإسلام من ماضٍ كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات^(١) »

ويقول « ليو دوروش » :

« ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى

(١) الاسلام والنظام العالمي الجديد لمولانا محمد علي : ٥ :

قول القرآن : « انما المؤمنون اخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية ، والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال (١) »

ويقول « ماركس » (؟ !) في نظام الزكاة :

« وكانت هذه الضريبة فرضاً دينياً يتحتم على الجميع أدائه ، وفضلاً عن هذه الصفة الدينية فالزكاة نظام اجتماعي عام ، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية مامتد به الفقراء وتعينهم ، وذلك على طريقة نظامية قوية لا استبدادية تحكمية ولا عرضية طارئة ، وهذا النظام البديع كان الاسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة ، فضريبة الزكاة التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والاغنياء على دفعها لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من افرادها هدمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحدت الأمة في دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الاسلامي على انه لا يقوم على أساس الأثرة البغيضة (٢) »

٩ - الواقع التاريخي (٢)

أ - في الدولة الإسلامية

كان العالم كله - خارج الجزيرة العربية - يوم أعلن الاسلام تلك المبادئ والقوانين الاشتراكية ، يسوده نظام الاقطاع وتحكم الاغنياء بال جماهير ، ولم يكن

(١) الاسلام والمضارة العربية لكرد علي : ٢٧٤/١

(٢) المصدر السابق : ٧٥/١

(٣) لقد طال جو البحث (كمحاضرة) ولم يعد يتحمل الافاضة في هذه الناحية ، ولذلك فقد اقتصر على الإشارة الى الخطوط البارزة بايجاز على ان أبسط القول في ذلك مفصلاً مع الأدلة والحوادث التاريخية من مصادرها الموثوقة في الطبعة الثانية إن شاء الله .

للفقراء ولا للعاجزين ما يستعينون به على ضعفهم وعجزهم أو يدفعون به عن أنفسهم غائلة الجوع والحاجة إلا أن يستجدوا الناس ، وكانت المجتمعات تنظر الى هؤلاء على أنهم كمية مهمة لقيمة لها في الحياة الاجتماعية ، بل هم عبء ثقيل على المجتمع لاسيما الى رفعه ، لأن الفقر في نظرهم قدر من السماء ، ينظر اليه بعضهم على أنه نعمة ، وينظر اليه بعضهم على أنه أعلى انواع الكمال والقربى الى الله ، وينظر اليه آخرون على أنه بلاء يعاقب الله به عباده كما يعاقبهم بالأمراض والموت!

فلما أن قامت للإسلام دولته الأولى في المدينة ، تكون أول مجتمع — لاني الجزيرة العربية فحسب — بل في تاريخ العالم كله ، تسوده روح التعاون والتناصح والشعور بالمسؤولية : مسؤولية المجتمع نحو أبنائه ، ومسؤولية كل فرد نحو إخوانه الآخرين .

أ — في عهد الرسول

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة أن قال :
أما بعد أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمنّ والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجب دونه : ألم يأتك رسولي فبذّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزي الحسنة عشر أمثالها الى سبعمئة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله (١) »

فهذا أول توجيه يصدره نبي الدعوة ورئيس الدولة محمد ﷺ في عاصمتها الجديدة (يثرب) كأنه يبين للناس أن أبرز شعارات هذه الدعوة عمل الخير والانفاق في سبيله ، لا يستثنى من ذلك أحد ولو كان غير موسر ، أما الموسر فبالانفاق المال ، وأما غير الموسر فبكلمات الخير والتناصح والبر ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه عاجز عن هذا !

ثم كتب رسول الله كتاباً (معاهدة) بين المهاجرين والانصار ، بين فيه دعائم الأخوة التي تقوم بينهم في مجتمعهم الجديد ، وأقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم ، وعاهدتهم على الحماية والنصرة ما أخلصوا للدولة الجديدة والنظام الجديد . واليك المبادئ التي تضمنتها هذه المعاهدة ^(١) :

- ١ - وحدة الأمة المسلمة من غير تفرقة بينها .
- ٢ - تساوي أبناء الأمة جميعاً في الحقوق والكرامة بحجر أدانهم على أعلامهم .
- ٣ - تكاتف الأمة كلها دون الظلم والاثم والعدوان والفساد كائناً من كان الظالم والمفسد .
- ٤ - اشتراك الأمة في تقرير العلاقات مع أعدائها ، لا يسلم مؤمن دون مؤمن .
- ٥ - تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها .
- ٦ - مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ، ووجوب الامتناع عن نصرتهم .
- ٧ - حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالماً متعاوناً ، والامتناع عن ظلمهم والبغي عليهم .
- ٨ - لغير المسلمين دينهم وأموالهم ، لا يجبرون على دين المسلمين ولا تؤخذ منهم أموالهم .

(١) انظر نصها الكامل في سيرة ابن هشام : ١٥٠ - ١٥٧/٢ .

- ٩ - على غير المسلمين أن يساهموا في نفقات الدولة كما يساهم المسلمون .
- ١٠ - على غير المسلمين - في الدولة الاسلامية - أن يتعاونوا معهم لدفع الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان .
- ١١ - وعليهم أن يشتركوا في نفقات القتال ماداموا محاربين .
- ١٢ - وعلى الدولة أن تنصر من يظلم منهم كما تنصر كل مسلم يُعتدى عليه .
- ١٣ - على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم .
- ١٤ - إذا كانت مصلحة الأمة في الصلح وجب على جميع أبنائها مسلمين وغير مسلمين أن يقبلوا بالصلح .
- ١٥ - لا يؤاخذ إنسان بذنب غيره ولا يجنى جان إلا على نفسه .
- ١٦ - حرية الانتقال في داخل الدولة وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة .
- ١٧ - لاحماية لآثم ولا لظالم .
- ١٨ - المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لاعلى الأثم والعدوان
- ١٩ - هذه المبادئ تحميها قوتان : قوة معنوية وهي إيمان الشعب بالله ومراقبته له ورعاية الله لمن بر ووفى ، وقوة مادية وهي رئاسة الدولة التي يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنفيذ هذه المعاهدة ، فوثق صلواته بيهود المدينة ، وآخى بين المهاجرين والانصار ، جعل لكل أنصاري أخاً مهاجراً يؤويه ويتعاون معه على العيش والحياة المشتركة ، ويرث كل واحد منها صاحبه إذا مات ، وذهب كل أنصاري بأخيه المهاجر يقسم بينه وبين أخيه ماله وداره وكل ما يملك !

وفي وسط رمال الجزيرة العربية عاشت في الدنيا لأول مرة عاصمة دولة لا تعرف الحقد ولا الاستئثار ولا البغي ولا الفجور ولا القسوة ولا موت الضمير !

ثم تطورت الدولة بعد ذلك فأرسل الرسول الولاة الى جميع أنحاء الجزيرة يجمعون الزكاة ويصرفونها في مصارف التكافل الاجتماعي ، فلكل فقير حاجته ، ولكل متزوج اعانته ، ولكل أعمى قائده ، ولكل مقعد مساعده ، ولكل مدين سداد ديونه ، ولكل من يموت فقيراً حماية أسرته بعد وفاته ، وحقت الدماء ، وحفظت الاعراض ، وصينت الكرامات ، وتحرر الناس من الجهل والخوف والخرافة ، ونفذت مبادئ معاهدة المدينة كلها إلا ما كان من علاقة المسلمين باليهود ، فقد نقض اليهود العهد ، وتأمرؤا مع قريش على حرب الرسول ، وملاً الحسد قلوبهم من نجاح الدولة الجديدة ، وما زالوا يدسون لها ويتآمرون عليها حتى أجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها .

واستمر الامر كذلك طيلة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وآمنت الجزيرة العربية كلها برسالة الاسلام حتى اذا كانت حجة الوداع وكان ذلك في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة ، خطب الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة التي أكد فيها مبادئ الدولة التي أعلنها في السنة الاولى من الهجرة وضمنها وصاياه الخالدة وقد جاء فيها :

أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس : ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه ، كل مسلم أخ لمسلم وإن المسلمين اخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، اللهم هل بلغت ؟ قالت الجماهير : اللهم نعم ، قال الرسول :

اللهم فاشهد^(١) .

ويلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر جميع الديون الربوية ، وقد كانت يومئذ ديوناً للأغنياء على الفقراء المحتاجين الذين كانت تضطربهم الحاجة الى الاستدانة بالربا ، وهذا تمشيع المبادئ الاشتراكية الاسلامية .

٢ - في عهد الخلفاء الراشدين

ثم توفي الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتولى الخلافة بعده أبو بكر ، وواجه حوادث الفتنة الداخلية التي سميت باسم « حروب الردة » وقد كانت القبائل التي قامت بتلك الفتنة ، منها من اتبع مسيلمة الكذاب والاسود العنسي في دعوى النبوة ، ومنها من بقي على الاسلام والايمان بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أعلنوا امتناعهم عن دفع « الزكاة » للدولة التي يرأسها أبو بكر ، وكيفما كان فقد كانت الفتنة « امتناعاً » عن تأدية « الزكاة » ورفضاً لتنفيذ مبادئ الاشتراكية الاسلامية في التكافل الاجتماعي ، ووقف أبو بكر موقفاً حازماً من تلك الفتنة وقالت قولته المشهورة : « والله لو منعوني عقلاً (أو عناقاً) كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، وخاضت الدولة الاسلامية معارك طاحنة انتهت بانزاع الفتنة ومقتل رؤوسها واسترداد الدولة الاسلامية حق « الزكاة » وتنفيذ مبادئ التكافل الاجتماعي ، ونعتقد أن هذه أول حرب في التاريخ تخوضها دولة ما في سبيل تنفيذ التكافل الاجتماعي وتمويل قوانينه ، وذلك مما ينبغي تسجيله والتنويه به في هذا المقام .

أما ما عدا ذلك فقد كان عهد أبي بكر امتداداً لعهد الرسول في تنفيذ التكافل الاجتماعي لجميع فئاته . حتى أن خالد بن الوليد حين كان يقود معارك

(١) انظر الخطبة بكاملها في سيرة ابن هشام : ٢٥٠/٤

الفتح في العراق أعلن في معاهدة الصلح مع أهل الخيرة - وكانوا مسيحيين - . التامين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر : « وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن العمل أو اصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما اقاموا بدار الاسلام »^(١) .

وكان أبو بكر في حياته الخاصة قدوة للناس في عفته عن أموال الدولة ومساواته نفسه بالناس في أعطياتهم ومعيشتهم .

وتولى عمر الخلافة من بعده ، واستمرت معارك فارس والروم الى نهايتها المظفرة وكان روحها الحركة وعقلها المفكر وقائدها الموفق ، ونظم الدولة تنظيمًا يتفق مع تطورها واتساع رقعتها ، وكانت من أهم أعماله تدوينه الدواوين ، والديوان كان تسجيلاً لكل مصادر الدولة ومواردها ، تقيد فيه أسماء ذوي الأعمال وأصحاب الاعطيات والمحاجين الذين يستحقون نفقتهم من بيت المال بمقتضى قوانين التكافل الاجتماعي ، وكان يعطى الرجل على حسب كفاءته وبلائه في خدمة الدولة وسابقته في الجهاد وعلى قدر حاجته وكفايته ، وكان يفرض لكل مولود مائة درهم ، فإذا ترعرع زاده الى مائتين ، فإذا بلغ زاده كذلك^(٢) .

وقد طبق عمر نظام التكافل الاجتماعي على غير المسلمين كما طبق على المسلمين ، فقد مر يوماً بشيخ كبير يسأل الناس ، فاستوعى ذلك انتباهه ، فسأله ما أنت يا شيخ ؟ قال : ذمي (وكان يهودياً) يسأل الجزية والصدقة ، فقال له عمر : ما أنصفناك ! أكلنا شبيبته ثم نضيعك في هرمك ؟ ! ثم أخذه الى بيته فأعطاه

(١) : نسخة ٢٤٩ و ٢٥٠

(٢) انظر المعاهدة بنصها الكامل في الخراج لابي يوسف : ١ : ٤٠١

(٣) : نسخة ٢٤٩ و ٢٥٠

(٢) الاموال : ٢٣٧

ما وجدته وأرسل الى خازن بيت المال يقول : انظر الى هذا وضربائه فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم ، اني وجدت الله يقول : انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسامون والمساكين هم أهل الذمة ، وهذا منهم^(١) و مر - وهو في طريقه الى الشام - بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر بأن ينفق عليهم من بيت المال ، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤونه^(٢) .

وكذلك استمر الامر في عهد عثمان - رغم الاضطراب السياسي الذي بدأ منذ السنة السابعة من عهد خلافته - ولم يؤثر هذا الاضطراب في قيام الدولة بجمع الزكاة وتنفيذ نظم التكافل الاجتماعي على اتمها . وقد كان أول كتاب كتبه الى عماله (ولاته) :

أما بعد فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم يأمرهم أن يكونوا جباة .. ألا وان اعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تشوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم^(٣) .

و كتب الى عمال الخراج :

أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والامانة الامانة قوموا عليها ، ولا تكونوا اول من يسلبها فتكونوا

(١) الخراج لابي يوسف : ١٢٦

(٢) فتوح البلدان للبلاذري : ١٣٦

(٣) تاريخ الطبري : ٣٠٦/٣

شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد
فان الله خصم لمن ظلمهم ^(١)

ثم ولي الخلافة بعده علي رضي الله عنه وقد غطى الاضطراب السياسي وجه
التكافل الاجتماعي الذي استمر في عهده كما كان في عهد من قبله ، وكان مما كتبه
الى محمد بن أبي بكر عندما استعمله على مصر أنه أمره بتقوى الله والطاعة في
السري والعانية وخوف الله عز وجل في المغيب والمشهد وباللين على المسلم والغلبة
على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمة ، وبالانصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم
وبالعفو عن الناس ، وبالاحسان ما استطاع والله يجزي المحسنين .. وأمره أن
يجبي خراج الارض على ما كان عليه من قبل لا ينتقص منه ولا يبتدع فيه ، ثم يقسمه
بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل ، وان يلين لهم جناحه ، وان يحكم
بين الناس بالحق

٣ - في العهد الأموي

واستمرت الدولة تقوم بواجبها في تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي من جباية
الزكاة ورعاية الفقراء والحاجات الاجتماعية ، حتى ان يوسف بن عمر كان يخصص
في ميزانية أقليمه كل سنة عشرة ملايين درهم « للاحداث والبنات اللاتي لم
يتزوجن » ^(٢)

ولاشك في أن سياسة الأمويين قد انحرفت عن سياسة الخلفاء الراشدين من
نواح عدة ، ولكن تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي ظل مستمراً كخطة من خطط

(١) تاريخ الطبري : ٣٠٦/٣

(٢) تاريخ الاسلام السياسي : ٣٦٤/١

الدولة العامة ، وأبرز الخلفاء الامويين عمر بن عبد العزيز وهو أقربهم الى هدى الخلفاء الراشدين ، ولو طال حكمه لاعاد الى المجتمع الاسلامي صفاءه المشرق في العهود السابقة ، وحسبنا ان يقول أحد عماله « كنا نطوف بالزكاة على الناس فلا نجد من يقبلها » لنعلم أي عهد كان عهده ، وأية عدالة اجتماعية كان ينعم بها الناس في ظله !

٤ — في العهود الأخرى

واستمرت الدولة أو الدول الإسلامية تقوم بجمع الزكاة وانفاقها على المستحقين حتى العصر العثماني ، وبما لا ريب فيه أن تنفيذ نظام التكافل الاجتماعي قد اضطرب عن ذي قبل نتيجة للاضطراب السياسي الذي كان يعيش فيه العالم الاسلامي في تلك العصور ، ولكن الحق ان هذا الاضطراب « أضعف » تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي ولم « يلغ » بل ظلت الدول الإسلامية هي الدول الاشتراكية الوحيدة بين دول العالم يومئذ رغم ما كان يشوب الحكم في الدول الإسلامية من ظلم وفساد ، وليس مرد ذلك إلا الى أن « الاشتراكية الإسلامية » جزء من عقيدة الاسلام كما ذكرنا من قبل .

ب — في المجتمع الإسلامي

لئن كان أمر الدولة الإسلامية ما ذكرناه من تمسكها أول الامر بنظام الاسلام في التكافل الاجتماعي ، وتهاونها فيه آخر الامر ، فقد كان شأن المجتمع الاسلامي أقوى أثراً وأشد تمسكاً وأطول عهداً وأقل مدى في ضعف الاستمساك بذلك النظام

لقد بدأ المجتمع الاسلامي في عهد رسول الله ﷺ كما وصفه القرآن بقوله « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله

ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار
والايمان من قبلهم (وهم الانصار) يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في
صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (فقر) ومن
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١)»

مجتمع كان فيه الفقر والغنى ، ولكنه لم يكن فيه المهانة والاستغلال ،
وكان فيه الحاكم والمحكوم ، ولكنه لم يكن فيه الظالم ولا المظلوم ، قد وصفه
الله بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار (أي الاعداء) رحماء
بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً (٢) »

مجتمع كان فيه اغنياء لا يخافون حقد الفقراء ، لانهم أدوا اليهم حق الله في
أموالهم ، وفقراء لا يخشون شح الاغنياء ، لانهم ما برحوا في فيض غامر من برهم
وسخائهم ، ولكن كانوا يتنافسون فيما بينهم ويتحاسدون على فعل الخير
والسبق اليه ..

جاء الفقراء مرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله
ذهب أهل الدثور (الاغنياء) بالأجور : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم
ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟
ان لكم بكل تسليحة صدقة وبكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي
عن المنكر صدقة النخ (٣) .

مظاهرة للفقراء من أغرب ما رواه التاريخ .. لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على
قسوة الاغنياء وظلمهم لهم .. فذلك ما لم يقع في ذلك المجتمع قط ، ولم يحتشدوا

(١) الحشر : ٨

(٢) الفتح : ٢٩

(٣) رواه مسلم وابن ماجه .

فيها للمطالبة بحق مأخوذ وكرامة مسلووبة ، فذلك ما لم يقع لهم قط .. ولكننا احتشدوا ليعربوا عن آلامهم في تخلفهم عن الاغنياء في ميادين الخير والاحسان فكيف يفعلون ؟ انهم يريدون أن يكونوا مثلهم يفعلون الخير وقد ظنوا أن سبيله هو المال فحسب ، وهم لا يملكون ما ينفقون ! وكان جواب الرسول أروع ما يمكن أن يوجه إليه أمثال هؤلاء ليكونوا بناءين في المجتمع غير هدامين ، ايجابيين لاسليبيين ، عاملين لا عاطلين .. ان سبل الخير ليست وقفاً على وجود المال .. بل ان لها سبلاً كثيرة يجدها كل انسان ولو غير غني ، فلا يحرم منها مواطن ولا يحال دونها فقير .. إنه كف اللسان عن الثروة بذكر الله وتسبيحه ! والقيام بالاصلاح الاجتماعي عن طريق الموعدة الحسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واماطة الاذى من طريق الناس ، واعانة من يحتاج الى العون وفي الاصلاح بين المتخاصمين والتقريب بين المتباعدين ؛ وفي امداد المجتمع بالنسل الصالح .. هكذا هكذا يكون التوجيه الاجتماعي البناء في ظل اشتراكية الاسلام من نبي الحكمة ورسول الخير والسلام .

واليك نماذج من اخلاق هذا المجتمع :

اخلاقهم في المعاملات

قال الشاطبي : « وتجدهم في الاجارات والتجارات لا يأخذون إلا بأقل ما يكون من الربح او الاجرة ، حتى يكون ماحول أحدهم من ذلك كسباً لغيره لاله ، ولذلك بالغوا في النصيحة فوق ما يلزمهم لانهم كانوا وكلاء للناس لا لانفسهم ، بل كانوا يرون المحاباة لانفسهم - وان جازت - كالغش لغيرهم »^(١)

أخبرهم في الجوار

أخرج البخاري في « الأدب المفرد » عن محمد بن زياد قال : أدركت السلف وأنهم ليكونون في المنزل الواحد بأهاليهم ، فرجا نزل على بعضهم الضيف و قدّر أحدهم على النار ، ف يأخذ صاحب الضيف لضيفه ، فيفقد القدرَ صاحبها ، فيقول من أخذ القدر ؟ فيقول صاحب الضيف : نحن أخذناها لضيفنا ، فيقول صاحب القدر : بارك الله لكم فيها (أو كلمة نحوها) قال ابن زياد : والحجز إذا خبزوا مثل ذلك ^(١) .

موقفهم من أموالهم

قال الشاطبي : لقد كانوا في الاكتساب ماهرين ودائبين ومتابعين لأنواع الاكتسابات ، لكن لا يذخروا لأنفسهم ، ولا ليحتجوا (أي محتجزوا) أموالهم ، بل لينفقوها في سبيل الخيرات ومكارم الاخلاق وما نذب الشرع اليه وما حسنته العوائد الشرعية ، فكانوا في أموالهم كاللولة على بيوت الاموال ^(٢) .

استجابتهم لدعوة الخير

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظ النساء بعد صلاة العيد ويحثهن على الصدقة و « بلال » يبسط ثوبه فيلقين اليه بما يتحلين به من خواتيم وغيرها ^(٣) .

(١) الادب المفرد ، ص ١٢٩

(٢) الموافقات : ١٨٨/٢

(٣) رواه البخاري ومسلم

ثقة بعضهم بحديث بعض

قال البراء بن عازب (الصحابي) : ليس كلنا كان يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت لنا ضيقة وأشغال ، ولكن الناس لم يكونوا يكذبون فيحدث الشاهد الغائب .

وحدث أنس بن مالك مرة بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل : أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، أو حدثني من لم يكذب ، والله ما كنا نكذب ولا كنا ندرى ما الكذب ؟ (١) .

الآثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الاسلام

لقد كانت مثل هذه الاخلاق قوية في العصور الاولى لقيام الاسلام ثم أخذت في الضعف شيئاً فشيئاً ومع ذلك فهناك ثلاثة أشياء لم تنقطع في المجتمع الاسلامي حتى اليوم .

أولاً - افراج الزكاة

استمر المسلم المتدين في مختلف العصور ولا يزال حتى اليوم يخرج زكاة ماله طائعاً مختاراً ، مع أن الدولة أهملت مطالبة الناس بها ، ومع أن هذا المسلم المتدين يدفع للدولة أنواعاً متعددة من الضرائب ، واستمرار اخراج الزكاة من الاغنياء المتدينين على مختلف العصور كان له أثر كبير في سد حاجات التكافل الاجتماعي وهي ظاهرة لا نجد لها مثيلاً في التاريخ ، وهي دليل واضح على أثر اشتراكية الاسلام في المجتمع الاسلامي .

ثانياً — النظار العائلي

ومن الظواهر البارزة في المجتمع الاسلامي حتى اليوم ، تماسك الاسرة وسيطرة الروح التعاونية على أجوائها ، فالابن ينفق على أبيه وعلى أمه ويحتويها في بيته مع زوجته وأولاده ويقوم بخدمتها حتى يتوفاهما الله ، وهو يعتبر ذلك فرضاً دينياً ، وعملاً يتقرب به الى الله . وكذلك نرى الاخ الكبير ينفق على اخوته الصغار ويربيهم ويعلمهم ويزوجهم وهو يرى أن ذلك حق لهم واجب لأمنة فيه ولا تفضل ، وكذلك يقوم بواجبه نحو أقربائه ، يقيهم شر العوز ، ويدفع عنهم حاجة السؤال عند العجز أو الفقر ، وهي ظاهرة تستلفت النظر بجانب ما يراه الانسان في المجتمع الغربي من تفكك الاسرة ، وتخلي الاب عن رعاية ابنه الكبير أو بنته الكبيرة ، وتخلي الاولاد عن آبائهم عند العجز والشيخوخة ، وقلّ أن ترى في الغرب رجلاً يسكن مع أبيه أو أمه بجانب زوجته وأولاده الصغار ، لقد تحققنا ذلك بأنفسنا خلال رحلتنا المتعددة الى اوروبا ، ولا شك في أن تميز المجتمع الاسلامي بهذه الظاهرة أثر من آثار اشتراكية الاسلام وخاصة قانون النفقات على الاقرباء .

ثالثاً — الاوقاف

وهذا بما استمر وجوده منذ العصور الاسلامية الاولى حتى اليوم ، والاوقاف نوعان : وقف ذري (أهلي) ويقصد به حفظ ذرية الواقف من الفقر والفاقة ، ومن شروط صحته أن ينتهي الى جهة خير لا ينقطع عند انقراض الذرية ، ووقف خيري وهو ما كان لجهة من جهات الخير ، وقد فاضت المدن والقرى في المجتمع بمثل هذه الاوقاف لجهات من الخير كبيرة النفع على المجتمع ، محققة

لغايات التكافل الاجتماعي وغيره مما يكاد يكون طريفاً ونادراً في التاريخ .

ولست أستطيع أن أستقصي القول عن هذه الاوقاف في مثل هذا الوقت ، ولكنني أكتفي بسرد أهم الاوقاف التي قامت في المجتمع الاسلامي ولا يزال كثير منها باقياً حتى الآن ، وهي أوقاف للأنفاق على :

- ١ - المساجد ، ٢ - المدارس ، ٣ - المكتبات العامة ، ٤ - المستشفيات
- ٥ - الفنادق للمسافرين ، ٦ - التكايا ، ٧ - السقايات ، ٨ - الآبار في الفلوات ،
- ٩ - الرباطات للمجاهدين ، ١٠ - السلاح والحيول للجهاد ، ١١ - تجهيز المقاتلين في الجهاد بالمال وغيره ، ١٢ - إصلاح الجسور والطرق العامة ، ١٣ - المقابر
- ١٤ - اللقطاء ، ١٥ - الايتام ، ١٦ - المقعدين ، ١٧ - العيىان ، ١٨ -
- العجزة ، ١٩ - المساجين ، ٢٠ - القرض الحسن للتجار وغيرهم ،
- ٢١ - البذار (مجاناً) للفلاحين ، ٢٢ - أدوات الزراعة ، ٢٣ - دواب الزراعة
- ٢٤ - أشجار مشمرة يأكل منها المارّة ، ٢٥ - أوقاف خيرية لجهات أخرى مثل
- قراءة القرآن ، ونفقات العلماء (ومنها وقف خاص في مصر لدابة شيخ الأزهر !)
- ونحر الاضاحي في عيد الاضحى ، وإطعام الفقراء في رمضان وغير ذلك .

وهناك أوقاف غاية في الطرافة والدلالة على سمو العاطفة الانسانية في المجتمع الاسلامي ، ولا نعلم لها مثيلاً في بلد من بلاد العالم ، من ذلك :

٢٦ - أوقاف للطب النفسي

في مدينة طرابلس (لبنان) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم على المرضى في المستشفيات يكون عملها هو أن يتحدثا بصوت خافت يسمعه المريض بحيث يوهما أنه يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما ، يقول أحدهما للآخر :

اني أرى اليوم فلاناً أحسن منه بالأمس ، فيقول الآخر : واني أرى اشراق وجهه وعينه أحسن مما كان يوم أمس ، وهكذا بحيث يسمع المريض ذلك فيعتقد صحة مايقولان .. وقد حدثني عن هذا الوقف مدير أوقاف طرابلس في إحدى زياراتي لها .

— وكان في مستشفى طولون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبي المضحك يقوم الممثلون بذلك أمام المرضى الذين تشتد آلامهم ويرتفع صراخهم ، فينسون الألم ويأخذون في الضحك ، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوي الاصوات الجميلة يرتلون الاناشيد في منتصف الليل من فوق مأذنة المسجد بالمستشفى ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الألم ويمنعهم من النوم ؛ كما كانت فرقة للموسيقي ، وقصاص يقصون القصص الشعبي على المرضى .

٢٧ — أوقاف للتزويج

أي تزويج الشباب والبنات حين يعجزون أو يعجز آبؤهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز ، فيتقدم الفتى أو الفتاة الى قيم الوقف بطلب المعونة لذلك ، فيعطيه ما هو بحاجة اليه .

٢٨ — وقف الزبادي

وهو خاص لاسعاف الاولاد والخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الزبادي في الطريق الى البيت ، يذهب الصبي أو الخادم الى قيم الوقف فيعرض عليه نموذجاً مما كان يحمل ، فيعطيه عوضاً عنها ويعود الى أهله وقد اتقى شر العقوبة ، وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عن هذا الوقف في دمشق .

٢٩ — نقطة الحليب !

كان مما أوقفه صلاح الدين الأيوبي وقف لأمداد الأمهات بالحليب اللازم لأطفالهن ، جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر ، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع فيأخذن لأطفالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر .

٣٠ — وقف للسجوان

وكان خاصاً بابواء الحيوانات الأليفة في بيت وإطعامها كوقف القطط الذي كان إلى عهد قريب موجوداً في (سوقساروجة) بدمشق وكانت فيه مايزيد على أربعمئة قطرة من الفارشات السمان !

٣١ — تطبيب الحيوان

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها ومن ذلك وقف (المرج الأخضر) الذي يقوم عليه الملعب البلدي بدمشق حالياً ، فقد كان وقفاً للخيل والحيوانات العاجزة ترعى فيه حتى تلاقى حتفها !

وبعد فهذه فكرة موجزة عن الاوقاف وأهدافها كما كانت - ولا يزال كثير منها - في المجتمع الاسلامي وهي بلا ريب أثراً من آثار اشتراكية الاسلام وتأثر المجتمع الاسلامي بها^(١).

(١) أفضنا القول عن الاوقاف والمؤسسات الاجتماعية في كتابنا « من روائع حضارتنا » وهو مخطوط لم يطبع بعد .

جـ - في الفرد المسلم

إذا كانت اشتراكية الاسلام قد نجحت في اقامة الدولة الاشتراكية التي سمعنا حديثها ، وفي اقامة المجتمع الاشتراكي الذي أحطنا بملامح الحياة الكريمة الظاهرة فيه ، فان ذلك بلا ريب أثر من آثار نجاح اشتراكية الاسلام في إيجاد الفرد المسلم الذي بلغ الكمال في سمو الخلق وبقظة الضمير واشراق الروح وسخاء النفس والشعور بالمسؤولية ، حتى استطاع أن يقيم الدولة التي تنفذ اشتراكية الاسلام ، والمجتمع الذي يحقق التكافل الاجتماعي كإجراء في نظام تلك الاشتراكية ولا ريب عندنا في أن وجود الفرد المسلم على أروع ما عرف التاريخ من صور الجمال في الوجود الانساني ، مدين لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان المثل الأعلى في سلوكه وخلقه ورحمته وعدله وجهاده ومعاملته وطرأز معيشته ، كان المثل الأعلى للكمال الانساني في مختلف جوانب النفس الانسانية وبذلك كان القدوة التي يحثيها كل طالب للكمال في حياته العامة والخاصة ، فكيف بالمسلم الذي يرى فيه رسول الله ورئيس الدولة ، وقائد ركب الحق والخير ، وإمام المتقين والمصلحين ، وسفير الرحمة في العالمين اجمعين .. « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ؟ (١) .

يقول الله مخاطباً المسلمين « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (٢) ولذلك استمرت النماذج الانسانية الرفيعة تترى بلا انقطاع في كل العصور الاسلامية - كثرة أو قلة - لان شخصية الرسول كانت وما تزال النموذج

(١) الانبياء : ١٠٧

(٢) الاحزاب : ٢١

الاعلى للانسان الكامل يحاول احتذاءها كل مسلم ما وسعه الجهد
وأمكنه القدوة .

وكان بودنا أن نعطي صورة واضحة لشخصية الرسول الكريم ، ونضرب
الامثلة المتعددة للفرد المسلم كما كان يعيش بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مجتمعه
لأننا نرى أن هذا ضروري لاستكمال الصورة الواضحة لاشتراكية الاسلام
في مبادئها وقوانينها وواقعها وتاريخها ، فان الامثلة الحية التي تعيش على الارض
ويراها الناس بأعينهم ، أبلغ في الاقناع وأدل على الحقيقة من كل مايكتب
وما يقال ..

كنا نود أن نفيض القول في هذا ، لولا أننا احببنا أن نقصر الآن على
ما ألقى في المحاضرة على مدرج الجامعة ، وسنستدرك ذلك في الطبعة المقبلة
ان شاء الله .

١٠ - الخاتمة

يقول الله تعالى :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها
في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم
يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها
من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة
ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (١) » .

وقال المسيح عليه السلام : سيكون بعدي انبياء كذبة ، قيل له فما علامتهم ؟ فقال : من ثمارهم تعرفونهم .

اذا كانت محاولة البرهان على افضل النظم عن طريق المقارنة والجدال لا تثمر ثمرتها المرجوة حين يرين الهوى على القلوب ، وتطغى العصبية على العقول ، فان المقارنة بين نتائج النظم وثمارها كما يحكيها التاريخ الصادق ؛ سبيل لا مجال لدحضه والرد عليه ولو لجّ المبطلون في عنادهم ، ولقد رأينا ثمار اشتراكية الاسلام كما هي في رواية التاريخ وواقعه الحي في دولتها وفي مجتمعتها وفي افرادها ، فكيف كانت هذه الثمار ؟!

إن اشتراكية الاسلام :

أخذت من العرب وثنية مترودية ، وقبائل متفرقة ، وحياة خشنة ، وعزلة موحشة ، وأعطتهم توحيداً متسامياً ، وعيشاً رخيماً ، وأمة واحدة ، وقيادة لمواكب النور في تاريخ الانسانية كلها .

أخذت من العالم عقائده المتفسخة ، وملوكه الظلمة ، وحيوانيته المتقاتلة ، وأعطته عقيدة محرّرة ، وقيادة ساهرة ، وانسانية بالنبل والخيرو زاخرة .

أخذت من العرب « أباجهل » وأعطتهم « أبابكر » !

أخذت من الفرس « مزدك » وأعطتهم « أباحنيفة » !

أخذت من مصر « المقوقس » وأعطتها « عمراً » !

أخذت من الشام « هرقل » وأعطتها « معاوية » !

أخذت من قيادة العالم « رستم وقيصر » وأعطتها « خالداً وعمر » !

أخذت من العالم « امبراطوريتين » أفنتا الشعوب : امبراطورية الفرس في الشرق ، وامبراطورية الروم في الغرب ..

وأعطت العالم « حضارتين » بعثتا الشرق الوثني والغرب الهمجي من رقدتيها : حضارة « بغداد » في المشرق و « قرطبة » في المغرب !

هذه هي بعض ثمار اشتراكية الاسلام ، فما هي ثمار اشتراكية الشيوعيين ؟

أنا لا أتحدث عن ثأرها في بلادها وفي بلاد غير بلادنا ، ولكني أتحدث عن ثأرها في بلادنا فماذا كانت ؟

لقد كانت ثأرها في الوطن العربي : إلحاداً وإفساداً وخيانة واثتاراً .. أخذت من العراق أمنه وسلامه ، واعطته دماءاً ودماراً ! أخذت من العراق وحدته ووثنه ، واعطته فرقة وعبودية ! تريد أن تأخذ من العراق دينه وعروبته لتعطيه «مزدكيتها» و«شعوبيتها» ! أخذت من العراق رشيد عالي وعبد السلام عارف ، واعطته المهداوي ووصفي طاهر !.. تلك هي ثأرنا ، وهذه هي ثأرهم ، فهل تستويان ؟ وما يستوى الاعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور»^(١) ايها السادة :

ان اشتراكية الاسلام :

إلهية في قدسيتها !

محمدية في قيادتها !

عربية في نشأتها !

انسانية في نزعتها !

عالمية في رسالتها !

ومن اجل ذلك كانت اشتراكية الاسلام لنا نحن العرب والمسلمين رسالة كريمة وسبيلاً مستقيماً ؛ وكانت اشتراكية الشيوعيين لنا موتاً ذليلاً وفساداً هداماً . من اجل ذلك كانت الدعوة الى اشتراكية الاسلام خدمة انسانية باهرة ، وضرورة قومية قاهرة ، وكانت الدعوة الى اشتراكية الشيوعيين خيانة وطنية سافرة ، وجريمة شعوبية فاجرة ..

والحمد لله رب العالمين .

١٩٥٩/٣/٣٠

خَوَاطِرٌ عَنْ نَهْضَتِ الْعَرَبِيَّةِ

الاستاذ مالك بن نبي

سادتي : انني أشكر الجامعة أن أتاحت لي فرصة الحديث معكم وتفضلت بوضعه تحت اشرافها ، واني أوجه شكري على الاخص الى السيد المدير والى هيئة الاساتذة المحترمين الذين تفضلوا بتحقيق هذه الفرصة ، كما أشكر المستمعين الكرام الذين شرفوني بحضورهم ملتصقاً منهم العذر عن قصوري في التعبير العربي تعبيراً صحيحاً يناسب ما يقتضيه موضوع الحديث من الوضوح .

سادتي : ان الامة العربية تمر اليوم بتجربة تتضمن تميّجها مصير كل عربي وربما تتضمن نصيباً من مصير كل انسان بمقتضى التفاعلات الموجودة اليوم بين الكتل البشرية التي تؤلف الانسانية ، وبمقتضى الترابط الموجود بين الحوادث التي تجري اليوم في عالم غيrote في جذوره التطورات العلمية والفنية خلال الخمسين سنة الاخيرة حتى أصبح من الصعب تقدير الاشياء والاحداث بالمقاييس التي تصوغها الاعتبارات المحلية فقط .

لا شك أن التجربة التي تقوم بها الأمة العربية اليوم تأخذ معناها أولاً من الاعتبارات الخاصة الناتجة من صميم حياة العرب المتصلة باطراد تاريخهم ثم انها تأخذ أيضاً معناها من اعتبارات أخرى تتصل بالاطراد العام الذي يكون تاريخ الانسانية ويربط أطوارها بعضها ببعض ، لان هذا الاطراد وذاك يلتقيان اليوم

في نقطة أصبحت تمثل قطب التاريخ ، القطب الذي كانت تتجه اليه تطورات العالم بصورة غامضة وأصبحت تتجه اليه بكل وضوح .. أعني أنه يفرض اليوم على سير التاريخ حتمية دخلت في نطاق حسنا وشعورنا حتى اننا نرى أثرها في التفكير الحديث عند بعض المؤرخين مثل Toynbee .

ان التجربة العربية تأخذ أيضاً معناها من الوسائل الفنية الضخمة التي أصبحت اليوم في تصرف الانسانية تفتح أمامها عهداً جديداً وتعلق في وقت واحد على مصيرها كل التوقعات .

ان العهد الحديث الذي مدّ شبكة الخطوط الحديدية في العالم وأضاء مدنه بنور الكهرباء ، ان هذا العهد الحديث الذي بهر جيلنا منذ خمسين سنة أصبح قديماً ، وبدأ يولي مدبراً الى ظلمات التاريخ ، وبدأت تذهب معالمه شيئاً فشيئاً وتصبح آثاراً ومخلفات من يديها خطوط حديدية معطلة في أوروبا وبعض الخطوط التليفونية التي أصبحت دون جدوى في قعر البحار .

ان التطور العلمي خلف هذا كله ورائه وكان التاريخ يطوي الصفحة الاخيرة من الفصل الذي كتبه الجيل في عهد البخار وأصبحنا على أبواب عهد جديد لا نعرف اسمه بعد وانما بدأنا نرى علاماته في الآفاق وفي أنفسنا ، في عالم جديد تبصر فيه عيوننا الى بعد المئات من الكيلومترات وتسمع فيه آذاننا الى بعد الآلاف من الكيلومترات ، ويمتد فيه حضورنا الى اي مكان من العالم بسرعة الضوء ، وننتقل فيه بسرعة الطائرة النفاثة اليوم وبسرعة الصاروخ الموجه غداً . اننا نعيش اليوم في عالم صاغه العامل الفني صياغة ذات أثر عميق في أنفسنا لان العوامل الجغرافية التي كان لها الجانب الاكبر في التأثير على سير التاريخ تفقد اليوم شيئاً فشيئاً مفعولها . ان العالم الذي نعيش فيه أصبح صغير الحجم وبقدر ما يقل فيه تأثير الأبعاد الجغرافية تزيد فيه سرعة التطور بفعل عوامل

التسريع التي ذكرناها من T. V. و T. S. F. واجهزة النقل. فالعالم اليوم يختصر الطريق ويختزل التاريخ ويعيش تحت قانون اجتماعي وتاريخي جديد هو قانون السرعة في جميع وجوه النشاط ، لا يظهر أثره في عالم الاشياء والاعتبارات العسكرية فقط بل يظهر أثره في عالم النفوس التي بدأت تشعر به شعوراً واضحاً كما يتبين ذلك من خلال دراسات حديثة مطبوعة بطابع خاص يمكن ان نسميها السياسة المقارنة او الاقتصاد المقارن ، مثل الدراسات التي خصصها Tibor Monde للحالة في جنوب آسيا الشرقية فإننا نفاجأ في مثل هذه الدراسات باعتبار ذات طابع نفسي جديد يترجم عن روح العصر وعن الاتجاهات والدوافع الخفية الجديدة التي سيجها التطور في أعماق الانفس ، فنكون مثلاً نقرأ صفحة عن اصلاح الزراعي في الهند واذا بجملة عن الانتاج الزراعي في الصين تعترضنا فجأة ، فإن هذا يعني أن الحقائق الاجتماعية والاقتصادية في بلد ما لا تصاغ في ضوء الأرقام التي تعبر عن حاجات وضرورات البلد فحسب بل تسلط عليها أضواء من الخارج ، وتقاس بمقاييس وأرقام تأتي من بلد بعيد ، وليس في هذا الاتجاه الا ضرورة من نوع جديد تعبر عن تصغير العالم وسرعة التطور فيه ، وعن وحدة المصير التي يتجه اليها اليوم التاريخ كما تتجه الابرة المغناطيسية الى قطبها في مجال المغناطيسية .

وكل هذه الاعتبارات مسجلة اليوم في شعورنا وفي لا شعورنا ، مسجلة بأي صفة كانت في انفسنا ، حتى انه لا يمكن لأي شعب ان يفصل حياته عن هذا القانون العام الذي صاغه العامل الفني خلال نصف القرن الاخير ، لا يمكنه أن يفصل حياته عنه دون أن يتعرض الى خطر النشور في العالم والخروج من التاريخ لأن التاريخ يعزل من لا يسير في اتجاهه ، وكل من عزله التاريخ فإنه يدخل حتماً في حظيرة الشعوب البدائية او في حظيرة العدم مثل الشعوب التي اكتشفها C. Colomb في امريكا . فهذه هي الظروف العامة الجديدة التي تدخل فيها

النهضة العربية في عهدنا الذي لا نعرف اسمه بعد وإنما نرى علاماته في الآفاق وفي أنفسنا ، وهكذا تدخل نهضتنا عهد الصاروخ يرفع رايتها الرئيس جمال عبد الناصر لتحقيق مصير كل عربي ونصيباً من مصير الانسانية .

وهكذا يجب علينا حينما نضع قضية النهضة العربية نصب أعيننا أن نعتبر مقتضياتها من جانبين : بنظرة الى الخارج لنحدد واجباتها نحو العالم اي لنحدد شروط انسجامها مع ضرورات السير العام ، ثم بنظرة الى الداخل لنحدد الطاقات التي يمكن توظيفها من اجل المحافظة على البقاء في الداخل والمحافظة على الاتجاه الصحيح في الخارج .

فأما من الجانب الاول فإن كل عربي يعلم أن نظرة الرئيس جمال عبدالناصر خطت للنهضة العربية الاتجاه الصحيح الذي يحقق الشرط الاول للانسجام مع القانون العام وهو الشرط الذي يخص وحدة المصير ، لأن قضية وحدة المصير في الظروف التي نمر بها هي في صميمها قضية السلام . ومن يخطط سياسته الخارجية على مبدأ الحياد الايجابي مثل ما فعل عبد الناصر — وقد كشفت الحوادث الاخيرة عن شدة تمسكه بهذا المبدأ — من يرسم سياسته الخارجية هكذا فإنه يضمن للأمة العربية ولنهضتها شرط الانسجام مع القانون العام فيما يتصل بوحدة المصير .

ومن ناحية اخرى فإننا نجد في التخطيطات التي تجري الآن في الجمهورية العربية المتحدة تحقيقاً لانسجام النهضة العربية مع ما يتصل بالجانب الثاني من القانون العام ، وهو ما يتعلق بعوامل التسريع في التاريخ وسرعة التطور في العلم . فان فكرة التخطيط تلعب دوراً هاماً في العالم الحديث لأنها تؤثر في الاوضاع النفسية والاجتماعية معاً ، اذ أنها تشخص الغايات قبل تحقيقها فتزوع بذلك الامل في النفوس الطامحة وتبث فيها روح التضحية والعمل . ولنا في تاريخنا القديم

مثال ندلّ به على ذلك الاثر النفسي الذي ظهر واضحاً في نفس عمار بن ياسر حينما كان يقوم بمجهود عاملين في بناء اول مسجد في الاسلام. وفي تاريخنا الحديث مثال آخر يرينا الاثر النفسي عند Stakhanov ابان النهضة السوفيتية حينما قام بمجهود عاملين في التخطيطات الصناعية الاولى . فإن الاول حينما رأى غايته في الحياة قد تمثلت له وكأنه يراها رأي العين سعى اليها بدافع نفسي عجيب . ولا يختلف الثاني عن الاول في رؤيته لاهدافه وسعيه اليها السعي الحثيث حتى أصبح سلوكه عنواناً لنظرية في الانتاج Stakhanovisme .

واما من الناحية الفنية فان فكرة التخطيط تكتل الوسائل وتربط ضمناً — بدافع تفرضه طبيعة العمل المخطط — بين بعض المشاكل التي قلما نفكر في ربطها بصفة منهجية ، لان العادات الفكرية لا تتغير بسرعة التطورات التي يحدثها العامل الفني في الاشياء . فقلما نفكر في العمل غير المخطط أن تربط بين مشكلة اليد ومشكلة العقل أو بين مشكلة العمل ومشكلة الوقت ، بينما يكون الربط بين هذه المشكلات ضرورة حتمية في العمل المخطط : ضرورة تفرضها طبيعة العمل نفسه دون إجهاد في التفكير ، لان التخطيط عملية تفكير : تفكير مسبق في عمل محدد من ناحية ، ومن ناحية اخرى هو توقيت هذا العمل في مدة معينة وتوزيعه على عدد معين من السنوات . وبهذا فانه يربط بين عوامل اجتماعية فعالة ويحل ضمناً المشكلات التي تتضمنها مثل مشكلة الربط الضروري بين العمل والفكر من ناحية وبين العمل والوقت من ناحية اخرى ، حتى تسير الوسائل باسرع ما يمكن الى اهدافها وتنتج اكبر ما يمكن انتاجاً في وقت معين . فالتخطيط : هو ، جملةً ، تعميم لنظرية Taylor الذي فكر في المشكلة في مستوى المصنع ، بينما يرفع القرن العشرين هذه النظرية من مستوى المصنع الذي يصنع منتوجاً حضارياً معيناً مثل السيارة والطائرة الى مستوى المجتمع الذي يصنع حضارة .

فكما كان تطبيق نظرية Taylor من العوامل التي أثرت تأثيراً عميقاً في

تسريع العمليات الصناعية منذ القرن التاسع عشر، فإن التخطيط يؤثر اليوم تأثيراً عميقاً في تسريع العمليات الاجتماعية التي نقوم عليها الحضارة، فالتخطيطات القائمة اليوم في الجمهورية العربية المتحدة تكون في النهضة العربية عنصراً أساسياً لانسجامها مع القانون العام من حيث سرعة التطور. فيمكن إذن ان نقول ان النهضة العربية أخذت، تجاه الضرورات الخارجية، الاتجاه الصحيح بفضل سياسة الحياد الإيجابي التي ياتزمها الرئيس عبد الناصر، كما بدأت أيضاً تتجه الاتجاه الصحيح ازاء ضرورات الداخل بفضل المشروعات المخططة التي أخذت طريقها الى التنفيذ في الجمهورية العربية المتحدة.

ولكن نظرتنا الى هنا في الموضوع إنما هي نظرة الى المستقبل، أي أنها تتصل بالشروط النظرية التي يجب ان تستجيب اليها النهضة العربية كي تحقق مصير الأمة العربية وتساهم في تحقيق نصيب من مصير الانسانية. ولاشك ان هذه النظرة كافية الى حد ما بالنسبة الى ضرورات الخارج، لان مبدأ الحياد الإيجابي لا يتوقف تنفيذه إلا على إرادة فولاذية لا تحيد عن سياسة الحياد ولاشك ان الرئيس عبد الناصر يبرهن على أنه لا يحيد مهما تكن الظروف. ونرى إذن أن نظرتنا الى المستقبل كافية بالنسبة الى ضرورات الخارج لأن تقرير المبدأ النظري يكفي في هذا المجال ولكنه لا يكفي وحده بالنسبة لضرورات الداخل، أي بالنسبة الى مشروعات البناء الاجتماعي المختلفة، بل لابد هنا من نظرة الى الماضي لأن مقتضيات النهضة لا تنفذ بقرار من إرادة فولاذية، ففي المشكلات الداخلية جانب نفسي لا تعبر عنه الأرقام مهما تكن دقيقة، ولا يمكن في أي بناء اجتماعي أن نهمل هذا الجانب لأنه يصور معادلة شخصية تتدخل ضمناً في أي حل قلمه الاعتبار الفنية.

إنه يجب ألا ننسى أن الانسان لا يدخل العمليات الاجتماعية كمادة خام بل يدخل في صورة معادلة شخصية صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصة تجارب

سابقة وعادات ثابتة تحدد موقف الفرد أمام المشكلات بما يكون في هذا الموقف من القوة أو الوهن، من الاهتمام أو التهاون، من الضبط أو الإهمال الخ .. وإذن فلا تكفي هنا نظرة مجردة إلى المستقبل، لأن الإنسان جهاز دقيق، أدق من كل شيء، تنصوره في الميكانيك الدقيق، ولكنه جهاز تخضع حركاته وسكناته إلى قانون صاغه ماضي أسرته ومجتمعه وثقافته، ولا بد من نظرة إلى ماضي هذا الجهاز لنعرف مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية والمشروعات المخططة القائمة عليه .

ولكن هذا الإنسان ليس قضيباً من الحديد نضعه تحت المجهر أو تحت تأثير مادة مشعة لنختبره إذا ما أردنا استعماله في تركيب ميكانيكي معين . إن اعتبار الإنسان لا يمكن أن يكون من النوع الستاتيكي، مثل قضيب الحديد في الظروف العادية، بل يجب أن يكون من النوع الديناميكي أعنى أنه يجب أن نختبره في حركاته لا في سكناته، وإذا اعتبرنا أن التاريخ إنما هو تسجيل لحركات مجتمع معين فأني قطعة منه نحللها نجد في نهاية التحليل إما الصورة الحقيقية لحالة الفرد بالنسبة إلى ضرورات المجتمع وإما، على الأقل، بعض المعلومات عن معادلته الشخصية أي عن مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية، كما يمكننا في نهاية التحليل أن نقرر ما يجب تعديله في تلك المعادلة حتى تصبح منسجمة مع ضرورات الخارج وحاجات الداخل .

وإذن فأني قطعة من التاريخ العربي تدلنا على مواطن الضعف في مجتمعنا حتى يمكننا أن ندخل التعديل المناسب في المعادلة الشخصية التي نخضعها ؟

فلنفرض أننا أخذنا صورة شمسية للعالم العربي خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر مثلاً .. فإننا سوف لانرى شيئاً فيها وكأنها صورة التقطت في ليل مظلم، ذلك الليل الطويل، الطويل جداً، الذي أشار إليه المستشرق Gauthier في كتابه (القرون المظلمة في المغرب) .

فهذه الصورة لاتفيدنا شيئاً في موضوع الحديث لانها لاتصور لنا حركة المجتمع العربي في ذلك العقد وإنما نومه وسكونه .

فلنأخذ صورة شمسية أخرى حوالي سنة ١٨٦٨ . . . إننا لن نجد فيها معلومات اكثر من الاولى . ولكننا نرى خلال الشريط ما يدل دلالة غامضة على فجر بدأ بصيصه يظهر في أفق العالم العربي .

ولنأخذ الآن صورة شمسية ثالثة حوالي سنة ١٩٠٥ . . . إننا سوف نجد العالم العربي يعيش الآن في ضوء النهار وسوف نحكم بمقتضى ما رأينا في الصورة الثانية والثالثة أن النهضة العربية بدأ فجرها يطلع حوالي سنة ١٨٦٨ وأن نهارها أصبح واضحاً حوالي سنة ١٩٠٥ . ولو أننا حللنا الصورة الثالثة لوجدنا ان النهار الجديد يضيء أشياء حديثة لم يألفها العربي في مسكنه ولباسه وشوارعه ، أشياء نرى عليها طابع حضارة الغرب . نرى لاشك هذه الاشياء كعلامة بينة على وجود نهضة لم تتبين أثرها في الصورة الاولى مثلاً ، ولكننا لم نستنتج من تلك العلامة غير المتظرة سوى دلالة عامة على أن التاريخ العربي قد تحرك من جديد بين سنوات (١٨٦٨ - ١٩٠٥) دون أن نعرف شيئاً آخر عن سرعة حركته ومدى التطور في هذه الحقبة التي اخترتها عن قصد ، لأنها تطابق في تاريخ القرن التاسع عشر ما يسمى في اليابان بعهد (الميجي) من بدايته اي عندما طرقت C. Perry قائد الاسطول الامريكى اذ ذاك أبواب اليابان سنة ١٨٦٨ فاضطرت لفتحها صاغرة حتى نهاية الحرب ضد روسيا القيصرية وانتصار تلك الدولة الآسيوية الناشئة على هذه الدولة الاستعمارية الكبرى سنة ١٩٠٥ انتصاراً بهر بعض الشعوب المستعمرة التي بدأت تنظر الى اليابان كالبطل الآخذ بثأرها . انه لا يهمننا الحدث نفسه وإنما تهمننا دلالته على ان النهضة التي يسمونها العهد الميجي

في اليابان قد حققت فيه ما لم تحققه في البلاد الاسلامية على العموم وفي البلاد العربية على الاخص .

إننا نجد أنفسنا أمام حقيقة يشهد بها التاريخ وليس في وسعنا الا الاعتراف بأن النهضة كان نشرها أعمق في اليابان منه في البلاد العربية في اواخر القرن الماضي . وهذا يعني دون ريب ان سير بلاد الشمس المشرقة خلال الحقبة التي اخترتها للمقارنة كان سيراً يتواءم مع ضرورات الداخل والخارج اكثر من السير في البلاد العربية ، وهذا يعني في التحليل ان المعادلة الشخصية اليابانية كانت أرجح في كفة التاريخ من المعادلة الشخصية التي كونتها النهضة في البلاد العربية . وهذا يجعلنا نتساءل لماذا رجحت كفة اليابان في أواخر القرن التاسع عشر الى هذا الحد ؟

إنه يجب علينا، للجواب على مثل هذا السؤال، ان نحدد معنى النهضة هنا حتى لا نخالف منطق التاريخ في استنتاجاتنا ضمن هذا البحث .

اذا راجعنا تاريخ القرن التاسع عشر وجدنا ان « النهضة » كانت ظاهرة عامة في مختلف البلاد المستعمرة وأن اسبابها تتصل بالظروف النفسية والاقتصادية والسياسية الجديدة التي كونتها المستعمر في تلك البلاد ، فالنهضة كانت الفعل الذي ردت به الشعوب المستعمرة في تلك الظروف . فلماذا اختلفت النتيجة اذا كانت الاسباب التاريخية واحدة ؟

اننا نضع هنا نقطة الاستفهام في صميم الموضوع لأننا اذا حددنا النهضة كرد فعل ازاء الاستعمار فاننا في خطوة ثانية مجبرون على ان نحدد رد الفعل لهذا النوع من العلة الخاصة التي ربطها الشعب الناهض بالحضارة الغربية .

اننا نجد (الهند) مثلاً نحدد صلة نهضتها بالحضارة الغربية في صورة فكرة دينية متعالية تتجلى في حياة Rama Krisma وفي حياة تلميذه Vive Kanenda

الذي قام بجولة الى اوربا وامريكا في غرة هذا القرن كأنه يريد ان يشعر الحضارة الغربية المتجبرة ان روح (الفيدا Veda) أي روح الهند الناهضة لا تخضع ولن تخضع للقوة المادية. وهذا الموقف هو الذي وقفه (غاندي) نفسه في بدء حياته العامة والذي لا يزال يقفه اليوم بعض تلامذة Vive Kanenda مثل Skri Aurobinda المفكر الهندي المعاصر لنا، فهو موقف على جانب من السلبية كما رآه (طاغور) نفسه عندما عبر بازدراء لاذع عن موقف بلاده ازاء الحضارة الغربية ، الموقف الذي يمكننا وصفه بموقف الضعيف المتكبر أمام القوي المتجبر . وهذا النوع من الصلة لم يكن لينفع النهضة في الهند لو لم يأت غاندي الذي عدل الجانب السلبي فيها بالإضافات الايجابية فغير اتجاه النهضة الهندية تغييراً نراه اليوم يتم على يد تلميذه (نهرو) . ومن الواضح لمن تتبع سياسة الهند منذ عشر سنوات أن النهضة الهندية نزلت من السحاب وبدأت تسير سيراً حثيثاً للانسجام مع القانون العام انسجاماً يستحق احياناً الاعجاب فيما يتصل بضرورات الخارج بوجه خاص . حتى أصبحنا نشعر أن الهند لم يعد يطيب لها الجلوس على مقعد المتفرج الذي يتتبع الاحداث على شاشة التاريخ معلقاً عليها ، بل اختارت لنفسها - وليس لديها الكثير من الوسائل - ان تصنع الأحداث العالمية او تشارك في صنعها بصفة جدية .

ومها يكن في هذا من الاستطراد فإننا نريد أن نقول ان النهضة الهندية كانت تحدد نوعاً من الصلة بالحضارة الغربية فيه ما فيه من نزعة الكبرياء التي ما برحت فيما أظن تطبع موقف الهند في العالم ، ولا تعطينا المقارنة بالنهضة العربية سوى شيء واحد هو ان الفكر الهندي لما رأى خلال القرن الماضي انه لا يستطيع حل مشكلات البقاء ومشكلات الاتجاه الخاصة بالهند انفصل عن الارض وارتفع الى السحاب مكابراً .

أما النهضة في اليابان خلال الحقبة التي اختوتناها للمقارنة فانها عبرت عن صلة

بالحضارة الغربية من نوع آخر . فاننا لو أخذنا صورة شمسية للمجتمع الياباني كما فعلنا للمجتمع العربي بين سنوات (١٨٦٨ - ١٩٠٥) فسوف نجد فيها من أشياء حضارة الغرب ما نجد قطعاً في صورة شمسية نلتقطها في نفس الوقت لمجتمعنا نحن ، ولكننا لو حللنا صورتين بالمجهر الدقيق لوجدنا الصورة الشمسية الخاصة بالنهضة العربية زاخرة بالاشياء الغربية الحديثة ، ولا نجد معها تقريباً سوى أشياء اخرى من مخلفات حضارتنا التي ولّت إلى ظلمات التاريخ .

أما لو حللنا الصورة الشمسية الخاصة بنهضة اليابان فاننا نجد فيها أيضاً مع الاشياء الغربية الحديثة أشياء عتيقة من مخلفات حضارة (الميكادو ، والسموراي) واننا سوف نجد فيها الى جانب عالم زاخر بالاشياء عالماً آخر زاخراً بالافكار الجديدة : الافكار التي نبتت من عبقرية اليابان لما اصطدم بواقع القرن التاسع عشر . وهذه الملاحظة جديرة بالتأمل لانها تكشف لنا عن الفارق العظيم بين الصلة التي ربطها اليابان بالحضارة الغربية وبين صلتنا بها . ان اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ ووقفنا منها موقف الزبون . انه استورد منها الافكار بوجه خاص ونحن استوردنا منها الأشياء بوجه خاص . . . انه كان خلال سنوات (١٨٦٨ - ١٩٠٥) ينشئ حضارة ، وكنا نشترى بضاعة حضارة ، فكان البون بيننا شاسعاً والخلاف جوهرياً ، يؤدي حتماً الى ترجيح كفة اليابان كما بيّنا في المقارنة التي عقدناها لسنة ١٩٠٥ .

ان هذه النظرة الى الماضي أفادتنا شيئين : ان حركة النهضة العربية كانت تسير على بطاء ثم انها لم تكن تتجه نحو انشاء حضارة . او على الاقل انها لم تنظم اتجاهها نحو الحضارة .

ومن الطبيعي اذن ان نفترض فيها أولاً وجود عوامل تعطيل نفسية أثرت في سيرها خلال الحقبة التي جعلناها عن قصد موضوع البحث - وثانياً وجود عوامل أخرى فكرية أثرت في اتجاهها تأثيراً سلبياً .

والمشكلة في صورتها الجديدة اذن هي ان تتساءل : هل زال مفعول هذه العوامل المعوقة للنهضة العربية أم لا ؟ ومن الواضح اننا لانملك في ايدينا شيئاً يتيح لنا الجواب عن هذا السؤال جواباً يقنعنا لانه يتطلب دراسة موضوعية لم نقيم بها ولا نعلم أن احداً قام بها . انه بلغنا أن القضية دخلت اخيراً الى المختبر لتدرس ، وأن لجنة تأسست بالقاهرة لدراسة هذا الجانب النفساني في إطار التخطيطات القائمة اليوم . ولكننا قبل ان تصلنا نتيجة هذه الدراسة الموضوعية نجد أنفسنا مضطرين الى تقدير نظري وهو أن عوامل التعطيل التي نتحدث عنها لا يزال بعضها عالقاً بعالم النفس عندنا في صورة رواسب خلفها في نفوسنا عهد الجسكس الذي اشرنا اليه بعنوان كتاب المستشرق Gauthier ولا أشعر أن هذا التقدير النظري يخرج من نطاق الواقع اذا أخذنا باعتبار أننا لم نقيم الى الآن في العالم الاسلامي عموماً والعالم العربي بالخصوص بما يسميه علماء النفس عملية تصفية للرواسب التي نتحدث عنها . وفيما يخص هذا الحديث فانني افقع بالحديث عن هذا الجانب المرضي في النهضة العربية تاركاً جانب العلاج الى من يقوم بهذا الامر مباشرة في إطار التخطيطات ، مع اعتقادي انه يتصل بقضية (الثقافة) والتوجيهات الثقافية في البلاد العربية على شرط أن نعطي لكلمة ثقافة معناها الصحيح لتقوم أولاً بالدور الحلاق للإنسان العربي الجديد الذي يتواءم مع ضرورات النهضة في الخارج وفي الداخل .

هذا من جانب الاعتبارات التي تمس ضعف النهضة من حيث النفس . وأما الاعتبارات التي تمس ضعفها من حيث الفكر فاننا أيضاً مضطرون الى التقديرات النظرية حتى تأتينا نتائج الدراسات الموضوعية للقضية ، فاننا نقدر جملةً أن الضعف الذي نشاهده في اتجاه النهضة العربية من الجانب الفكري خلال الفترة التاريخية التي اخترناها للمقارنة أي فترة (١٨٦٨ - ١٩٠٥) إنما يرجع الى

أسباب منطقية معينة لا تتصور أنها تخرج عنها . ويمكن أن ترتب هذه الاسباب كما يأتي .

- ١ - عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة .
 - ٢ - عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصاً صحيحاً .
 - ٣ - عدم تحديد الوسائل تحديداً يناسب الغاية المنشودة والامكانيات .
- اننا نكون بهذا الترتيب قد صغنا ثلاث مشكلات تكون الحلقة الجديدة لهذا الحديث .

١ - فاما بالنسبة للسبب الاول - وبقدر صحة الملاحظة - فالضعف يتصل بقانون الحركة بصفة عامة . ان كل حركة تفقد غايتها ، أعني أن غايتها لم تتحدد بوضوح ، فان شأنها التيه في السبيل والتبذير في الوسائل والخطأ في الهدف وبالتالي فانها حركة تخضع لقانون الصدفة اي أنها لا تأتي بنتيجة في اتجاه معين وفي وقت معين . هذا من وجهة نظرية مجتة أي بالنسبة لكل نوع من الحركة . ولكن النهضة العربية والنهضة بصفة عامة (باعتبارها حدثاً يحدث في تاريخ أمة في ظروف معينة مثل النهضة المعاصرة لنهضتنا في آسيا كما ذكرنا أو مثل نهضة أوروبا في منتصف القرن الخامس عشر) هي حركة من نوع خاص تحدد غايتها طبقاً لنوعيتها : هل الحضارة هي تلك الغاية وبالتالي هل هي غاية كل سير في التاريخ ؟ سواء أكان عن طريق التحديد والتوجيه والتوقيت أم عن طريق الصدفة ؟ .

ان الجواب على هذا السؤال يستوجب أولاً اعتبار التاريخ لا كمجرد تسلسل حوادث على شاشة الزمن بل كعملية اجتماعية محددة الاسباب والنتائج ومرتبطة بمصير الانسان تقدر حظه أو تلقيه في الحضيض .

ويأتي اذن السؤال في هذه الصورة : في أي ظروف يحقق التاريخ حظ الفرد ويرفع شأنه في بلده ويعزز مكانه في العالم ؟

اننا لو وزعنا بعض الارقام على خريطة العالم لوجدنا الجواب للسؤال المطروح

في صورة جغرافية ذات دلالة . فلنأخذ مثلاً قائمة متوسط الدخل السنوي للفرد في العالم فإن أرقامها تتراوح من ١٨٥٠ دولاراً في الولايات المتحدة إلى ٣٨ في جمهورية ليبيريا . وإذا اعتبرنا في هذه القائمة أن متوسط الدخل السنوي في اليابان ٢٠٠ هو الرقم الوسط في العالم ، لا كعدد ولكن اقتصادياً ، ثم وزعنا أرقام القائمة على الخريطة فأننا سوف نرى أنها تصور لنا رقتين جغرافيتين تتمتع أحدهما بمتوسط دخل سنوي فردى فوق ٢٠٠ دولاراً والآخرى يقع الدخل الفردى فيها دون هذا الرقم . ومن الطبيعي أن نقول إن الفرد الذى يولد في الرقعة الأولى يحصل بمجرد ولادته على حظ أكبر في الحياة من نظيره الذى يولد في الرقعة الأولى الأخرى . ولو لاحظنا بعد هذا أن الرقعة الأولى هي بالضبط رقعة الحضارة الغربية وامتدادها الجغرافى التاريخى شرقاً وغرباً ، أى امتدادها من أقصى الغرب من سان فرانسيسكو مثلاً إلى طوكيو في الشرق ، ولاحظنا في الوقت نفسه أن الرقعة الأخرى هي بالضبط رقعة الشعوب التي تعيش من طنجة إلى جاكرتا في حالة نسميها ماقبل الحضارة ، وربطنا القضية بالجغرافية من ناحية وبالتاريخ من ناحية أخرى - فإن هذه الاعتبارات تملئ الجواب على السؤال المطروح .. أى أن الشروط التي تحقق للإنسان حظه في الحياة هي بصفة عامة شروط حضارة ، وأن مصيره مقيد بها يبرز غداً إن تحققت ويجرم ان اختلت أو انهدمت .

ولو اتخذنا قائمة أخرى ووزعنا أيضاً أرقامها على الخريطة لوجدنا الظاهرة نفسها في صورة قارتين : قارة يسودها الرخاء لان حضارتها تتكفل بحياة الفرد وتقدم له جميع الضمانات الاجتماعية ؛ وقارة يسودها الحرمان لان الحياة الاجتماعية فيها في مرحلة دون الحضارة . فلو وزعنا مثلاً أرقام قائمة استهلاك الكهرباء أو الفحم الحجري فأننا سوف نصل للنتيجة نفسها . وعلى سبيل المثل فقط نذكر أرقام استهلاك الفحم في العالم للفرد :

- ٨ أطنان للفرد في الولايات المتحدة الأمريكية .
 ٤ » » في السويد .
 ٢,٥ طن » في فرنسا .
 ١ طن » في إيطاليا .
 ١١٠ كيلو » في الهند أى لبلاد واقعة في محور
 طنجة - جاكرتا .

وإذا رجعنا الآن الى قضية النهضة العربية في ضوء هذه الاعتبارات فإننا نرى أنه من الضروري أن تحدد غاية سيرها كمحركة في التاريخ، ثم أن تتخذ، كعملية اجتماعية ، الحضارة غاية لها . وبقدر ما يصح هذا التشخيص في ضوء الاعتبارات الاجتماعية والتاريخية كما سبق ، نكون قد تداركنا جانباً من عوامل التعطيل الذي كشفته لنا المقارنة مع نهضة اليابان .

٢ - هذا بالنسبة للسبب الاول . وأما بالنسبة للثاني أى بالنسبة لتشخيص المشكلات فان الضعف يتسرب في تقدير مشكلات النهضة من حيث ضرورات الداخل وضرورات الخارج تقديرأ سليماً ، لاننا كنا نفكر حتى عهد قريب ، الى حد ما لازلنا نفكر ، لاحسب طبيعة الاشياء ولكن حسب عادات فكرية توجه فكرنا مبدئياً في اتجاه معين سواء أكان هذا الاتجاه صالحاً يناسب فعلاً ما تقتضي المشكلات من الحلول أم لا يناسب . هذه العادات الفكرية تعمل مفعولها أحياناً في صورة البديهيات التي تطبق دون أى تحفظ ، والبديهيات في التاريخ كثيراً ما قامت بدور سلبى كمعامل تعطيل مثل بديهية : الارض مسطحة ، فانها عطلت الى حد ما سير التاريخ وحالات دون اكتشاف أمريكا قروناً طويلة حتى عهد كولومبو ، بينما كان العلم القديم نفسه ينشد كروية الارض كما يشهد بذلك كتاب (بطليموس Ptolémée) . إن اجيالا كثيرة من البحارة لم تكتشف أمريكا لانها لم تكن تواجه مشكلة المواصلات البعيدة

بفكرها بل بعاداتها الفكرية . وهذه العادات تؤثر فعلا في سرعة التطور لأنها تجعلنا نعتبر المشكلات طبقاً لبديهيات لا يدل شيء على أهميتها ، بدل أن نفكر فيها حقيقة ، وكثيراً مانعتر بالصورة بدل أن نهتم بجوهرها ، مثل الطبيب الذي يهتم بعرض من أعراض المرض بدلاً من أن يكشف عن المرض نفسه ، ومن الواضح أن علاجاً يتجه في حالة معينة إلى الحمى عوضاً عن الاهتمام بسببها قد يؤدي إلى زيادة المرض وأحياناً إلى موت المريض نفسه ، إذا ما فات وقت التدارك .

إن كثيراً من المشكلات تعرض لنا هكذا فلا نتعرض لها بفكرنا ولكن بعاداتنا الفكرية . وقد يكون نصيبنا من النجاح قليلاً دون أن نشعر بذلك أحياناً لأننا نفقد وسائل الرقابة ، وليست بين أيدينا المقاييس لتقدير النتيجة تقديرًا صحيحاً . قد نكون مثلاً مهتمين بقضية (الامية) وهي تمس في الصميم قضية النهضة كعملية اجتماعية تتضمن الطاقات الفكرية مع الطاقات الأخرى ، ومن الطبيعي أن نفكر في الجهل كمشكلة أساسية لا بد من حلها ، ولكننا في الواقع قلدنا نفكر فيها تفكيراً جذرياً . فكثيراً مانوتني المشكلة الحلول التي اعتدناها في عاداتنا الفكرية مع بعض الطقوس الاجتماعية التي لا تخلو من الرياء ، فنقرر طبقاً لعاداتنا أن « العلم » هو العلاج النافع ، ونميل أيضاً إلى هذا النوع من العلاج بمقتضى الطقوس الاجتماعية القائمة في البلاد ، بينما النتيجة أحياناً دون ما نريد وأحياناً خلاف ما نريد عندما نرى النتيجة في إحدى صورتها : إما في صورة العالم الذي لا ينفع المجتمع الا قليلاً . أو في صورة العالم الذي يضر المجتمع أحياناً بعلمه ، لأن أساسه الخلق لم يتكون ولم نفكر في تكوينه مقتنعين بشكيلة الأشياء دون اهتمام جدي بحقيقتها وبصلتها بضرورات الداخل وضرورات الخارج . وربما تزيد الحالة سوءاً حين تتدخل الطقوس الاجتماعية في تشخيص المشاكل فإن العلم يصبح إذاً صنفاً من الرياء وسبباً للتنافس بين الأمر البشرية فيفقد بهذا كل فعاليتها الاجتماعية ، لأننا لم نفكر فيه على أساس اجتماعي نفسي

وانما على أساس مدرسي وجامعي . فنكيف التعليم كعملية تهدف أساساً الى إضافة المعلومات بعضها الى بعض لا كعملية تصفية نفسية في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع ، أي كعملية صياغة للإنسان صياغة جديدة ، تتواءم مع ضرورات الداخل وضرورات الخارج ، أي مع القانون العام الذي يفرض في الداخل سرعة السير وفي الخارج وحدة المصير ، ولا نشعر بالخطأ في المنهاج القائم على مبدأ إضافة المعلومات أو — اذا سمح لي بهذا التعبير — تكديس المعلومات لاننا لا نقدر تطورنا بالمقياس الذي يصوغه السير العام في العالم وانما نقدره بمقياس نسبي تصوغه ظروفنا الخاصة .

فحين يدخل العالم في عهد القمر الصناعي ندخل نحن في عهد الكاديلاك ، ونشعر أننا حققنا خطوة لا بأس بها في التقدم لاننا كنا في عهد الحمار في بعض البلاد العربية . انني لم أذكر هذا المثل للشعور بحاجتنا الى القمر الصناعي والصاروخ الموجه ، وانما ذكرته لتوضيح الموقف ؛ بل اشعر أن حاجتنا الأساسية في عالم النفس اكثر منها في عالم الاشياء . ان حاجتنا الاولى هي الانسان الجديد .. الانسان المتحضر .. الانسان الذي يعود الى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد . وصياغة هذا الجهاز الدقيق الذي يسمى الانسان لا تتم بمجرد إضافة معلومات جديدة الى معلوماته القديمة لانه سبق هو قديماً في عاداته الفكرية وفي مواقفه امام المشكلات الاجتماعية وفي فعاليته إزاءها وعلى الاخص في لفاعاليته التي نجد اكثرها عندما تقاجئنا الظروف أحياناً ببعض الفضائح او ببعض المآسي مثل غرق السفينة (دندرة) في النيل ، أو عندما نحلل صورة شمسية تكشف لنا مواطن الضعف في المجتمع ، كما كشفت لنا الصورة التي اتاحت لنا مقارنة النهضة في اليابان مع النهضة في البلاد الاسلامية عموماً والعربية خصوصاً ، كما سبق .

وإذا فان قضية اجتماعية مهما كانت ظروفها لاتعالج بالبدهييات التي تفرضا عاداتنا الفكرية ومنها هذه التي ترى العلاج النافع في وضع

النقيض أمام كل داء . فقد كان من حكم الطب القديم أن الحرارة مثلاً دواؤها الرطوبة ، ولا بأس بهذه الحكمة ما لم تكون قيداً يقيد التفكير وعادة تحجر الفكر . فلو استسلم الطب لحكمة كهذه مع رشدتها وصلاحياتها في بعض الظروف لما وجد باستور (Pasteur) طريقاً لاكتشاف العلاج النافع . لداء الكلب مثلاً ، لأن هذا الطريق المبتكر كان في اتجاه يخالف تماماً حكمة النقيض إذ نرى (Pasteur) يعالج الداء بنفس الداء . فيجب إذن أن نحترز ، قدس الامكان في معالجة المشكلات الاجتماعية ، من الطريقة التي تضع امام كل داء نقيضه كدواء فنضع مثلاً العلم أمام الجهل دون قيد أو شرط ، ونجد أنفسنا أحياناً وبالتالي أمام علم نفعي غير نافع ، يعيش على جسم المجتمع مثل النبات الطفيلي على الاشجار . فقضية الجهل لا تعالج إذاً بمجرد وضع البرامج التعليمية ، والتعليم لا ينفع كمجرد إضافة معلومات ، بل يجب ان يكون أولاً عملية تصفية نفسية ... وتعديل معادلة شخصية زيفتها جهود الكساد . وبكلمة واحدة يجب ان يكون التعليم بناء الشخصية الجديدة في العربي المتجدد طبقاً لضرورات النهضة في الداخل والخارج . وهذا يعني ألاّ توضع برامج التعليم لما يسمى (العلم) ولكن طبقاً لشيء أعم بكثير هو : الثقافة . أي أن توضع برامج تتصل بعالم النفس والدوافع الاساسية ثم بعالم العقل والمفاهيم ، وبعالم الاشياء والحاجات .

٣- وأما من وجهة المشكلة الثالثة التي ذكرناها في الترتيب السالف أي تحديد الوسائل فإن تحليلنا للصورة الشمسية قد كشف لنا عن جانب سلبي في النهضة العربية يتصل بضعف منطقي فيها باعتبارها حركة تاريخية لم تعرف بالضبط أو لم تحدد غايتها . ولكن لا بد أن نضيف بجانب هذا ضعفاً آخر متفشياً فيها باعتبارها عملية اجتماعية لم تعرف بالضبط أو لم تحدد وسائلها . فإننا لو تتبعنا سيرها خلال فترة معينة ، كما فعلنا ، فسوف نجد فيها - رغم كل الضعف في تحديد غايتها -

اتجاهاً نحو حضارة ، مهما يكن في هذا الاتجاه من الغموض . ولكننا اذا حللنا مرة اخرى الصورة الشمسية المذكورة فإنها ستكشف لنا أن النهضة العربية كانت تحاول تحقيق غايتها بالاشياء التي تستوردها من الحضارة الغربية . فالخطأ يتصل هذه المرة بقضية الوسائل ، والسؤال : هل يصح أن تكون الاشياء التي نستوردها من الخارج وسائل لتشييد حضارة دون قيد ولا شرط ؟ ...

ان الشيء الذي نستورده يكون منتجاً من منتوجات حضارة معينة ، أو منتجاً حضارياً بصفة مطلقة . فأما من حيث انه منتج حضارة معينة فإنه قد يتفق مع مصلحة البلاد التي استوردته أو لا يتفق معها أحياناً من الجانب الاقتصادي وأحياناً من الجانب النفساني أيضاً . فاستيراد (الويسكي) مثلاً قلما يتفق مع مصلحة بلاد اسلامية بوجه عام وبلاد عربية بوجه خاص . وكذا استيراد سيارات الكاديلاك غالباً واستيراد فرو السيدات في البلاد التي تشرق عليها شمس المناطق الحارة .

هنا نلمس جانباً من الضعف المنطقي لا نكاد نختلف فيه لأنه واضح تمام الوضوح ، وهو يتصل غالباً بسلوك الفرد ، أي يتصل بقضية نفسية وخلقية . ولكن هناك جانباً آخر يتعلق بسلوك المجتمع نفسه وموقفه أمام الشيء المستورد باعتباره منتجاً حضارياً بصفة مطلقة فلا بأس طبعاً أن نستورد من الأشياء ما نسد به حاجتنا الاساسية مؤقتاً ، ولا بأس أن نستورد الطب والطبيب والمطبعة والاستاذ ومعلوماته والصيدلي وأدواته والمهندس وآلاته مادما نحن لا ننتج هذا كله . وإنما على شرط ألا تكون عندنا بعض العادات الفكرية فتقلب ضمناً ودون أن نشعر منطق الاجتماع ، أو تكون عندنا بعض العقد النفسية فتربط اتجاهاتنا ودوافعنا بالشيء والشئبة .

فإننا اذا صغنا جملة مثل هذه : « ان المنتج لا يكون المنتج بل المنتج

هو الذي يكون المنتوج » - فسوف لا يختلف في مضمونها لأننا صغناها صياغة عامة واضحة لا يختلف فيها اثنان وسوف تتفق لاشك على أن هذه القاعدة المنطقية صحيحة دوماً ، وعليه فلنتخذها كمقياس عام في الموضوع .

إننا حين حللنا الصورة الشمسية التي استخدمناها خلال حديثنا وجدنا في النهضة العربية بين سنوات (١٨٦٨-١٩٠٥) « عالم اشياء » جديد لم يعرفه آباؤنا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر مثلاً ووجدنا الاشياء نفسها في اليابان استوردها كما استوردناها نحن من الحضارة الغربية ، ولكن كشف لنا التاريخ ان تلك الاشياء لم تؤد في نهضتنا الدور الذي أدته في نهضة اليابان . فسنستنتج من هذا أن الاشياء لا تؤدي مفعولها الاجتماعي تلقائياً ولا تؤثر وحدها في صياغة العملية الاجتماعية وإنما تؤثر بقدر ما يضاف الى مفعولها من دوافع نفسية وتوجيهات فكرية معينة ، فالشعب الياباني كان يريد بالاشياء التي استوردها خلال العهد الميجي وسائل يواجه بها بناء حضارة . والبناء لا يتم بالاشياء مهما كانت صلاحيتها وثمنها ، وإنما يتم بالدوافع التي تحرك تلك الاشياء والفكرة التي ترتبها في العملية الاجتماعية . . وعندما لا يكون في هذه العملية سوى الاشياء وحدها فالنتيجة تصبح في حكم الصدف لافي حكم التقدير . وهذا ما وقع في نهضتنا العربية خلال النصف الاول من هذا القرن ، فكنا كأننا نحاول بناء حضارة بنتوجاتها . ومثل هذه العملية يتناقض بكل وضوح مع القاعدة المنطقية البسيطة التي صغناها لتوضيح هذا الجانب مع التحفظ بنسبية الاشياء وطبيعتها . على ان القاعدة المنطقية في الرياضيات مثلاً تفصل بين الخطأ والصواب بمقدار الشعرة أي المقدار الذي يسميه أهل الفن (الابساون) . . أما القاعدة المنطقية في الاجتماع فانها تفصل بين الخطأ والصواب بمقدار الشهر . وهذا الشهر يفصل في الحقيقة موضوع حديثنا بين خطئين : أي بين الافراط والتفريط . ولكلا النوعين من الخطأ معنى اجتماعي ربما يفيد توضيحه هنا . فأما

التفريط فهو ترك العملية الاجتماعية لقانون الصدفة مطلقاً، أي ترك العنان للأشياء تفعل ما تريد بتصرفها الاعشى. وهذا التصرف يقلب أولاً الوضع المنطقي الطبيعي معبراً عن عملية تقوم على مبدأ تكوين المنتج من منتوجاته، أي في مصطلح موضوعنا تكوين الحضارة ابتداء من المنتوجات الحضارية، فإن العملية صريحة المخالفة للمنطق البسيط من الوجهة النظرية ولكنها تخالف أيضاً ما يسمى المنطق العملي لأنها قائمة على استحالة مزدوجة: تنتج الاستحالة الاولى من عجزنا عجزاً مسبقاً عن وضع قائمة للأشياء أو المنتجات الحضارية التي يلزم استيرادها لان احصاء عددها يفوق ما نتصور من الصعوبة كمجرد عملية احصائية، فضلاً عن ان عملية كهذه لا تنتهي لان عدد الاشياء الحضارية يتزايد كل يوم، فالمحاولة اذن ضرب من العبث في هذا الوجه أولاً. ثم هي مستحيلة من وجه آخر. فلو قدرنا أننا انتهينا بنجاح من عملية الاحصاء وانني اكرر عبث مثل هذا الفرض - فسوف نجد انفسنا امام استحالة أخرى تتصل بتمويل المشروع. لان الميزانية التي يقضيها تنفيذه تفوق امكانيات أي مجتمع ناشئ، وتصبح حتى على مجتمع متقدم مزود بالخبرة كما نرى ذلك خلال (تجربة ألمانيا) بعد الحرب العالمية الثانية التي حطّم جهاز انتاجها تحطيماً كاملاً شاملاً من مصنع الابرة الى مصنع الصاروخ الذي كان يشرف عليه V. Brown على شواطئ بحر البلطيق. واليوم - أي بعد عشر سنوات فقط - استرجعت ألمانيا عالم اشياء بالجملة، بل زادت فيه آخر المنتوجات الصناعية، ولكن لم يفكر من أشرف في ألمانيا على عملية البعث الجديد في استيراد هذه الاشياء، لان العملية مستحيلة من وجهة تصورهما الفكري ومن وجهة تمويلها، ولو عززها مشروع مارشال بالمليارات من الدولار.

ولكن أثر خطأ التفريط لا ينتهي عندهذه الاستحالة الفكرية والمادية بل يتعدى الى الجانب النفسي لان الشيء يفرض على الانسان سيطرة خفية تتجلى في حاجتنا اليه أو

في اعجابنا به وقلمنا تتجاوز سلطة الشيء حدود الاعجاب الفني عند من صنعه، لان روح الصانع تشعر دوماً بعزتها امام المصنوع أما عند من يستورد الشيء فان الوضع ينعكس: فاما ان يفقد الشيء تماماً فعاليته الاجتماعية لاننا لا نقدر قيمته، مثل جهاز الكترول في دقيق يقع صدفة في ايدي قوم بدائيين في اواسط افريقيا، واما ان يجد الشيء عندنا كل تقدير ولكن يتجاوز تقديرنا له حدود الاعجاب الفني الى اعجاب صوفي فتطغي علينا سيطرة الشيء إلى حد يقرب من التقديس اللا شعوري لان الصلة النفسية بيننا وبينه ليست صلة الصانع بالمصنوع. وهكذا تتكون في المجتمع نزعة يمكن أن تؤدي في نهاية الامر الى ظهور حضارة شيئية، أي حضارة يطغى فيها الشيء على الانسان. وربما تنتهي هذه النزعة تدريجياً الى نزعة مادية بحتة. فهذا هو الجانب الخفي من حيث التفريط في عملية إنشاء حضارة ابتداء من منتوجاتها واشارتها.

ولكن هناء، إلى الجانب الآخر، جانب الإفراط كما ذكرنا. وهذا الخطأ يكشف عنه تاريخ الحضارات التي سبقتنا، فالحضارة المسيحية مثلاً لم تنشأ في أنبوبة مغلقة أعني انها لم تكون كل عناصرها من نفسها، في بادىء أمرها على الاخص فإن أحدث اختراعاتها من القمر الصناعي إلى الصاروخ الموجه قائم على تطور علمي لا يمكن أن نتصوره لولا علم الجبر أو علم المثلثات أو الحساب العشري الذي يقوم على استخدام الصفر كرقم أساسي. فلو لا هذه المقدمات العلمية التي هيأتها الحضارة الاسلامية للحضارة المسيحية، لما استطاعت هذه أن تغزو الفضاء اليوم. ولكن الحضارة المسيحية لم تستورد من البلاد العربية البضاعة العلمية فحسب، بل كانت تستورد معها أيضاً بعض الأشياء من منتوجاتها بالآخص في بادىء أمرها.

كما أن الحضارة الاسلامية أيضاً كانت تتغذى وتتفاعل بثقافة اليونان وأشياء من الهند بحكم التاريخ، لانه لا يمكن لحضارة أن تنشأ في أنبوبة مغلقة لا يأتيا شيء من الخارج.

فالمصواب إذن في الشبر الذي يفصل بين التفريط والإفراط وتحديد

يتوقف على عملية تحليل الحضارة نفسها ، باعتبارها مركباً لا يتكون في أصله من أشياء ومنتجات حضارية بل من أصول تفرضها طبيعة المنتجات وشروط تطور الانتاج .

فلنسلك هنا مسلك الكيميائي الذي يريد أن يصنع مركب الماء مثلاً فإنه يأخذ منه مقداراً كافياً لإجراء عملية التحليل . فالمقدار الكافي كعينة من الحضارة هو مانسميه المنتج الحضاري ، فأى شيء ينتجه المجتمع هو منتج حضارة سواء أنتجه بوسائل الانتاج العادية أم أنتجه بالتفكير البحت ، فكل مفهوم من عالم المفومات وكل شيء من عالم الاشياء وكل شخص من عالم الاشخاص باعتباره معادلة شخصية انتجتها ظروف التاريخ وشروط التطور ، كل عينة بين هذه العينات هي منتج حضارة .. أى أن هذه العينات كلها — مع اختلاف صورها وأشكالها وطبائعها تكون من حيث تركيبها الاجتماعي نوعاً واحداً هو نوع المنتجات الحضارية ، فلا غرابة إذن عندما أقول : ان القلم الذي يكتب هذه الكلمات مثلاً، والشخص الذي يكتبها ، والكلمات نفسها والورقة التي تكتب عليها كلها من نوع واحد ، من حيث تركيبها الاجتماعي . ولكنني اذا ما حلت القلم كعينة ، والصفحة التي يكتب فيها ، فإنني سأجد في كلتا العينتين ثلاثة عناصر مركبة :

الإنسان - التراب - الوقت

وهكذا تكون النتيجة دوماً كلما استمرت عملية التحليل من عينة إلى أخرى ، من منتج حضاري إلى آخر .

يمكن إذن أن نعبّر عن كل منتج حضاري بهذه المعادلة الاساسية :

$$\text{منتج حضاري} = \text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت} .$$

ويجب الآن أن أكتب هذه المعادلة لكل منتج من منتجات الحضارة

من الابد الى مابعدھا، و الى مابعد الصاروخ، حتى اكوت جدولاً كاملاً من المعادلات، الواحدة تحت الاخرى في هذا الترتيب مثلاً :

منتوج حضاري أول = إنسان + تراب + وقت

ثانٍ = " + " + "

الخ =

منتوج حضاري أخير = إنسان + تراب + وقت

وحين أنتهي من ترتيب المعادلات بهذه الصورة يمكن أن أجمعها عمودياً على الطريقة المستخدمة في الجبر، وأنتهي حينئذ الى هذه النتيجة الشاملة.

مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت

ولكن جمع منتوجات حضارية هو الحضارة نفسها في صورة غير مركبة وجمع إنسان هو الانسان نوعاً، وجمع تراب هو التراب نوعاً، وجمع وقت هو الوقت نوعاً. وبالتالي يمكن أن أكتب النتيجة التحليلية في صورتها النهائية:

حضارة = إنسان + تراب + وقت

ومن هذه المعادلة النهائية يمكن أن نستنتج استنتاجات نظرية مختلفة تدل أولاً على أن الحضارة ليست، أساساً، تكديس منتوجات حضارية بل هي بناء مركب اجتماعي يشمل ثلاثة عناصر فقط مهما كانت درجة تعقيدها كحضارة القرن العشرين. ثم إنها تزيل عن موضوع بناء هذا المركب الشبهات التي تعلق به من حيث الامكانيات، اذ نرى أن هذه الامكانيات بالنسبة لأي شعب محفوظة في رصيد الطبيعة، لافي رصيد البنك. يعني أن إمكانيات الشعوب تتساوى في أصلها.

ولكن المعادلة التي كتبناها في صورتها الاخيرة لا تتفق مع واقع التاريخ دون قيد أو شرط ، لان العملية لا تنتج تلقائياً كلما اجتمع الانسان والتراب والوقت . إذ نرى في تاريخ الشعب الواحد فترات خالية من الحضارة ، لان الشعب لم يدخل في عملية التحضير بل خرج منها في ظروف معينة ، يقع فيها الافول .

ان المعادلة التي انتهينا اليها ليست صحيحة إلا بشروط يبينها التاريخ ، لانه هو مختبر التجارب والعمليات الاجتماعية .

إننا عندما سلكنافي التحليل مسلك الكيميائي الذي يحلل عينة من الماء وجدنا في جهاز التحليل كمية من غاز الهيدروجين وكمية من غاز الاوكسجين ، ولكن عندما نحاول الرجوع من هذين العنصرين إلى الأصل نجد أنفسنا أمام استحالة تدل على أن العملية صحيحة في التحليل وربما غير صحيحة في التركيب . ولكن الكيميائي يرفع من ذهنه هذا الشك لانه متمسك بمبدأ عام يقضي بان المركب يتوكل حتماً من العناصر التي ينتهي اليها تحليله ، فيدرك بدايةً ان الاستحالة التي وقف عندها هي صورة لا تمس بجوهر المركب . فالماء يساوي هيدروجين وأوكسجين سواء من حيث التحليل أو من حيث التركيب .. ولكن يجب اتباع طريق خاص في التركيب ، ففعلاً لا يلبث الكيميائي أن يكتشف أن عملية تركيب الماء تخضع لقانون المركب الذي يتدخل فيها في صورة شرارة كهربائية مثلاً .

وهكذا يجب أن نلتفت نحن إلى مختبر التاريخ ليدلنا على المركب الذي يتدخل في تركيب العناصر الثلاثة : الرجل ، التراب ، الوقت ، كما يكون بها حضارة . ولا أريد هنا اطالة الكلام على تأثير الدين كعامل مركب للحضارة ، فمن يدرس تاريخ الحضارة الغربية مثل Toynbee أو H. Massis يرى أثر الفكرة المسيحية في تركيبها وكذلك من يدرس الحضارة الاسلامية يرى

في تركيبها أثر الشرارة التي نزلت من السماء على غارساء.. وكذلك يرى من يدرس الحضارة البوذية أثر فكرة (Gautama) كدين ، في تركيبها .

ولكن حسب الاعتبارات الاجتماعية التي تنتج مما انتهى اليه التحليل يتبين أن المعادلة العامة التي وصلنا اليها تدل على أن مشكلة الحضارة لا تحل باستيراد منتوجات حضارية موجودة - مع الاحتفاظ بالصواب بين الافراط والتفريط كما يبتنأ - ولكنها تستوجب حل ثلاث مشكلات جزئية :

- ١ - مشكلة الانسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ .
- ٢ - مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية .
- ٣ - مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد .

إنه يمكننا الآن في ضوء هذه الاعتبارات النظرية أن نقدر تقديراً سليماً وضع النهضة العربية من حيث غايتها ووسائلها وطبيعتها مشاكلاً .

إننا نعرف الآن أن المشروعات المخططة القائمة اليوم في الجمهورية العربية المتحدة تهدف أساساً إلى تركيب حضارة وإلى تسريع السير نحو هذا الهدف ، وإن وسائلها للوصول إليه هي الانسان والتراب والوقت .

ونعلم أنها حين تأتي بالحلول المناسبة للمشكلات التي تتصل بهذه العناصر الثلاثة تكون قد حققت شروط الانسجام مع سير التاريخ بالنسبة إلى ضرورات الداخل وضرورات الخارج . وتكون بذلك قررت مصير كل عربي وساهمت مساهمة جديفة في تقرير مصير الانسانية .

ان النهضة العربية بلا شك دخلت في طور جديد منذ ثورة (٢٣) يوليو سنة ١٩٥٢ ولا شك ان المشروعات التي وضعت للتنفيذ ستحقق طفرة استثنائية في تاريخ الامة العربية . ولكنني اريد لو يسمح لي قبل كلمة الختام ان اعبّر

عن وجهة نظري في ترتيب الصعوبات حسب درجتها وأهميتها فاني أرى أن
توضع (مشكلة الانسان) في المرتبة الاولى لانه هو الذي يوجه الاشياء
ويصنع الحضارة .

. . .

وختاماً أكرر شكرى للذين أتاحوا لي فرصة الحديث معكم وفي مقدمتهم
حضرة السيد مدير الجامعة والسادة عمداء الكليات وهيئة التدريس .

وانني لأرجو ان يجد الشباب العربي في رحاب هذه الجامعة خير مصنع
يصنع في عقله عدة الحضارة ، وفي نفسه الاستعداد لبناء الحضارة العربية
ببناءها الجديد والسلام .

١٩٥٩/٧/٢٦

808.5:D58mA

1958/59

دمشق ، الجامعة السورية .

المحاضرات العامة .

AUG 22

64-1167

808.5

D58mA

1958/59

~~5 Sep 66~~

808.5:D58mA:1958\59:c.1

دمشق، الجامعة السورية
المحاضرات العامة [للسنوات] الجامعي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01020753

